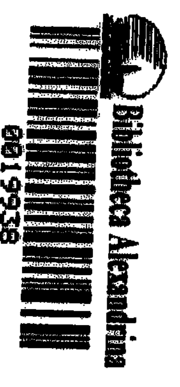
أمين معلوف

حدائق النور



ترجمة:
د. عفيف دمشقية





حدائق النور

أمين معلوف

حدائق النور

ترجمه:
د. عفيف دمشقية



الكتاب : حدائق النور

المؤلف : أمين معلوف

المترجم : د. عفيف دمشقية

الناشر : دار الفارابي - بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٣١٨١ - ت: ٠١/٣٠١٤٦١
: فاكس: ٠١/٣٠٧٧٧٥

تصميم الغلاف : فارس غصوب

الطبعة الرابعة ١٩٩٨

الحجر الذي رفضه البنّاؤون
هو الذي سيكون حجر الزاوية
«المزامير»

تمهيد

«دجلة» نهر وحيد الوجهة، على عكس «النيل» الذي في وسع المرء أن ينحدر فيه مدفوعاً بالتيّار أو يصعّد حسب مشيئة الأشرعة. ففي «بلاد ما بين النهرين» تنساب الرياح، شأنها شأن المياه، من الجبل إلى البحر، ولا تفعل ذلك قطّ باتّجاه الأراضي الداخلية، حتى لتُضطّر المراكب إلى التباطؤ تبعاً لمشية الحمير أو البغال التي ستقطرُها في طريق العودة إلى مربطها هياكلَ مترجرجة مرتبكة على الدروب الجافّة.

وفي أقصى الشّمال، حيث منبعه، ينحدر «دجلة» الجَموح بين الصخور، والوحيدون الذين يجسرون على امتطائه هم بضعة نوتيّة من الأرمن وعيونهم شاخصة إلى فَوَران الماء المُخادِع. وإنه لشريان عجيب لا يتلاقى فيه العابرون ولا يتجاوز بعضهم بعضاً ولا يتبادلون التمنّيات ولا الحُمولات. ومن هنا كان الشعور المُسْكِر بأن يُبحر المرء وحيداً، من غير عفريت حارس ولا مواكبة غير مواكبة النخيل على الضفاف.

وإذ يبلغ «دجلةُ» (المدائنَ) عاصمة بلاد (بابل) ومقرّ الملوك «البارتيين» فإنه يصبح وديعاً ويستطيع الناس الاقتراب منه بلا حذر، ولا يعود سوى ذراعٍ عملاقة مائعة تُعْبَر من جُرُف إلى جُرُف في قُفَفٍ مدوّرة مسطّحة القعر يتكدّس

فيها الناس والبضائع وتوغل نحو الضفّة مدوّمة أحياناً من غير أن تغرق مع ذلك، سلالاً مبتذَلة من الأَسَل المضفور تنتزع من نهر الطُّوفان كلّ شموخ. وعندها يكون من السماحة والحِلْم بحيث تُرى فيه أزواج كثيبة متعانقة وهي تتخبّط: جلود بهائم مذبوحة ومفرّغة ومَخِيطة ثم منفوخة، وقد تعلّق بها سبّاحون جسداً إلى جسد وكأنهم في رقصة للبقاء على قيد الحياة.

تبدأ قصة «ماني» في فجر العهد النصراني، بعد أقلّ من قرنين على موت «المسيح». وعلى ضفاف «دجلة» ما يزال حشد من الآلهة يتباطأ. فبعضهم برزوا من الطُّوفان والكتب الأولى، والآخرون قدِموا مع الفاتحين أو مع التجّار. وقليل من المؤمنين في (المدائن) يحتفظون بصلواتهم لوثن أوحد، ويجرون من معبد إلى معبد لإقامة القداديس. ويهرع بعض الناس إلى قُربان «ميترا» لاستحقاق نصيبهم من الوليمة؛ ويبحث بعضهم في ساعة القيلولة عن ركن ظليل في حدائق «عشتار»؛ وفي آخر النهار يأتون للطواف حول محراب «نانايي» مترقّبين مقدم القوافل؛ وبالتقرب من «الإلهة الكبرى» يحصل المسافرون على محطّة لقضاء الليل. ويستقبلهم الكهنة ويُقدّمون لهم الماء المعطّر ثم يدعونهم للانحناء أمام تمثال ربّتهم المُحْسِنة. وفي وسع القادمين من بعيد أن يطلقوا على «نانايي» اسم ربّة مألوفة لديهم، فالإغريق يدعونها أحياناً «أفروديت»، والفُرس «أناهيتا»، والمصريّون «إيزيس»، والرومان «ڤينوس»، والعرب «اللات»، وهي لكل واحد منهم الأمّ المُرْضِع، ولثَدْيها السخيّ حرارة الأرض الحمراء التي يرويها النهر الخالد.

وغير بعيد من هناك، على تلّة تُشْرِف على جسر (سلوقية) ينتصب معبد «نَبو». وإذ كان إلَهَ المعرفة، إلَهَ الشيءِ المكتوب، فإنه يسهر على العلوم الغيبيّة والجليّة. وشِعاره يَراعٌ، وكهنته أطبّاء ومنجّمون، وأتباعه يُلقون عند قدميه بالألواح أو الكتب أو الرِّقاع التي يتقبّلها أكثر ممّا يتقبّل أي قُربان آخر. وفي أيام (بابل) المجيدة كان اسم هذا الإله يسبق أسماء الملوك الذين كانوا يُسمَّوْن على هذا «نَبونصّر» أو «نَبوپولصّر» أو «نَبوخذنصّر». واليوم يغشى المتعلّمون وحدهم

معبد «نَبو»، ويفضّل عامة الشعب تبجيله من بعيد؛ وحين يمرّ الناس من أمام رُواقه للذهاب إلى أرباب آخرين فإنهم يحثّون الخطى ويوجّهون إلى المحراب نظرات حائرة. ذلك أن «نَبو»، إله الكَتَبَة، هو أيضاً كاتب الآلهة، وهو وحده مكلّف أن يكتب في كتاب الأبدية الأحداث التي غبرت والتي ستكون في مستقبل الأيام. وعندما يُحاذي بعض الطاعنين في السنّ جدار المعبد الأمْغَر فإنهم يُسْرِعون في ستر وجوههم. فربما كان «نَبو» قد نسي أنهم لا يزالون في هذه الدنيا، فلماذا تذكيره بالأمر؟.

يسخر المتعلّمون من مخاوف العامّة. فهم الذين يحبّون المعرفة أكثر من حبّهم القوّة أو الثروة، بل حتى السعادة، يفاخرون بتقديس «نَبو» أكثر من أي إله آخر. ويجتمعون يوم الأربعاء، اليوم المخصّص لوثنهم، في حَرَمَ المعبد، فيشكّلون، بوصفهم ناسخين أو تجّاراً أو موظّفين ملكيين، حلقات صغيرة نشِطة وبليغة تتسكّع كلّ منها تبعاً لتقاليدها. فبعضها يسلك الممشى المركزيّ ويطوف حول المحراب وصولاً إلى الحوض البيضوي الذي تسبح فيه الأسماك المقدّسة. وبعضها الآخر يفضّل الممشى الجانبي الأورف ظلالاً والمفضي إلى الحظيرة التي تحتجز بهائم الأضاحي. ويُسرَّح الغِزلان والحُملان والجِداء عادةً في الحدائق؛ ويُحبس فقط الثيران وذئبان أسيران؛ بيد أنه، عشية الاحتفالات، يجمع العبيد الملحقون بالمعبد البهائمَ لإخلاء المماشي واتّقاء أعمال الصيد المحظور.

يتعرّف المرء من بين متنزّهي يوم الأربعاء بسهولة إلى «پاتيغ». إلى ساقيه المغلّفتين في سراويل من الحرير الأخضر المثنّى على الطريقة الفارسية، وذراعيه النحيلتين المحوَّمتين تحت معطف من القطيفة، وفوق هذا الطيف الهزيل المتلفّع على هذا النحو بالألوان الزاهية، يتعرّف إلى رأس يبدو وكأنه سُرِق من أحد تماثيل العمالقة: لحية كثّة سمراء مضفورة وكأنها عُثكول، وشعر غزير منسدل ومربوط فوق الجبين بعصابة من نسيج صوفي متين مطرّز بشعار طبقته، طبقة

المحاربين. ومع ذلك فإن هذا المظهر ليس سوى ذكرى لأن «پاتيغ» لم يعد يمارس الحرب ولا الصيد. وقد انطفأ في عينيه كلّ عنف، وأخذت رعشة تهزّ شفتيه باستمرار وكأنّ سؤالاً طالما كُبِت يستعدّ للبروز.

وعلى الرغم من أنه لّما يكد يبلغ الثامنة عشرة فإن ابن طبقة الأشراف «الپارتيين» العليا هذا كان سيُحاط بتقدير لا يُوصف لو لم يكن يحمل في نظراته براءة طفولية تحرمه من كلّ مهابة. فكيف لا يُستقبل بابتسامات متوقّدة مَنْ يبرز أمام شخص لا يعرفه ويقدِّم إليه نفسه بهذه العبارة: «إنني أحد الباحثين عن الحقيقة!».

وبهذه الكلمات بالذات خاطب «پاتيغ» في ذلك الأربعاء شخصاً يرتدي البياض ويقف بعيداً عن الناس منحنياً فوق الحوض البيضوي ويحمل في يده عصا مُخَصَّرة بالعُقد يعلوها مقبض عَرْضيّ يربِّت عليه بحركة توحي بنُشدان الحماية.

ويردّد الرجل من غير تهكّم ظاهر:

ـ باحث عن الحقيقة. وكيف لا يكون المرء كذلك في هذا العصر الذي يحاذي فيه قدرٌ كبير من الورع قدراً كبيراً من الكُفْر!.

ويشعر الشابّ الپارتي أنه في أرض صديقة.

ـ اسمي «پاتيغ». وأصلي من (أيكبتان). [هي اليوم (همذان) في (إيران)](*).

ـ وأنا «سيتابي»، من (تدمر).

ـ لباسك ليس لباس أبناء مدينتك.

ـ وأحاديثك ليست أحاديث أبناء طبقتك.

(*) جميع الكلام الواقع بين [ ] في هذا الكتاب هو تعليقات وحواشٍ من المترجم.

أرفق الرجل ردّه بحركة انزعاج. وتابع «پاتيغ» الذي لم يلاحظ شيئاً: .

ـ (تدمر)! أصحيح أنه أقيم فيها محراب بلا صنم مُهدىً إلى «إله مجهول»؟.

وترك الآخر لحظة طويلة تمرّ قبل أن يجيب بفتور متعمَّد: .

ـ يُقال ذلك.

ـ على هذا فأنت لم تَزُرْ قطّ ذلك المكان! لا بدّ أنك تركت مدينتك من زمن طويل.

بيد أن التدمريّ اكتفى بتنحنحة. وتصلّبت قسمات وجهه وسرَّح بصره بعيداً وكأنه يريد أن يلمح صديقاً مُبطئاً، ولم يُلْحِف «پاتيغ». وها هو ذا يهمس بكلمة وداع وينضمّ إلى أقرب حلقة وهو لا يزال يراقب الرجل بطرف عينه.

لا يزال الرجل الذي قال إن اسمه «سيتايي» واقفاً في المكان نفسه وحيداً مداعباً عصاه. وعندما قُدِّم إليه قدح من الخمر تناوله واستنشق عطره وتظاهر بحمله إلى شفتيه، ولكنه ـ كما لاحظ «پاتيغ» ـ ما لبث، بعد أن استدار الساقي، أن أفرغ الشراب حتى الثمالة عند أصل إحدى الأشجار؛ وتصرّف التصرّف نفسه عندما قُدِّم إليه سفّود من الجراد المحمّص: بدأ بالرفض، ثم أخذ واحدة من جرّاء إلحاحهم، وما لبث أن أسقطها خلفه وأغرقها في التراب بضربة من عقب حذائه قبل أن ينحني فوق الحوض لغسل أصابعه.

وإذ كان «پاتيغ» مُستغرقاً في هذا المشهد فإنه لم يكن يصغي إلى مخاطِبيه الذين أحفظَتْهم الأمر فانفضّوا من حوله. وكان الشيءُ الوحيد الذي ألهاه عمّا هو فيه صوتَ كاهن فتيّ جاء يُعلن أنّ الاحتفال سيبدأ ويدعو المريدين إلى الإسراع نحو السلّم الكبير المُفْضي إلى المحراب. وكان لا يزال في يد بعضهم قدح أو لُماظة فأخذوا يتحدّثون وهم سائرون، بيد أن خطاهم لم تلبث أن تسارعت لأن أحداً لم يكن يريد أن تفوته اللحظات الأولى من الاحتفال.

اليومَ على الأخصّ. فقد سرت بالفعل شائعة مُفادها أن «نَبو» قد تململ

البارحة فوق قاعدته، وهذه أمارة واضحة على رغبته في التحرّك. بل لقد رؤيت قطرات من العرق تكبر فوق صدغيه وجبينه ولحيته، وقد وعده «الكاهن الأكبر» جاثياً على ركبتيه بتنظيم مسيرة هذا الأربعاء عند مغيب الشمس. وتبعاً لتقليد قديم فإن «نَبو» يقود مواكبه بنفسه؛ ويكتفي الكهنة بحمله بأطراف أذرعهم عالياً جداً فوق رؤوسهم، ويدلّهم الإله بنَخزاتٍ خفيّة على الاتّجاه الواجب اتّخاذه. ففي بعض الأحيان يجعلهم يؤدّون رقصةً ما، وفي أحيان أخرى يجعلهم يقومون بمسيرة طويلة بخط مستقيم تقودهم إلى مكان يطالب بأن يوضع فيه. وأدنى حركاته عبارة عن وحي يبذل العرّافون الحليقو الرؤوس قصارى جهدهم في تفسيره؛ إذ إن الوثن يتحدّث عن غِلال وحروب وأوبئة موجّهاً أحياناً إلى هذا الشخص أو ذاك أمارات الفرح أو الموت.

وإذ بقي «سيتابي» وحيداً في الخارج والمؤمنون يدخلون المحراب أفواجاً وترتيل المحتفلين يضخُم فقد أخذ يذرع الفِناء المُفضي من الدرج الكبير إلى الباب الشرقي.

ولم تكن الشمس سوى عُرْفٍ من القرميد المتّقد، وبعيداً خلف «دجلة» اصطفّ حَمَلَةَ المشاعل قوساً حول المذبح، وأخذ الكهنة يبخّرون تمثال «نَبو»، والمرتّلون ينشدون ترنيمة مصحوبة بإيقاع طبل رتيب:

يا «نبو» بنَ «مردوك» إننا ننتظر أقوالك!
جئنا من جميع البِقاع لنتملّ من صورتك!
وحين نسأل فأنت مَنْ يُجيب!
وحين نَنْشُد الملاذ فأنت من يحمي!
أنت الذي يعلم، أنت الذي يقول!
ومن ذا يستحقّ أن يُتّبَع أكثر مما تستحقّ؟
ومن ذا يستحقّ قرابيننا أكثر مما تستحقّ؟
يا «نَبو» بنَ «مردوك»، أيها الكوكب المتألّق،
إنّ مكانك بين الآلهة لكبير.

ويبتسم «نَبو» على وَمْضِ المشاعل المضطرب، وتبدو عيناه وكأنّهما تحضنان تقاطر المؤمنين. وها هو ذا يتصدّر واقفاً، وتمتدّ لحيته إلى منتصف صدره الملفوف بِمخصرَ ضيِّق، ويتّسع رداؤه المصنوع من الخشب المضلَّع ليؤلف القاعدة التي يقف عليها. ويتقدّم ستة كهنة فيزيحون التمثال ويقيمونه على نقّالة من الخشب يرفعونها فوق أكتافهم ثم أعلى فوق رؤوسهم. وبينما يتشكّل الموكب يرتفع الإلّه عند كلّ خطوة إلى أن يسبح في الفضاء. ويجده حاملوه خفيفاً جدّاً، وتكاد أيديهم الممدودة تلامسه، ويبدو وكأنّه يُحوِّم فوق الحشد الذي يحثّ الخطى صائحاً من النشوة. ويدور الحاملون حول أنفسهم ثم يرسمون دائرة أوسع قبل أن يتوّجهوا إلى المخرج. ويتنحّى المؤمنون.

ها هو ذا الموكب الآن في الخارج، في الفِناء الصغير. ويقوم الإلّه برقصة قصيرة حول بئر الماء الطَّهور قبل الاندفاع إلى السلّم. وفي تلك اللحظة يتعثّر أحد الكهنة ويجهد في استعادة توازنه قبل أن يدوِّم التالي بدوره ويتهالك. وإذ تُرِك التمثال فقد بدا وكأنه يثب نحو السلّم الفخم فيهبط درجاته متقافزاً تتبعه أعين الحشد الذي حجّره الذهول.

لم يستطع «پاتيغ»، بالرغم من كونه محارباً، وبالرغم من كونه «پارتيـاً»، أن يحبس دمعه. ولم يكن نذير شؤم هو الذي سبّب كرْبه ـ فالأمر بالنسبة إليه غير هذا، إنّ حماسته هي التي أُهينت. فلقد رغب في الإيمان بـ «نَبو»، وأحسّ بالحاجة إلى تأمّله أسبوعاً إثر أسبوع، ضخماً فوق عرشه ومعصوماً وبلا عُمْر وهازئاً من أفول الإمبراطوريات ومستخفّاً بالكوارث والنكبات. وفجأة هذه السقطة!.

ومع ذلك فقد برزت فكرة منعته من الاستسلام إلى الشكوى والنحيب. فإذ وضع إحدى ركبتيه على الأرض في مكان المأساة فإنه لم يجد صعوبة في أن يلمح طَرَف عصاً مزروعاً بين بلاطتين من الرخام. وانتزعه. وتفحّصه. ولم يكن هناك من شكّ، فلقد كان الطَرَفُ الأعلى قد نُشِر. وغمغم «پاتيغ» قائلاً وهو يستعيد رؤية «سيتايي» متنزّهاً في الفِناء، ثم متوقّفاً وغارزاً عصاه في التربة قبل

أن يلويها وينتزعها بحركة فظّة كما يُفعل بعشب ضارّ: «يا للتدمريّ اللعين!».
ثم اعتدل وبحث بعينيه حواليه عن الرجل ذي الملابس البيضاء. بلا جدوى.
وأرعد مرة أخرى قائلاً «يا للتدمري اللعين!»، وساورته رغبة في أن يصرخ «إلى القاتل»، «إلى قاتل الآلهة»، وفي أن يرسل الحشد الثائر لملاحقة المُجَدِّف.

ولكن ها هم الكهنة أولاء يعودون حاملين بحيطة وحذر لا نفع منهما قطع التمثال المحطّمة، قطعة من الذراع ما تزال ملتصقة بالكتف، وخصلة من اللحية معلّقة إلى شحمة أُذُن. وانقلب غضب «پاتيغ» إلى حزن مستسلِم. وإنه ليجِدُ تقريباً على «نَبو» أن يُقدِّم مثل هذا المشهد. وابتعد حاضراً للتيه حتى انفجر في ممّرات المعبد. ورجعت خطاه بشكل غريزي إلى طريق الحوض اليضاوي. ونظر بعينيه اللتين لا تزالان مغرورقتين إلى المكان الذي كان يقف فيه الرجل اللعين.

إنه هناك، «سيتابي». فوق البلاطة نفسها. في الوقفة عينها. ولا يزال بمثل البياض الذي كانه من رأسه إلى أخمص قدميه. ويده تربّت على مقبض عصاً قصُرتْ بشكل فريد. وأقبل «پاتيغ» فوقف في مواجهته وشدّه من ردائه وهزّه.

ـ الويل لك أيها «اتندمري»! لِمَ فعلت ذلك؟.

ولم يُبْدِ الرجل دهشة ولا انزعاجاً، ولا حاول تخليص نفسه. وانطلقت كلمات هادئة واثقة.

ـ إذا كان «نَبو» هو الذي قاد حقّاً خطى كهنته فهو إذن مَنْ جعلهم يتعثّرون. أم أنه كان يجهل، على الرغم من علمه بكل شيء، أني كنت قد كسرت عصاي في هذا المكان؟.

ـ لماذا أنت واجد على الإله «نَبو»؟ أيكون قد عاقبك بشكل من الأشكال؟ أيكون قد رفض إنقاذ ابنٍ مريض؟.

ـ أجِد على هذه العارضة الخشبية المنحوتة؟ إنه ليس في وسعها أن تُعاقب ولا

أن تَشفي. ماذا في وسع «نَبو» أن يفعل لك أو لي إذا لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً لنفسه؟.

ـ ها أنت ذا الآن تُجدِّف. ألا تحترم الربوبية؟.

ـ الربّ الذي أعبده لا يسقط ولا يتحطّم، وهو لا يخشى عصاي ولا سخرياتي. وهو وحده الذي يستحقّ وَرَعاً مثل ورعك.

ـ وما اسمه؟.

ـ إنه هو الذي يُطلق الأسماء على الكائنات والأشياء.

ـ ومن أجله هو حطُمت الصنم؟.

ـ لا، وإنما من أجلك أنت أيها الرجل القادم من «أيكتبان». أنت يا مَنْ تبحث عن الحقيقة، أما زلت تنتظرها من فم «نَبو»؟.

ويستسلم «پاتيغ» ويأتي فيجلس على حافّة الحوض شارد اللبّ. وقد سُقط في يده. ويتقدّم منه «سيتايي» ويضع راحة يده مبسوطة على رأسه. وإنها لحركة تملُّك تصحبها هذه الكلمات: .

ـ الحقيقة سيّدة مُتطلِّبة يا «پاتيغ» فلا تتسامح في أية خيانة، وكل إخلاصك حقّ لها، وكل لحظات حياتك هي ملكها. فهل الحقيقة هي ما تبحث عنه بالفعل؟.

ـ لا شيء غيرها!.

ـ هل ترغب فيها حتى لتتخلّى عن كل شيء من أجلها؟.

ـ كل شيء.

ـ وإذا طُلب منك أنت غداً أن تحطّم صنماً فهل تفعل؟.

وأجفل «پاتيغ» وعَدَل عن رأيه قائلاً: .

ـ ولماذا أحقد على «نَبو»؟ لقد استُقبلتُ أخاً في هذا المعبد وقاسمتهم نبيذهم

وأنصبتهم من قطع اللحم. وفتحت لي نساءٌ أذرعهنَّ في بعض الأحيان حول هذا الحوض.

ـ منذ هذا اليوم لن تشرب الخمر أبداً، ولن تأكل اللحم، ولن تقرب أية امرأة!.

ـ أية امرأة؟ لقد تركت زوجةً في قريتي (ماردين)!.

وإنه لتوسُّل، فأفكار «پاتيغ» مضطربة. غير أن «سيتايي» لا يدع له أية مهلة:

ـ عليك أن تتخلّى عنها.

ـ سوف تلِد بعد بضعة أسابيع. وإني لمتعجِّل أن أتملّى من وجه وليدي الأوّل! أيَّ أبٍ سأكون إذا أنا تخلّيت عنها؟.

ـ إذا كانت الحقيقة هي التي تنشدها حقّاً يا «پاتيغ» فلن تجدها في معانقة امرأة ولا في صُراخ وليد. لقد قلت لك إن الحقيقة مُتطلِّبة؛ أما زلت راغباً فيها، أم تراك قد عدلت؟.

* * *

عندما ارتمت «مريم» لاهثة على صدره ـ وكانت قد هرعت إلى الطريق العليا للقائه ـ فأبعدها عنه بفتور بكلتا يديه قالت في نفسها إن زوجها فعل ما فعل بدافع الحياء، فهو لا يريد أن يكون الغريب الذي يرافقه شاهداً على جَيَشان عواطفهما.

ومع ذلك فإنه يبدو أنها أُهينت بعض الشيء. غير أنها تحرص على عدم إظهار ذلك وتحمل إلى الرجلين طستيّ ماء ومنشفتينْ لإزالة غبار الطريق. وأما هي فقد احتجبت خلف ستارة. وعندما عادت إلى الظهور بعد ساعة فإنما لحمْل مأدبة حقيقية إلى الشرفة. وبينما هي تتقدّم حاملة طلائعَ المأدبة، قدحينْ من خيرة الخمر من أرض (ماردين)، تبعها خادمان وعلى أذرعهما صينية واسعة

من النحاس فوقها أطباق وقدور. وإذ كان «پاتيغ» يُصغي بكليّته إلى الرجل اللابس البياض وهو يحدّثه بصوت خافت فإنه لم يسمع وَقْع الأقدام المقتربة.

وأشارت «مريم» إلى الخادمينْ ألاّ يُحدِثا أي صوت وهما يصفّان ألوان الطعام فوق المائدة الواطئة. وإذا حدث أن اصطدم طبقان ارتسمت فوق وجهها تكشيرة؛ ولكنها تأكّدت في اللحظة التالية من منظر هذه الهدايا الصغيرة التي يحبّها «پاتيغ» بِشَرَهٍ، مُخّ بيض مسلوق متوّج بقطرة عسل، سفائن تُدَرَّج بمعجون التمر. ففي الأيام التي يذهب فيها رَجُلُها إلى «المدائن» تشغل نفسها على هذا النحو متفنّنة بتحضير أشهى الأطعمة له؛ وعليه فسوف يكون دائماً على عجلة من أمره للعودة، وإذا ما كان بصحبة بعض الأصدقاء فإنه بدلاً من الذهاب لنسيان أنفسهم في بعض الحانات يقودهم باعتزاز إلى بيته وهو واثق من أنهم سيلقَوْن من الحفاوة فوق ما يلقاه ندماء ملك من الملوك.

ألقت «مريم» نظرة أخيرة للتأكُّد من أنّ كل شيء كان في مكانه، ثم ذهبت للجلوس فوق حشيّة في طرف الحجرة الآخر. فعندما يكون زوجها وحده تتعشى معه في بعض الأحيان؛ ولا تفعل ذلك قطّ حين يكون عنده ضيوف. إلّا أنها لا تبتعد قطّ حرصاً منها على التأكُّد في كل لحظة من أنه لا ينقص الضيوفَ شيءٌ.

ومضت دقائق طويلة و«پاتيغ» و«سيتايي» منصرفان إلى ثرثرتهما فلم يمدّا بعدُ يديهما إلى المائدة. ولكنْ أيكونان قد لاحظا المأدبة المبذولة لهما أو شمّا رائحة الطعام التي تملأ أرجاء الشرفة؟ وتأسى «مريم» في سكون. فحتّى لو كانا قد توقّفا في أثناء الطريق للأكل فإن عليهما، على الأقل، وبدافع الأدب وحسب، أن يتناولا كُرَيّة لحم أو حبّة زيتون أو جرعة صغيرة من هذين القدحينْ اللذين وضعتهما أمامهما تماماً.

ولكنْ ها هو ذا الضيف يُخرج من تحت ردائه نوعاً من منديل فيبسطه فوق ركبتيْه، ويتناول منه رغيفاً أسمر فيشقفه ويحمل قطعة منه إلى فمه. ويُنسي المشهدُ «مريمَ» أن تتنفّس. كذا يُهمل هذا الشخص كلَّ ما حضّرته ليزدرد

قطعة خبز مبتذلة! ثم إن الأمر لمّا ينتهِ. فها هو ذا يَزيد من حلّ المنديل ويُخرج منه قثاءتين ذابلتين فيغمسهما في إبريق ماء قبل أن يُعطي إحداهما لمضيفه. ويحتفظ «پاتيغ»، وقد بدا عليه الارتباك، بقثّاءته في يده، وأما «التدمري» فيَخْضِم قثّاءته جهاراً.

وإذ لم تعد «مريم» تطيق صبراً فإنها تتقدّم من الشخص العجيب وتقول: .

ـ أيكون في هذه الوجبة ما يزعج ضيفنا؟.

ولا يجيب الرجل بشيء. ويسرّح بصره بعيداً. وها هو ذا «پاتيغ» يتدخّل قائلاً: .

ـ لا يقدر زائرنا أن يأكل من هذا الزاد.

وتتأمّل «مريم» المائدة في أسى.

ـ عن أي زاد تتحدّث؟ إن هذا أشياء كثيرة مختلفة. أطباق مطبوخة بالزيت وأخرى بالسمن وثالثة مشويّة أو مسلوقة، وهنا لحوم وخُضَر نيئة، بل حتى قثّاء. ألا يستطيع ضيفنا مسّ شيء من هذا كلّه؟.

ـ لا تُلحفي يا «مريم»، اذهبي ولا تضايقي زائرنا.

ـ وأنت يا «پاتيغ»، ألست جائعاً بعد الرحلة؟.

وأ عاد زوجها بحركة من يده إشارة الإبعاد التي بدرت منه لدى وصوله. وذلك قبل أن يضيف: .

ـ أرجعي هذا كله يا «مريم» فلا أنا ولا هو جائعان، ولسنا نرغب في أي طعام. أليس في مقدورك يا تُرى أن تتركينا وحدنا؟.

لم تنتظر أن تغادر الحجرة لتنفجر باكية. وهرعت إلى مخدعها وهي تمسك بطنها بيديها وكأنه سيتدحرج عند قَدَمَيْها. وسارعت إليها «أوتاكيم» خادمتها

العجوز وصديقتها الوحيدة فوجدتها جالسة على الأرض ذاهلة حارّة الزفرات مُنْتَحِبة.

ـ صحيح إذن ما يُقال عن الرجال من أنه تكفي رُقية مؤذية أو لقاء أو إكسير لكي يُقْبِل حبْهم أو يُدْبِرا.

لقد شهدت «أوتاكيم» ولادة «مريم». وعندما ماتت أمّها على فراش الولادة، كانت هي التي أرضعتها، وهي التي ألبستها وزيّنتها عشية زفافها. فمن خيرٌ منها لمؤاساتها؟.

ـ تعرفين زوجك، فما إن تشغلُه فكرة حتى ينسى معها أن يأكل، ويأخذ بالشحوب والنحول حتى لَيُظَنُّ أنه عاشق. ألا تعرفين أنه كذلك؟ اليوم عنده هذا الزائر وهو يتغذّى بكلماته، ولسوف ينساه غداً ويعود محبّاً ملحاحاً وأباً نافد الصبر! لقد كان هكذا دائماً، وهكذا أحببته.

ـ عيناه يا «أوتاكيم»، أنتِ لم تَرَيْ عينيه! إنه ليكفيني في العادة أن ألتقيهما لحظة لكي أنسى الآلام والهواجس. ولو حدّثتني عيناه لكنت أهملت بناتِ شفتيّه وحركاتِ يديْه. بيد أن عينيْه لم تقولا لي شيئاً هذا المساء.

ووبْختها «أوتاكيم« بمَرَح: .

ـ ألا تعلمين أنه ما من رجل يكون رقيقاً عطوفاً بحضور شخص غريب؟ لن يلبث الزائر أن يذهب للنوم فيُقبل سيّدنا للقائك. هيّا، دعيني أحلّ ضفائرك.

واستسلمت «مريم» لليديْن اللتين لم تنفكّا عن هدهدتها. وها قد خيّم الليل وسوف يأتي رَجُلُها. إنه لم يسبق له قطّ أن ابتعد عن جانبها. واستلقت ورأسها فوق وسادة ورجلاها العاريتان فوق أخرى أرفعَ منها. وجلست «أوتاكيم» بطرف عجيزتها فوق صندوق بجانب السرير وأمسكت بأصابع سيّدتها وأخذت تداعبها على مهل وترفعها أحياناً إلى شفتيها. وغمرت بناظريْها الوجه الورديّ الذي يؤطّره شعر ذو انعكاسات بلون الخُبّازى. ولقد ودّت أن تقول لها:

«أعرفك جيداً يا «مريم». إن لك لَيَدَيْ بنات الملوك الناعمتينْ وقلباً هشّاً من قلوب اللواتي يَخصُهُنّ أبٌ حبّاً كثيراً. لقد أحاطت بك الدُّمى من كل صوب وأنت طفلة، وغطّتك الحُليّ إذ أدركتِ وزُففت إلى الرجل الذي اخترتِه. ثم جئتِ تعيشين على هذه الأرض السخيّة وقد أخذ زوجك بيدك. وكما في اليوم الأول فإنكما تسيران في البساتين التي تملكانها، وهناك في كل موسم آلاف الثمار برسم القِطاف. وها هو ذا بطنك يحمل الطفل. يا للبُنيّة المسكينة إنك لتعيشين في سعادة غامرة منذ زمن طويل بحيث يكفي أن ترتابي في عينيْ رَجُلِك بأدنى غيابٍ، بابتعادٍ أكثر ما يكون عابراً، لكي تميد بك الأرض وتُظْلِم الدنيا من حولك».

وتعيد «أوتاكيم» بإبهاميها تزجيج الحاجبينْ اللزجينْ فوق جبين التي ستبقى في نظرها صبيّة صغيرة. وتفتح «مريم» عينيها بعد أن كانت قد بدأت تهوّم في النوم وتتوسّل إلى الخادم فتأخذ هذه بسرد الأخبار.

- إنهما يتحدّثان، لا يتوقّفان عن الحديث. أو هو الزائر بالحري الذي يتكلّم وسيّدنا يتجنّب أن يقاطعه.

لو كان رأس «مريم» أقلّ ضبابيّة لاكتشفت في صوت «أوتاكيم» ارتجافة الكذب. فلقد سمعت هذه بالفعل أصوات محادثة، غير أن الرجلينْ لم يكونا على الشرفة، وقد فرش «پاتيغ» حصيراً في غرفة الضيوف لقضاء الليل فيها.

ولقد قلقت «أوتاكيم» بدورها حتى جافاها النوم، ولكنها تتظاهر به وهي خُدعة قديمة من خُدَع المراضع كانت تفعل فعلها في «مريم» الطفلة ولا تزال ناجعة. والحقّ أن سيّدتها لم تتجاوز الرابعة عشرة على الرغم من كونها زوجة وأمّاً عمّا قريب. وسرعان ما غدا تنفُّسها أبطأ وأشدّ انتظاماً، حتى وإن بدر فُواقٌ من حين إلى حين مذكِّراً بأن الصبيّة قد نامت من غير أن يُطيّب خاطرها.

كان المصباح المعلّق على الجدار يستنفد زيته عندما اعتدلت «مريم» دفعة واحدة.

ـ ابني! إنهم يأخذون ابني!.

هـا هي ذي تصرخ وتتشبّث بالأغـطيـة. وتمسـك بهـا «أوتـاكيم» بشـدّة من كتفيْها.

ـ إنه كابـوس يا «مـريم»! لم يأخـذ أحد ابنـك، إنه هنـا في بطنـك، مَحْمِيٌّ تماماً، وما زلنا لا ندري إذا كان ابناً أو ابنة.

ولا تهدأ «مريم».

ـ لقـد ظهر لي مـلاك، وكان يـطير ويطنّ وكـأنـه يعسـوب ضخم، ثم حطّ أمـامي. وفي اللحظة التي أردت أن أهـرب فيها قـال لي ألاّ أخاف، ولقـد كان عـلى كلّ حـال من الرقّـة واللطف بحيث تركتـه يدنـو مني. وفجأة مـدّ كلمـح بالبصر يديْن ذَواتَيْ مخالب كأنها ملاقط وأخرج الطفل من أحشائي ليطير بـه إلى السماء عالياً جدّاً، وما لبثتُ أن عجزتُ عن تبيُّنهما.

ولا تجد «أوتاكيم» الكلمات اللازمة لتـطييب الخاطـر. فهي تعلم أنه مـا من حلم يتحلّى قطّ بالـبراءة، وتَعِد نفسهـا بالـذهاب إلى شيـوخ البلد لاستفسارهم عن هذا النذير.

ويدخل ضياء الصباح الأوّل من كوّة مشبّكة. و«مـريم» تنتحب. فزوجهـا لم يأتِ. وتنهض الخادم وتدخل غرفة الضيوف بخطوة مسعورة. و«سيتابي» الذي كان قد استيقظ يصلّي جاثياً على ركبتيه؛ و«پاتيغ» نائم. وتهزّه متظاهرة بالذعر:

ـ سيّدتي ليست على ما يرام! إنها بحاجة إليك!.

ويهرع «پاتيغ» والنوم لا يزال يعكّر وجهه إلى زوجته فتأخذ بالنشيج إذ تراه.

ـ لقد حلمت حلماً مُفْزِعاً وناديتك ولم تكن موجوداً.

ـ لم أسمع شيئاً.

ـ لِمَ أنت بعيد عني جداً يا «پاتيغ»؟ لماذا تهرب مني؟.

وإذا كان «پاتيغ» قد انـدفع إلى سريـر زوجته بفعـل عفويـة الاستيقاظ فـإنه استعاد البرودة التي كان عليها في العشيّـة إذ ثاب إلى رشـده. وإذ بدا جليّـاً أنه يشعر بالانزعاج وهو في غرفـة «مريم»، فهـا هو ذا يتحـاشى بغتة الجلوس عـلى فراشها، فراشه الـزوجي، وها هـو ذا عاجـز عن إبعاد نـظره عن الباب وكـأنه يخشى قدوم رقيبه. وإنه ليقسو بإزاء لوم زوجته إيّاه فيقول:

ـ عندما يستقبل المرء ضيفاً فإن عليه أن يبقى إلى جانبه، هل تجهلين هذا؟.

ـ من هو هذا الرجل؟ إنه يُخيفني.

ـ سوف يقلّ خوفك منه إذا كنت قادرة على تلقّي كلماته الحكيمة.

ـ ومـا تلك الكلمات التي تتحـدّث عنهـا؟ إن هـذا الـرجـل لم يكلّمني مـرة واحدة!.

ـ ليس في وسع امرأة فهمُ ما يقول.

ـ وما الذي يقوله ليكون بمثل هذه الأهميّة؟

ـ إنه يحدّثني عن إلهه، الإله الواحد الأحد، وقد وعدني بأن يقودني إليه. بيد أن عـليّ أن أستحقّ ذلك، أن أكفّـر عن أعوام عبادة الأوثان. فلن آكـل طعـام الكَفَـرة، ولن أشرب الخمر، ولن أتمـدّد أبـداً بجـانب امـرأة. لا أنتِ ولا أيـة واحدةٍ أخرى.

ـ لستُ طعـامـاً ولا شرابـاً! وأنـا أمّ ولـدك. أوَ مـا كنت تقــول أيضـاً إني رفيقتـك، صديقتـك؟ وهل عليـك كذلـك أن تهجر جميـع الناس لتعيش عيشَ ناسك؟

ـ سأعيش مع جماعة من المؤمنـين ليس فيهم إلاّ الرجـال. ولا تُقْبَل فيهـا أية امرأة.

ـ حتى زوجتك؟

ـ حتى أنتِ يا «مريم». إنه إله متطلّب.

- ما هو يا تُرى هذا الإلّه الذي يغار من امرأة؟

- هذا الإلّه إلّهي، وإذا كنت ستُجدِّفين فسوف أخرج من هنا في الحال ولن تَرَيْني أبداً!

- سامحني يا «پاتيغ».

وسالت دموعها، دموع الصبيّة، بصمت، وخلا ذهنها من كل انتظار، ووضعت جبينها فوق ذراع الرجل بخَفَر ولطف من غير أن تضغط، جاعلة من نفسها كياناً بخفّة خصلة من خصلات شعرها. تُرى هل ستعيش مع الزوج من جديد ذات يوم هذه اللحظات الوادعة التي تكون فيها الحرارة انتعاشاً والدبق عطراً واليقظة نسياناً؟ وبيدٍ لا تزال خرقاء، وإن كانت قد ازدادت حناناً لامس «پاتيغ» شعرها؛ واستعاد في السكون والعتمة حركات الحُنُوّ والرفق التي تصدر عنه بلا تكلّف؛ ونفرت من عينيه أيضاً بعض الدموع.

وفي هذه الأثناء تغلغل خلال الباب الموارب صوت «سيتايي» منادياً مضيفه وقد أنهى صلاته.

- «پاتيغ»! علينا أن ننطلق فالطريق أمامنا طويل.

أما كان على الزوج أن يلعن العَذول؟ لا، بل هي «مريم» التي دفعها عنه بخشونة. وها هو ذا يركض من غير أن يلتفت قطّ.

القسم الأول

بستان نخيل
«أصحاب الملابس البيضاء»

وسط هؤلاء الناس
برزتُ بحكمة وحيلة. . .
«ماي»

- ١ -

الطفل الذي كانت «مريم» تنتظره إنما هو «ماني».

ويقال إنه وُلِد في عام ٥٢٧ من تقـويم فلكيّ «بابـل»، في اليوم الثـامن من شهر «نيسان» ـ اليـوم الرابـع عشر من شهر «أبـريل» عـام ٢١٦ م بالنسبـة إلى التقـويم المسيحي، وكـان يـومَ «أَحَـد». وكـان يتـربّـع «أرطبـان» عـلى عـرش (المدائن)، ويحكم «كركلّا» بقسوة في (روما).

وكان أبوه قد رحل. لا إلى بعيد جدّاً بـطريق السفر، ولكن إلى عـالم غريب ومُغْلَق. فنزولاً من (ماردين)، على مسيرة يومين من القنـاة الكبرى التي حفـرها الجدود شرقي «دجلة»، كان يقوم بستان النخيل الذي يحكمـه «سيتايي» سيِّـداً ومُرشداً. وكان يعيش فيه زهاء ستين رجلاً من مختلف الأعمار والأصول، رجالٌ ذوو طقوس تتجاوز المألوف، رجال كان التاريخ سيهملهم لـو لم يتقاطـع دربهم ذات يـوم ودربَ «ماني». وكـانوا، عـلى غرار جمـاعات أخـرى ظهـرت في تلك الأيام على ضفاف «دجلة» أو «العاصي» أو «الفرات» أو «الأردن»، يدّعون أنهم نصارى ويهود في الوقت نفسه، ولكنهم النصارى الوحيـدون الحقيقيون واليهـود الوحيدون الحقيقيون. وكانوا يتنبّأون كذلك بأن نهاية العالم كانت وشيكـة؛ وأنه لا ريب في أن عالماً ما كان يُحْتَضَر...

وكانوا يُسَمَّوْنَ في لغة البلاد «حلّة حوارة»، وهما كلمتان آراميّتان تعنيان «الملابس البيضاء».

وقد اختار هؤلاء الرجال جوار الماء وهم يتوقّعون منه الطُّهْر والسلام، ويبتهلون إلى «يوحنّا المعمدان» و«آدم» وإلى «يسوع الناصريّ» و«توما» الذي يقولون إنه توأمه، وأكثر من أولاء جميعاً إلى نبيّ مجهول اسمه «إليسع» وعنه كتابهم المقدّس وتعاليمهم: «أيها الناس احذروا النار فإنها ليست سوى خيبة وخِداع، ترونها قريبة في حين أنها بعيدة، وبعيدة في حين أنها قريبة، النار سحر وكيمياء، إنها دم وعذاب. لا تجتمعوا حول المذابح التي ترتفع منها نيران الأضاحي، وابتعدوا عن أولئك الذين يذبحون المخلوقات وهم يظنّون أنهم يُرضون الخالق، ولا تقربوا مَنْ يقرّبون القرابين ويقتلون. تجنّبوا مظهر النار واتبعوا بالحري طريق الماء فكلّ ما يمسّه يستعيد نقاءه الأول، ومن الماء تُولَدُ كل حياة. وإذا عضّت أحدكم بهيمة مؤذية فليهرع إلى أقرب مجرى ماء فيغمس نفسه فيه وهو يُسَبِّح اسم «الربّ الأعلى» بإخلاص؛ وإذا مرض أحدكم فليغمس نفسه سبع مرّات في النهر فتتبدّد الحمّى في برودة الماء».

في اليوم التالي لوصوله إلى بستان النخيل اقتيد «پاتيغ» في موكب إلى خيمة المعمودية. وقد صحبته الجماعة بأسرها، فكان هناك قلّة قليلة من الأولاد وبعض الرؤوس الشائبة، بيد أن معظم الموجودين بَدَوْا في سنّ تراوح بين العشرين والثلاثين. وكان كل واحد منهم قد اقترب من القادم الجديد للتفرّس في وجهه وترتيل مقطع من دُعاء له.

وبإشارة من «سيتايي» خاض «پاتيغ» عندئذٍ ماء الترعة بجميع ملابسه وغاص فيه حتى غمر جبينه، ثم اعتدل وأخذ يخلع ثيابه قطعة قطعة على أنها زينة تعود إلى زمن الكفر وقد تخلّص منها مشمئزّاً بانتظار أن يحملها تيّار وادع إلى غير رجعة. وبينما كان نشيدٌ يتعالى سعى الشاب، وقد وجد نفسه نحيلاً وعارياً بين هذا القَذَر من العيون المحدِّقة، إلى سَتْر جسده بيديْه المرتعشتيْن.

لأن مياه «دجلة» كانت لا تزال تحتفظ بذكرى ثلوج جبال «طوروس» وبرودتها، على الرغم من أن شمس الربيع كانت قد بدأت تنشر الدفء والحرارة.

بيد أنها لم تكن إلا تجربة أولى. فقد كان ينبغي عليه أن يغوص مرة ثانية في الترعة ويترك أحدهم يجزّ لحيته وشعره قبل أن يغمس له رأسه مرة أخيرة تحت سطح الماء فيما تدوّي هذه الكلمات: «ها قد مات الرجل القديم، ها قد وُلد الرجل الجديد وقد عُمِّد ثلاثاً في الماء المُطَهِّر. أهلاً بك بين إخوتك. وما دمت حيّاً فتذكّر هذا: إن مَثَل جماعتنا كمَثَل شجرة الزيتون. يقطف الجاهل ثمرتها ويخضمها؛ وإذ يجد طعمها مرّاً فإنه يطرحها بعيداً. إلا أن هذه الثمرة نفسها تتكشّف، إذ يقطفها المدرَّب الذي أُنضج وتُعُهِّد، عن طعم لذيذ، وتقدِّم فوق ذلك الزيت والنور. كذلك هو ديننا. فإذا جَبُنْتَ أمام طَعْم المرارة الأول لم تبلغ السلامة أبداً».

لقد أصغى «پاتيغ» معلناً التوبة، ومرّر يده بلا أسف على شعره الحليق وبقية لحيته، وعاهد نفسه على أن يُدير ظهره لحياته الماضية ويخضع من غير رعدة من شكّ لأنظمة الجماعة. ومع ذلك فقد كان يعلم أن الوقت لم يكن في بستان النخيل سوى سُبْحةٍ من أعمال الإكراه: هناك أولاً الدعاء والترتيل وإقامة الشعائر والعبادات اليومية العابرة أو الاحتفالية، وعمليات النُّضْح والوضوء المختلفة، على أساس أن أدنى تدنُّس حقيقيّ أو مُرتاب به ذريعةٌ إلى عمليات تطهُّر متجدِّدة؛ ثم تأتي دراسة النصوص المقدّسة، الإنجيل برواية «توما» والإنجيل برواية «فيليب»، أو «سفر الرؤيا» برواية «بطرس»، وقد أعاد «سيتايي» قراءتها وعلّق عليها مئات المرّات ونسخها بلا كَلَل مَنْ يتميّزون بجودة الخطّ من «الإخوة»؛ وكان ينضاف إلى هذه الواجبات التي تدغدغ حميّة «پاتيغ» وفضوله النَّهِم واجباتٌ أخرى لم تكن قطّ لتروق له.

كان «أصحاب الملابس البيضاء» يباهون في الواقع بأنهم يملكون خير أراضي الجوار تعهُّداً وأكثرها خصباً. فقد كانت تُغدق عليهم القوت وفائضاً وافراً كانوا يذهبون لبيعه في النواحي المحيطة بهم. وكان «پاتيغ» يستفظع هذا النشاط

الأخير ويَسْتَهْوِلُه: الذهاب في الصباح الباكر بحمل من الشمّام أو القرع، ونشر هذه البضاعة في ساحة إحدى القرى، وانتظار بعض الزبائن القُرعان في الشمس، وتحمُّل ألف سُخْرية... كيف كان لابن من أبناء الطبقة النبيلة «البارتية» أن يتحمّل هذا كله؟ وفاتح «سيتايي» ذات يوم بالأمر، غير أن جواب هذا كان بلا جدوى: «أعلم أنك تحبّ الصلاة والدرس، وأنك تجد فيهما ما يَسُرُّك ويُرضيك. إن العمل في الحقول وبيع ثمارنا في القرية هما النشاطان اللذان تُلزم بهما نفسك لإرضاء «الله تعالى»، وتريد أن تُعفى منهما؟». لقد كانت المسألة محسومة. فسوف يضني «پاتيغ» سنواتٍ طويلة في حرث حقول الجماعة في حين أنه، على بُعْد مرحلتين من هنا، وعلى ضفاف هذه الترعة بالذات، يقوم فلّاحوه بحرث الأراضي التي يملكها ولكنه كان قد استنكف عن الاغتذاء بخيراتها.

فلقد كان «أصحاب الملابس البيضاء» يتقيّدون بأنظمة غذائية صارمة؛ وإذ لم يكتفوا بتحريم اللحم والمشروبات المخمّرة على أنفسهم، وبالانصراف إلى الصوم في كثير من الأوقات، فإنهم لم يكونوا يَطْعَمون قطّ ما يأتي من الخارج. فلم يكونوا يأكلون إلّا الخبز الخالي من الخميرة والخارج من فُرنهم، ومَنْ هشم الخبز الروميّ كان في نظرهم كافراً. وبالطريقة نفسها فإنهم لم يكونوا يتسهلكون غير الثمار والخُضَر التي تُنتجها أرضهم متحدّثين بصددها عن «نباتٍ مُذَكَّرٍ»، في حين أن كل ما يُزرع في الخارج «نبات مُؤَنَّث» ومحظور على أفراد الطائفة.

فيمَ الدهشة من هذه التسمية؟ فما هو أنثى محظور، وما هو محظور أنثى، وقد كان في هذا لهؤلاء الرجال معادلة كاملة. وقد كانت هذه الكلمة تتردّد بلا انقطاع في عظات «سيتايي» بمعنى «مشؤوم» أو «شيطاني» أو «كَدِر» أو «خطِر على النفس». وكان هو نفسه يتحاشى تسمية النساء المذكورات في الكتب المقدّسة، إن لم يكن للتذكير بالكوارث التي كنّ السبب في حدوثها. وكان يذكر مختاراً «حواء» و«باتشبع» [زوجة «داود» وأم «سليمان». وقد خطفها «داود» من زوجها «يوري» بعد أن قتله فأنجبت له أربعة أولاد أولهم «سليمان»]، ولا سيّما

«سالوميه»، ولكنه نادراً ما كان يذكر «سارة» أو «مريم» أو «روبيكا». وسرعان ما تعلّم «پاتيغ» أنه لا يَحسُن بالرجل في بستان النخيل أن يذكر زوجه أو أمّه؛ وحتى كلمة «ولادة» لم تكن لائقة إلا إذا تكلّم المرء عن العمادة أو عن الدخول في الجماعة؛ وإلا كان من الأفضل أن يقول «القُدوم». ومع ذلك فإن حظر الزواج لم يكن مستعملاً في جماعة مجرى الماء؛ ألم يتّخذ «يوحنا المعمدان» زوجة؟ بيد أن «سيتابي» كان قد رغب في سَنّ قاعدة أكثر تشدّداً، وقد كانت مدعاة زهو وافتخار من مريديه: عندما يختار الإنسان أضيق الطرق لبلوغ السماء، أفلا يكون أكثر الناس استحقاقاً لها من هو أكثرهم عذاباً واستنكافاً وحرماناً؟

وهذا هو السبب في أن «پاتيغ» لم يَسْعَ إلى معرفة ما إذا كانت «مريم» قد وضعت حملها في غيابه، ولأيّ طفل هو بعد اليوم أبٌ. وكيف السبيل إلى استئذان «سيتابي» بزيارة الوليد من غير أن يجعله يظنّ أنه نادم أو متردّد، أو أنه يفكّر في إعادة الارتباط بحياته السابقة. وعندئذٍ استسلم وذبُل فضوله وانتهى به الأمر إلى عدم التفكير في الموضوع، أو إلى التقليل جدّاً من التفكير فيه.

وما كانت أشدّ دهشته عندما أمره «سيتابي» نفسه بعد عدة أشهر بزيارة أهله:

ـ إذا كان مَنْ أبصر النور بنتاً فلتبقَ مع أمها؛ ولكن إذا كان صبياً فمكانه بيننا، وليس في وسعك أن تتركه إلى الأبد بين أيدٍ دنسة.

وسار «پاتيغ» في الطريق إلى (ماردين) يحرسه في واقع الأمر اثنان من «الإخوة».

ما إن وصل أمام منزله حتى جمد خارج السياج ليصرخ:

ـ «أوتاكيم»!

وكان على الخادم وقد خرجت حافية وفي يدها قِماط أن تقترب عن كَثَب من

الزائر لتتعرف إلى رأسه الحليق الذي بدا وكأنه قد اختُزِل. وفسح «پاتيغ» في المجال للتفرّس فيه.

ـ قولي لي يا «أوتاكيم»، هل وضعت سيّدتك؟

ـ إنك لا تريد أن تبقى حاملاً ثلاثة عشر شهراً!

وابتسم رفيقا «پاتيغ». واكتفى هو نفسه بطرح أسئلته:

ـ أهو صبي؟

ـ أجل، صبي سمين كثير الجوع والصياح.

وإذ ذكرت الخادمُ الوليدَ فقد أشرق وجهها بفتوّة مباغتة لم يكلّف «پاتيغ» نفسَه عناء ملاحظتها.

ـ هل مُنح اسماً؟

ـ اسمه «ماني» كما كنت قد قرّرت.

ـ قولي لسيّدتك إني سآتي لأخذ ابني ما إن يُفْطَم.

وإذ أبلغ رسالته فقد استدار ليرحل في حركات تشبه حركات إنسان مُرَوْبص، في حين صرخت «أوتاكيم»:

ـ هل تريد فقط أن تعرف ما إذا كانت صاحبتك قد بقيت على قيد الحياة؟

فعل الأمر فعله على الأثر. وأجفل وعاد على عقبيه وقد بدا جليّاً أنه ممتعض لعدم تمكّنه من إتمام مهمّته على الوجه الذي كان قد انتواه؛ وقد كان عليه أن يبذل جهداً ليقول:

ـ كيف حال «مريم»؟

وعندئذٍ حان دور «أوتاكيم» لكي تُشيح وقد اكتسى وجهها فجأة بالغمّ. ومن غير أن تزيد حرفاً توجّهت بخطى حثيثة نحو البيت فيما أخذ «پاتيغ» يتململ ويناديها ويبتهل إليها أن تتوقّف وأن تجيبه. بيد أن الخادم كانت قد غدت

صمّاء. وتردّد هو، واستشار بناظريه رفيقيه اللذين نصحاه بالرحيل وقد أقلقهما مجرى الأحداث. ولكن كيف كان في مقدوره أن يفعل؟ فلم يكن له بدّ من أن يعرف ما حدث. واجتاز السياج واندفع إلى المنزل وكأنه عاد ملكه من جديد.

وفي هذه اللحظة هرعت «مريم»، وكانت منهمكة في العمل في مسكبة الخُضَر بالحديقة خلف المطابخ، وقد وضعت يديها حول فمها بشكل بوق؛ وأشارت إليها «أوتاكيم» بحركات يائسة، وقد طار صوابها، أن تصمت وتختفي. فلقد كانت تريد أن يدخل «پاتيغ» المنزل، وأن ينفلت لحظة من حيطته وحذره، غير أن «مريم» لم تشاهدها. وقد سبق أن كانت تصيح باسم زوجها الذي ظنّت أنه عاد. وإذ اطمأنّ إلى أنها ما زالت حيّة، ولم يكن يطلب أكثر من ذلك، فقد ولّى الأدبار لملاقاة «أخويه».

وابتعد الثلاثة وهم يشمّرون أذيال أثوابهم البيضاء. وأدركت «مريم» أنه ليس في وسعها اللحاق بهم.

لم تكن الأم الشابة لتعرف، في غمرة البلبال الذي كان يستولي عليها مذّاك، بأي إلّه تستجير، حتى وإن استبعدت على الفور إلّه «سيتايي». أكان عليها أن تحمل ابنها بعيداً من هنا، إلى (ميديا) مسقط رأسها؟ ولكن لتقيم في أي منزل؟ فلقد مات أبوها واقتسم إخوتها الممتلكات. ولم يكن في مقدورها تبعاً للرشاد أن تترك ملكها وأراضيها وخَدَمها، وأن تتخلّى عن كل أمل في استعادة زوجها لتهيم في الطرق بحثاً عمّن يرغب، ذكراً كان أو أنثى، في استقبالها. فما العمل إذن؟ أن تُرضع ابنها بانتظار أن يأتي أبٌ لا يُرى لانتزاعه منها إلى الأبد؟

كانت أيام الكرْب هذه بالنسبة إلى «مريم» أيام خراب أيضاً بالنسبة إلى (ما بين النهرين). ومع ذلك فقد حُكي عن السلام في تلك السنة بين «الرومان» و«البارتيين». بل لقد طلب الإمبراطور «كركلّا» من «أرطبان» أن يزوّجه ابنته فوافق. وكان مقرّراً أن يتمّ ارتباطهما في احتفال بـ «المدائن» في معبد «ميترا» الربّ الوحيد الذي كان يجلّه العاهلان على قدم المساواة. وعليه فقد كانت

المدينة تستعدّ للاحتفال بالسلام وبالزفاف في آنٍ معاً.

وعليه فقد وصل «كركلاّ» ذات يوم مرتدياً قميصه الغاليّ الطويل يحيط به عن قرب حرسه وتتبعه كتائبه. ولكنهم لم يكادوا يجتازون جسر «سلونية» حتى دوّت صرخة في صفوفهم. وكانت تلك الإشارة المتّفق عليها لكي ينقضّ كلّ «روماني» شاهراً سيفه على أقرب «پارتي» إليه. وذُبح أبناء الطبقة النبيلة المتبرّجون الرافلون في أثوابهم الاحتفالية، وبينهم عدد كبير من عشيرة «كمساراغام» التي منها «مريم»؛ ثم أتى دور البلديين. فأخذ عدد من الرجال والنساء يندفعون ليكونوا شهوداً على تلك اللقاءات المشهودة. ونهب «الرومان» وأحرقوا القصور والمعابد، وأوّلها معبد «نَبو»، كما لو كان لإنجاز نبوءة الصنم المشؤومة.

وعندها حشد «أرطبان» وزعماء الأُسَر الكبيرة السبع عساكرهم في حديقة «أسپانابر» لدفع المجتاحين. ولكن ما الجدوى؟ فلم يكن الأمرُ امرَ اجتياح وإنما هي غارة على طريقة «كركلاّ» بكل ما في الكلمة من معنى. فما هي إلا ساعة حتى كان «الرومان» يغادرون المدينة لملاقاة معظم عديد جيشهم الذي كان يعسكر حول ممرّ (ماهوزيه) الجبليّ. وأراد «الخالدون»، وهم صفوة المقاتلين، أن يلحقوا بهم، غير أن «أرطبان» منعهم خوفاً من الوقوع في كمين، إذ كان مقتنعاً بأن عمل «كركلاّ» لم يكن يستهدف سوى إثارة الجيش «الپارتي» لكي يخرج خارج المدينة فيُمزّق إرْباً.

وإذ خاب رجاء «الرومان» لأن المواجهة لم تحدث بعد انتظار ثلاثة أيام فقد قرّروا الانتقام. وخلال أسابيع وشهور، وخلال السنة الأولى بأكملها من حياة «ماني»، ضرب إعصار «كركلاّ» (ما بين النهرين) محطِّماً نواويس الملوك القدماء، مُحْرِقاً حقول القمح، مُقتلِعاً الكروم، مُطيحاً رؤوس الفلاحين والنخيل.

وإنها لمعجزة أن تنجو (ماردين). فقد وصلت الجيوش الرومانية إلى أطراف البلدة، واحتبست «مريم» في المنزل مع ابنها و«أوتاكيم» وخَدَمها وبعض الفلاحين والعبيد. وكانوا ينتظرون ما لا بدّ منه. غير أن ما لا بدّ منه كان قد تحوّل. وذات يوم سرت شائعة لا يُدرى كيف، عبر الأزقة المُقْفرة: لقد مات

«كركلاّ» مقتولاً في (حرّان) شمالي (ما بين النهرين). بين جنوده بالذات. واستُقبل خبر الموت من (روما) حتى (المدائن) من غير فيض من الحزن.

لم يأتِ «پاتيغ» قطّ طوال هذا العام من الاضطراب لوطء أرض (ماردين)، ولا حاول قطّ تسقُّط أخبارها. ولم يَعُدْ إلى الظهور إلا بعد ذلك بكثير وقد قارب «ماني» أن يُنهي عامه الثالث. وكما في السابق فقد حضر بصحبة «أخوين» حارسينْ؛ وكما في السابق فقد ظلّ خارج السياج.

ـ «أوتاكيم»! لقد جئت آخذ ابني.

ولم تُظهر الخادم أية حفاوة. وخاطبته وهي مستندة إلى الباب، من طرف الفناء الصغير الآخر بصوت أهل الريف الزاعق من بعيد.

ـ إن «مريم» تُرضِعه ثديها. في وسعك الانتظار في الخارج. إلا إذا أردت الدخول لرؤيتها.

واحمرّ «پاتيغ» لمجرّد التفكير في وجدان نفسه أمام زوجته عارية وهي تُرضِع ابنه وأدار نحو رفيقيه نظرة كارهة وكأنّه يُبَرِّئُ نفسَه وهو يسعى في الوقت نفسه إلى الاحتفاظ برباطة جأشه.

ـ لا أريد الدخول يا «أوتاكيم» فليس في الأمر ما يستحقّ العناء. أتظنّين أنها ستُرضِعه طويلاً بعدُ؟

ـ لقد شرعت امرأتك للتوّ في إلقامه الثدي. وعندما يستنفِده فإنها ستُلْقِمه الآخر. الأمر يحتاج إلى بعض الوقت.

قال «پاتيغ» نافد الصبر:

ـ لست أتحدّث عن اليوم فقط. فالطفل يوشك أن يدخل عامه الرابع وأريد أن أعرف كم من الوقت ستغذّيه بعدُ على هذا النحو.

ـ اذهب إذن واسألها عن ذلك، ادخلْ! هي لا تستطيع النهوض في هذه الساعة، بيد أنه ليس ما يمنعها من محادثتك.

ـ لم آتِ لدخول هذا المنزل. ألا تستطيعين أنت نفسك أن تجيبيني؟ لقد حدث لك كثيراً أن أرضعتِ في أيام صباكِ!

ـ رأيت عشرات الأمّهات يُرضِعن، وليس هناك اثنتان تتشابهان. فبعضهن يملكن قليلاً جداً من اللبن بحيث يترك أبناؤهن صدرهن من غير شَبع؛ وأخريات يغذّين طوال سنوات أربعة أطفال دفعة واحدة. إن «مريم» سخيّة، وثدياها ممتلئان وناصعا البياض، ولن ينضب لبنها عمّا قريب.

ـ ومع ذلك فإنه ينبغي فِطام الطفل ذات يوم!

ـ الحقّ معك يا سيّدي فلن يكون من الخير له أن يرضع طويلاً؛ وينبغي فِطامه قبل «النوروز».

ـ «النوروز» القادم؟ لقد انقضى العيد لتوّه، وعليّ أن انتظر عاماً آخر!

ـ من الممكن أن يُفطم «ماني» قبل ذلك، ولكن ما الفائدة من القيام بعشر رحلات للاشيء. وإذا أ تيت في «النوروز» فسيكون الطفل لابساً ثيابه للذهاب وتكون أشياؤه جاهزة، أعِدك بذلك.

ما إن ابتعد «پاتيغ» وضرب في الطريق العالي في ظلّ أشجار اللوز ذات الأغصان المرشوشة بالتويجات الشبيهة بندف الثلج حتى أخذ «الأخَوان» في تقريعه:

ـ لا بدّ أن تكون ساذجاً جداً لكي تترك لهذه الساحرة العجوز الحافية أن تهزأ بك. لقد كابدنا نهارَيْن طويلَيْن في حمأة الشمس وأمامنا نهاران آخران للعودة، وأنت تترك نفسك تُطْرَد ببعض الكلمات المعسولة. ماذا سيقول «مار سيتايي»، أبونا؟ فحتى لو انبغى أن ننتظر فقد كان عليك أن تُلحّ على رؤية الطفل، ولو للتأكّد فقط ممّا إذا كان لا يزال هنا!

وإذ كان «پاتيغ» شديد البلوى بحيث عجز عن اتّخاذ أي قرار فقد وافق على العودة أدراجه. وفي الفِناء الصغير، في المكان الذي كانت تستند فيه «أوتاكيم» بظهرها، كانت «مريم» جالسة فوق بلاطة وفي يدها إضمامة من النعناع الأخضر تفصل منها العروق الميتة.

وسخر «الأَخَوان» من جديد. وشعر «پاتيغ» بالمهانة.

ـ لقد ضحكت عليّ «أوتاكيم» إذن.

واحمرّ وجه «مريم».

ـ كنت أُرْضِع ابنك؛ لقد انتهى للتوّ.

ـ عندما وصلت كان قد بدأ لتوّه، وكان سيظل وقتاً طويلاً؛ وما إن أدرت ظهري حتى كان قد انتهى، وكنت قد قطفت هذا النعناع وانتقيت نصفه! هل في مقدوري رؤية ولدي على الأقلّ؟

وإذ سارعت «مريم» إلى نداء «ماني» فقد برز من خَصاص الباب. حيث جمد متفحِّصاً وتاركاً نفسَه يُراقَب. وكان بالإمكان بالطبع أن تُلمح في وجهه القَسَمات الدقيقة التي بدأت ترتسم، . وهي خاصة جدّاً بوجوه الأطفال. ومع ذلك فإن أوّل ما كان يُرى هما الحاجبان العريضان الأسودان المقفلان المقوّسان لكي يُشكِّلا فوق الأنف حاجباً ثالثاً؛ ثم النظرة المستقيمة المباشرة، وإن متفجرة بالانفعالات المكبوتة وبالأسئلة التي لا تنتهي.

وعندما تقدّم بعد بضع لحظات باتّجاه المجهولين فإنما وهو يجرّ ساقه، ساقه اليمنى. لا كما يُجَرّ غصن ميت، بل بمهابة كما يجرّ المرء خلفه ذيل ثوب احتفاليّ.

ولاحظ «پاتيغ» قائلاً بنبرة فيها شيء من الاتّهام.

ـ إنه يعرج.

ـ لقد وُلد بهذه الساق الملتوية، وسوف يظلع طول حياته. أما زلت تريده؟

وإذ خمّن الطفل كلّ الفظاظة التي أودعتها أمّه كلماتها فقد عاد يشدّ نفسه إليها. وذلك قبل أن يسدّد إصبعاً نحو «پاتيغ» وهو يثغثغ.

- كلا كلا كلا.

- ماذا يقول؟

- «كَرَكَلّا»! إنه الاسم الذي يُفزّع به الأطفال في (ماردين) عندما لا يكون هناك أبٌ لجعلهم يُطيعون. فإذا أَبَوْا أن يناموا أو يأكلوا، أو ابتعدوا كثيراً عن البيت، أو وسّخوا أغطية الفراش، فسوف يأتي «كَرَكَلّا» لذبحهم. كما ذبح أبناء عمومتي، كما كان سيذبحنا جميعاً هنا كباراً وصغاراً منذ أقلّ من سنتين.

- كنتُ أجهل أن «الرومان» قد وصلوا إلى (ماردين).

- في أي عالم تعيش يا «پاتيغ»؟

- في عالم ليس فيه نار ولا حرب.

وأضاف من جديد غير متأثّر:

- في هذا العالم سوف يكبر «ماني».

- وأنا يا «پاتيغ»؟ في أي عالم سأعيش من غير زوجي ولا ابني؟

- توكّلي على ما يدبّر الله. ولا تحتجزي هذا الطفل بل أعطيني إيّاه فأنا أبوه وهو يخصّني.

واقترب لأخذ الطفل فجعلت «مريم» ترتعد. وهرعت «أوتاكيم».

- لقد وعدتني أن تعود لأخذه في «النوروز» القادم.

- أنتِ التي كذبت عليّ وخدعتني، فكيف تجرؤين على الحديث عن الوعد؟

وانتحبت «مريم» قائلة:

- أضرع إليك يا «پاتيغ». لن تجد له مرضعة حيث تعيش فاتركه لي بضعة

الأشهر هذه، ألن تحتفظ به مدى الحياة؟

وبألف تحذير وتوبيخ فرض رفيقا «پاتيغ» عليه اصطحاب ابنه من غير تأخير، وأما هو فقد ضعف من جديد بإزاء دموع امرأة سبق أن عذّبها كثيراً، وإزاء نظرة مذعورة من طفل كان يحسبه وحشاً سفّاحاً.

ما إن رجع المذنب إلى بستان النخيل حتى استدعاه «سيتابي» وأمره أن يُصغي جاثياً على ركبتيه إلى ما سيقوله له:

ـ إذا كنتُ قد كلّفتك بهذه المهمّة فلأني اعتقدت بأنك خير من يقوم بإنجازها. ولكن لا تنخدع يا «پاتيغ»، واعلم أن هذا الابن ليس ابنك وإنما هو ينتمي إلى جماعتنا، ينتمي إلى الله، وإلاّ فلماذا جاء به إلى هذه الدنيا في الوقت الذي تركت فيه امرأتك وبيتك؟ ألا ترى في هذا أية آية، أية وصيّة من وصايا الله تعالى؟ لقد قرّ قراري، فلن تذهب من الآنِ فصاعداً إلى (ماردين)، وأنا مَنْ سيجلب الطفل. غداً سأكون في الطريق يواكبني اثنا عشر أخاً، ولن أضيع وقتي في مفاوضة النساء.

- ٢ -

لقد تخبّط «ماني» ولا ريب يوم جاء كل «أصحاب الملابس البيضاء» هؤلاء لاختطافه. بل لا ريب في أنه جأر بالصراخ عندما غمسوه ثلاث مرات في ماء الترعة ونزعوا عنه ثيابه. ولكنْ على الرغم من صغر سنه فقد كان عليه أن يلتزم بقانونهم ويرتدي الجبّة البيضاء ويأكل من طعامهم ويتمتم حركاتهم ويحاكي صلواتهم. وسرعان ما جهل الطفل مَنْ يكون وبأية معجزة قد حطّ رحاله وسط هؤلاء الغرباء.

وأمّه، إنه لم يكن ينبغي له أن يراها ثانية. بل إنه لن يسمع بها طوال سنوات. وأبوه، هل بالإمكان القول إنه كان يعيش معه؟ لقد كانا يتعايشان جنباً إلى جنب كما يتعايش جميع «الإخوة» في بستان النخيل. بيد أن «ماني» لم يكن ابنَ أحد، لم يكن إلا ابنَ الجماعة. وكان عليه أن يقول لـ «سيتابي» وحده «أبتِ»، وأن يُبدي جانب الطاعة له وحده، مثلما يقول له «پاتيغ» «أبتِ» ويُبدي له الطاعة.

الطاعة، الإذعان، الجثوّ، إن الطفل لم يكن يستطيع أن يفعل غير ذلك. ومع هذا فإنه منذ اللحظة الأولى على خِتانه ظلّ في نفسه شيءٌ ما يتمرّد. مثل ذرّة من روح ثائرة.

وأي جُحر سوى الوحدة يمكن أن يكون في مشهد المتنسِّكين المنبسِط؟ وسرعان ما تعلّم «ماني» أن يفوز بها ويتعهّدها ويحْمِيَها من الجميع. وأقام لنفسه بعيداً عن الجماعة فضاءَ عُزلة، مملكةَ طفل لا تطأها قدمُ رَجُل قطّ. وكان يهرع إليه ما إن يتسنّى له ذلك. وكان ذلك في مكان تتلوّى فيه ترعة «دجلة» وسط دغل من النخيل المنتصب بعضه لِصق بعض مرصوصاً بشكل نصف قمر، المنحني بعضه الآخر فوق الماء وكأنه يشرب. وكان ينبغي التجرّؤ على تخطّيه ليجد المرء نفسَه في شبه جزيرة من العَبَق والظلّ، ولكنه ظِلٌّ لا يطرد النور بل يمتصّه على العكس من ذلك ويُرشّحه ويُقطّره ليُغدِقه على أولئك الذين يُحْسِنون جناه. وهناك كان «ماني» يجلس أو يستلقي، يبكي أو يتهلّل أو يحلم. وكثيراً ما كان يناجي نفسه بصوت جهير غير هيّاب من افتضاح سرّه.

غير أن هذه اللحظات كانت نادرة، فلم يكن الزمان طليقاً قطّ في بستان النخيل. فقد كان العيش يتمّ فيه على الدوام بين شعيرتَيْن، بين عملَيْن من أعمال السُّخْرة. وكان على «ماني» أن ينتزع نفسه باستمرار من ملاذه للاختلاط على مضض بجمهور «أصحاب الملابس البيضاء» الذي لا يُعرف له شكل.

ولم يعرف أيّ واحد من هؤلاء الناس الذين يسمّون أنفسهم «إخوة» أن يكون صديقاً. وقد ظلّوا طَوال ثمانية أعوام في عَيْنَيِ الطفل المذعورتَيْن سجّانين غامضين يلبسون ملابس غير بهيجة ويتفوّهون بكلمات فظّة. وإذا كان «ماني» يحاكي طقوسهم في ورع حتى ليبدو مماثلاً لهم فذلك لأنه قد ذاق العقوبات التي كان «سيتايي» يُنْزِلها بالكبار والصغار على السواء عند أقلّ تقاعس: صوم إجباري، جَلْد، نقل ماء ببراميل كبيرة طافحة، صلوات تكفير لا تنتهي.

ولم تكن العقوبة في بعض الأحيان ممّا هو مألوف كثيراً، وكانت عندئذٍ مناسبة للابتسام أو للضحك ذات شأن عظيم لدى «الإخوة»، مثلما حُكم على «سمعان» العجوز، وقد أذنب بكيل شتائم داعرة، بتسلّق نخلة والتشبّث بها بانتظار ترخيص «سيتايي» له بالنزول.

إلّا أن أكثر الضحايا مواظبة على هذا العِقاب الفكِه ظلّ «مالكوس»، وهو

«صُورِيّ» وأعظم «الإخوة» كرشاً وأصغرهم سنّاً إذا استثنينا «ماني». بل لقد كان أحدث من هذا الأخير عهداً بالجماعة. وكان أبوه، وهو تاجر تبدو عليه مظاهر النعمة، قد وصل على غير انتظار إلى بستان النخيل قبل ثلاث سنوات من غير أن تُعْلَم في الواقع الدوافع الحقيقية إلى مثل هذا الإيمان الطارئ. وعندها سرى الهمس بأن الدهر قد قلب له ظهر المِجَنّ، وبأنه فَقَد أُسرته ومُمتلكاته، وإذ لاحقه دائنوه فقد جاء يلوذ بهذا المكان لستر مصائبه وإسدال ستار النسيان على نفسه. ولقد مات غريقاً بعد بضعة أشهر، ولا بدّ أنه كان قد فَقَدَ طَعْم الحياة. وعلى هذا النحو وجد «مالكوس» نفسَه، مثل «ماني»، وليس ابنَ أحد.

وهناك فارق مع ذلك، وهو أن «ماني» قد غادر (ماردين) صغيراً جداً، وأن أعواماً طويلة قد انقضت منذ الاكتمال الطفوليّ الذي عرفه بين «مريم» و«أوتاكيم» وتمثّل في الأيام الهنيئة القابعة في ركن كَدِر من ذاكرته. وقد ظلّت أجمل ذكرياته الخاصّة بالروائح والطعوم معجونة بالمرارة الكأداء، مرارة الطفل الذي أسلمه أو تركه أو تخلّى عنه أو ـ على الأقلّ ـ أساء حمايته أعزّ مخلوق على قلبه. ومذّاك كانت وحدها ماثلة أمامه هذه المحنة اليومية الغامرة، ذلك الجدار الصفيق المنتصب من بستان النخيل إلى السماء ولا يجسر شيء على أن يقوم خلفه. في حين أن «مالكوس» كان قد عاش في العالم الرحب طفولة حقيقية ما يزال يحنّ إليها ويحتفظ بعاداتها.

وكان يكفي للاقتناع بذلك سماعُ ضحكته. ولقد كان الضحك يبدأ عند «أصحاب الملابس البيضاء» بالتَّنَحْنُح ويبلغ مداه في هِناف أشبه بالفُواق وينتهي بشكل إماتة للنفس. وكانت ضحكة «مالكوس» تُقْبِل من خارج هذا المكان. فقد كان ينشرح ويُرعِد ويتبختر؛ وإذا لم يتجاوب معه أحد مدّ في شأو ضحكه بنفثاته هو؛ وإذا ظُنّ أنه قُمع انفجر ثانية، ولا سيّما في لحظات الاحتشاد الجماعي الكثيف. وكانت تلك الانتهاكات تعود على الفتى «الصُّورِيّ» بعقوبات تكاد تكون أخفّ من التي تنزل به لدى عودته بعد هربه في كل مرّة؛ ولم تكن مع ذلك غير غيبات لبضع ساعات، بيد أن «سيتايي» كان يتّهم المراهِق بأنه

يستغلّها لملء بطنه بكل أنواع الأطعمة المحظورة. ولا ريب في أنه لم يكن مخطئاً. فرؤية «مالكوس» متكرِّشاً ممتلىء الوجه بين جميع تلك الوجوه الغائرة باستمرار كانت تكشف بوضوح أنه لم يكن يخضع تمام الخضوع لنظام الطعام السائد.

كما في ذلك اليوم، في وقت الوجبة الثانية، وجبة الغَسَق التي يجتمع فيها كالعادة جميع «الإخوة» في قاعة الطعام وقد انقسموا حول ثلاث موائد طويلة متوازية يترأس أوسطها «سيتايي» يحيط به أقدم الأعضاء، و«مالكوس» في طرفها الأوسط قريباً جدّاً من الباب. ولقد شرع القوم في الدعاء من أجل الاستهلال. وإن التفكير في أن الأمر مجرّد دندنة متسرّعة معناه الجهل بتقاليد بستان النخيل. فبعد أن ذكّر «سيتايي» بواقعة النِّعَم المألوفة اندفع في عِظة طويلة. وكان جميع «الإخوة» واقفين حاني الرؤوس وهم ينتظرون أن ينتهي لكي يهجموا على الطعام. بيد أن سيّدهم لم يكن قطّ على عجلة من أمره. وقد شرح قائلاً إن الجوع عدوّ مبين، وأن على الإنسان الفاضل أن يكبح جماحه بدلاً من إشباعه، كما أن عليه كبح جماح جميع رغبات الجسد. وكان ذلك موضوعَه الأثير في ساعة الشهوة إلى الطعام؛ وكان يقول: إن الجسد بَغْل وراكبه هو العقل، وعلى المرء أن يقف أحياناً لإطعام البهيمة، بيد أنه ليس لها هي أن تختار الطريق ولا المراحل، وأن العار والويل للراكب الذي ينصاع لنزوات مطيّته.

كانت موائد «أصحاب الملابس البيضاء» شديدة التقشّف: زيتون وقثّاء، ولوز ولِفْت وبعض الفاكهة وخبز وماء. ومع ذلك فقد كان ستون زوجاً من العيون ترنو إلى ذلك الغذاء المتواضع. وكان قد أعقب آخر وجبة تُنووِلت بعد صلاة الفجر مباشرة يومٌ شاقّ في الحقول. ومع ذلك فقد كان يجب التحلّي بالصبر والتأمُّل وإماتة النفس لأنه كان ينضاف إلى الجوع العار من الجوع والندم سلفاً على كل لقمة تُورِث اللذّة.

وإذ لم يتمالك «مالكوس» نفسَه فقد مدّ يداً مرتعشة إلى أقرب سلّة، ولكن

ليس من غير أن يتحقّق من أن جميع الرؤوس حوله كانت محنيّة وجميع الجفون مُسْبَلة. وتناول بَلْحة صفراء طازجة ورطبة وسارع إلى دسّها في فمه قبل أن يستعيد أكثرَ السِحَنِ تقوى.

وانتظر بضع لحظات قبل أن يشرع في مضغها على مهل وبلا صوت متراجعاً برقبته حتى إن فكّه كان يلامس صدره عند كلّ مضغة. وكانت أسنانه وهي تغوص على مَهَل في الثمرة تُطْلِق عصيراً سكريّاً أخذ يجمعه فوق لسانه ويُجيله في فمه ثم يتركه ينحدر في بلعومه بتلذّذ أثيم.

وكان لا يزال يتلذّذ به عندما أنهى «الأب» خطابه آخر الأمر واتّخذ «الإخوة»، باستعجال لم يُحْسِنوا السيطرة عليه، أماكنهم فوق المقاعد العالية وكأنهم رجل احد. وإذ انتشى «مالكوس» بالصخب المحيط به فقد جعل يمضغ بلا حذر، بيد أنه فيما كان يجلس بعد لحظة على جلوس الآخرين فقد أخذت تحدجه عينان مفعمتان بالاتّهام هما عينا الجالس قُبالته، «غارا» ابن أخي «سيتابي». ووجّه إليه «مالكوس» نظرة ملائكية، إلا أن الرجل الذي لم يكن يُطيع غير صوت الواجب انحنى على أذن جاره وهمس له باتّهام؛ وبعد أن حدج الآخرُ الفتى بنظرة الاستنكار عينها غمغم الخبر إلى جاره متابعاً بذلك سلسلة حقيقية من الوشاية حملت نصّ الجريمة من طرف المائدة إلى طرفها الآخر.

ووصل الدور إلى «پاتيغ». واستمع إلى الوشاية بوقار واستنكر هفوة المراهِقِ التي لا تُغْتَفَر بتقطيبة من حاجبيه، ولكنه بدا متردّداً في اللحظة التي انحنى فيها على أذن جاره. فكيف يمكن أن ينصاع، هو الذي تربّى على تقاليد طبقة الأشراف «الپارتيين»، لأخسّ أنواع الوشاية؟ ومع ذلك، ولأن «سيتابي» كان بالضبط قد أخذ عليه كثيراً أصله وعجرفته واحتقاره بعض الأعمال، فقد كان يفرض الآن على نفسه تحاشي كلّ تصرّف يميّزه من عامّة المريدين. فتلك هي روح «الجماعة» التي كانت تنظر بعين الارتياب إلى كل تعاطف وكل تسامح وكل رحمة، ويبدو لها كل تصرّف كريم مُدَنَّساً بالغرور.

يا لَـ «پاتيغ» الذي لا سبيل إلى إصلاحه، يا لَـ «پاتيغ» المستعدّ على الدوام

لاتّباع أسوأ السُّبُل من أجل أفضل الأسباب في العالم! لقد كان يرتجف أمام «سيتابي» أكثر من ارتجاف أي «أخ» آخر، فيجثو على ركبتيه ويقرع صدره ويُذلّ نفسه، في حين كان يكفيه أن يغادر بستان النخيل هذا آخذاً بيد ابنه لبلوغ حياة رغدة. غير أنه لم يكن يفكّر في ذلك. بل إنه لم يجرؤ خلال ثمانية أعوام على أن يكشف لِـ «ماني» رابطة الدم التي تجمعهما مُكتفياً بأن يرسل إليه من بعيد ابتسامات مُلَغَّزة كانت تُخْنِق الصبيّ وتثير حذره. ولم يكن «پاتيغ» مع ذلك جباناً، أو أنه إذا كان جباناً فقد كان جُبنه بالحري من نوع فريد جداً: لقد كان مستعِدّاً للتضحية بجسده، وأما بروحه فلا. وكان ذلك الخَرَع الورع في أصل جميع دناءاته.

وعندما أُبلغ «سيتابي» قضية التمرة التي خضمها «مالكوس» وقف متجهِّماً، متكلِّفاً الجِدَّ، مستفظِعاً وقال:

ـ مَنْ منّا يرغب في الأكل بمحاذاة التتانة؟ أَلَمْ نأتِ إلى هذا المكان المبارك للتخلّص من أدران الدنيا؟ بَيْد أنّ جميع جهودنا تضيع سُدى إذا استسلم واحد منّا فقط إلى الغواية الخبيثة، وإذا تمكّنت أدران الدنيا من السيطرة على جسده وروحه لأننا نُصاب جميعاً بالدَّنَس.

وعندها انهال الحكم:

ـ «مالكوس»، سوف تمرّ بين «الإخوة» مزوَّداً بطاسة يلقي فيها كل واحد نواة تمرة يكون قد أكلها. وسيكون ذلك غِذاءَك الوحيد، ثم تأتي فتريني الطاسة فارغة. ولأن التمرة هي التي قادتك إلى الإثم فسوف تتمكّن من تقدير حقيقتها العظميّة فيما وراء طعمها اللذيذ.

وتبعت الحكمَ جَلَبةٌ مرِحة، على الرغم من توقُّفها بسرعة. فقد كان يرافق الوَجَبَاتِ طقوسٌ صارمة لدى هذه الجماعة المشغولة بهذا القدر بالمحرَّمات الخاصّة بالفم. وكان القوم هنا بعيدين عن مآدب «نَبو» و«ديونيزوس» و«ميترا»، هذه المقاصف المجُونيّة التي كان الجسد يتحوّل فيها إلى هيكل للاحتفال بصَخَب بجميع مَذاقات الأرض. فقد كانت غرفة الطعام مكاناً عبوساً ينبغي

أن يعوِّض فيه حرمان النفس كلَّ لذّة لأنها جانية. وبينما كان أحد «الإخوة» يتلو نصّـاً من النصوص المقـدَّسة كـان المريـدون الجاثمـون على مقـاعـد مـرتفعـة، والمضـطرّون من جرّاء ذلـك، إلى الانحناء بشكـل عنق البجعـة فـوق المـوائـد، يتناولون الأطعمة بالإبهام والسبّابة ويغمسونها في قِدْر ماء وهم يتمتمون عند كل لقمة «ما رامْ بارِخْ!»، «بارِكْ أيها الربّ!».

وعلى هذا النحو مرّ «مـالكـوس» بـطاسته في جـوقة من التمتـمات، ومَنَّ عليه كلّ من «الإخوة» بنواة من غير أن ينبس بكلمة، ولكن بسِحْنة حيوان مجترّ مُهان ومُحْتَقِر. وإذ أدرك أحد هؤلاء الصالحين أن النواة التي ألقاها كانت هـزيلة جدّاً فقد سارع إلى إضافة أخرى فرِحاً بأنه لم يُخِلّ بدوره في تطبيق العقاب.

«ماني» وحده تميّـز من الآخرين. ففي لحـظة إيداعـه نصيبه أدخـل أصابعـه بجرأة في الطاسة وانتشل منها حفنة كبيرة من النُّوى فدسّها خِفيـةً في جيبه زامّـاً شفتيه أمارةً عـلى التعاطف والتعـزية. وإذ حـرص «مالكـوس» من ناحيتـه كل الحرص على عدم إبداء عـرفانـه بالجميـل فقد غـادر إلى مكانـه وشرع في تناول وجبته غير اللائقة. غير أن مجرّد معرفته بأن له صديقاً بين هذه الجماعة كـان من شأنه أن نَقَع غُلّته. وخُيِّل إليه أن النّـوى قد احتفـظت بمذاق سُكّـري متخلِّف وبقَضْمَةٍ ليِّنة. وإذ لاحظ بعض «الإخـوة» سِحْنته الهـادئة النـامّة عن قليـل من الندم، بل المفعمة أحياناً بحبُور وقِح، فقد حسبوا أن الشيطان يسكنه.

كان ما يعتمـل في نفس «مالكـوس» منذ ذلـك اليوم تجاه المُحسِن الفتيّ إليه أكثر من عرفان؛ لقد كان تفانياً حقيقياً. فقد عاهد نفسه عـلى أن يتبعه إلى كـل مكان، وأن يحميه من الجميع، وأن يتلقّى عنه آلاف الجلْدات وما لا يُحصى من أيام الصوم. وكان مستعدّاً، لقاء حفنة مخطوفة من نـوى التمر، ومن أجـل زمّة متـواطئة بشكـل غامض من الشفتين، لمقاسمـة «ماني» أغـلى ما كـان يملكه في الدنيا.

وغداة الحادث بالذات، في اللحـظة التي كانت الجـماعة تجتمـع فيها لصـلاة

الفجـر، هرع «مـالكوس» بحـماسة، وكـان يعلم أن عليه مـرة أخرى أن يـردّد بتلجلج الشعيرة التي لا تنتهي، ولكن ما همّ، فاليوم سيكون له صديق يكرّر، في اللحظة ذاتها، وفي القاعة الباردة الجرداء عينها، الحركـاتِ نفسَها. وإذ كـانا يسيران معاً لدى خروجهما فقد سأله «الصُّوريّ» برصانةٍ ما إن ابتعدا عن سـائر «الإخوة»:

ـ إذا أنا أطلعتك على سرّي فهل تعِدني بألاّ تخونني أبداً؟.

وانـزعج «مـاني» للأمـر. وإذا كان قد فهم بيُسر أن «مـالكـوس» يبحث عن صـديق فإنـه هو لم يكن كـذلك. فلقـد نجح بعـد هذا العـدد من السنين التي قضاها وسط «أصحاب الملابس البيضاء» في إقامة عُزلـة، تلك العُزلـة العزيـزة التي لا تُعوَّض، والتي كان يتدرّع بها وكأنّها درع من الزرد. ومشاطرتها معناهـا فُقدانها. وكان يحبّ، في كل مرّة يسنح له فيها وقت للدَّعة، أن يعود إلى ملاذه الخفيّ وحيداً من غير رفيقٍ سـوى شخصِه. فلماذا يـزحم أذنيه بـطنينٍ بشـريّ؟ وإذ لم يكن راغباً في الاصطدام بالمراهقِ الذي كثيراً مـا اعتبره «سيتـابي» وعدد من «الإخوة» كبشَ محرقة فقد وجّه إليه طيف ابتسامة رفيقة. إلاّ أنه تجـاهل أمـر إجابته وحثّ الخطى. وفيما كان «الصُّوريّ» يتشبّث به ويلاحقـه من أمامـه ومن خلفـه متقـافـزاً من جـانـب إلى جـانب، وهـو يقـول من غـير أن تُنْهِكــه جميـع التحفّظات أو يُصغيَ إليها: .

ـ عِدني ألاّ تشيء بي أبداً!

فقـد رفع «مـاني» كتفيه هـذه المرّة وأطلق بمـرحٍ، وبلهجة مَنْ لا يتـذكّر قطّ موضوع الحديث: .

ـ أشي بك؟ أوَ سبق أن وشيت يوماً بأحد؟.

وإذ اطمأنّ «مالكوس» في ظاهر الأمر فقد التقط أنفاسـه قبل أن يقـول دفعة واحدة وكأن الأمر يُعبَّر عنه بكلمة واحدة: .

ـ اني ـ أعرف ـ امرأة.

ثم انتظر فاغر الفم وابل الأسئلة الذي لن يتخلّف صديقه الفتي عن صبّه عليه.

بيد أن شيئاً لم يحدث. فما اعترت «ماني» دهشة ولا صَدَر عنه أدنى تعجّب. فهل يشعر «مالكوس» بالمهانة أو تخور عزيمته؟ لقد جرى الأمر عكس ذلك تماماً. وبدا له عدم تأثّر رفيقه وكأنه تعبير عن انذهال ما بعده انذهال. وخاله مسحوراً متلاشياً من الدهشة والإعجاب، وشعر بأنه قاب قوسينْ من الانتصار فاستفاض قائلاً: .

ـ لن أبقى طويلاً في بستان النخيل المشؤوم هذا. وسوف أرحل ما إن أتمّ أعوامي الخمسة عشر. ولسوف تأتي هي معي. ونعيش في (المدائن). وسأجد عملاً بصفة أجير لدى تاجر «صُوريّ» أو «تدمريّ». وأرافق القوافل إلى (مصر) و(الهند) و(أرمينية). وإني لأراها من هنا، جميلةً كتمثال إغريقي، ملتفّة بثوب طويل من الحرير المطرّز بالذهب والأحجار الكريمة، وهي تهبط على مهلٍ درجَ قصري في (المدائن)، وحولها عشر إماء بيضاوات وسوداوات.

وفارق «ماني» صمته وشارك مخاطبَة لعبتّه لحظةً، لا لشيء إلا ليزرع فيها الشكّ: .

ـ وكيف بنيتَ لنفسك قصراً، أنتَ يا مَنْ ليس إلاّ أجيراً عند تاجر من (المدائن)؟ .

لقد كان ينبغي لـ ««مالكوس» أكثر من هذا لكي يُصاب بالاضطراب.

ـ لن أظلّ أجيراً مدّة طويلة، فسرعان ما ستكون لي تجارتي الخاصة وعملاء في (أنطاكية) و(تدمر) و(البتراء) و(دِبْ) و(بريتيس). وسأتمكّن عندها من بناء قصرٍ لي في (المدائن) وآخر في (صور). وثالث إذا شئت في جبال (ميديا) حيث أُسكن السيدة في كل مرة تريد فيها الهرب من القيظ والأوبئة.

لم يكن يمضي يـوم من غير أن يتحـدّث «مالكـوس» عن «السيـدة» بـأعـذب الألفاظ، وإن كانت أكثرَها تكلُّفاً أيضاً في معـظم الأحيان. وإذا لم يكن «مـاني» يشجّعـه قطّ على ذلـك، وإذا كان يُغفـل دائماً سؤالـه عنهـا، عن اسمهـا، عن عمرها، فإنه لم يَعُـدْ يبدي قطّ الـلامبالاة عينهـا، بل كثيـراً ما كـان يُصغي إليه بانتباه، ويشاطره بعض انفعـالاته؛ وعنـدما كـان «الصُّوريّ» يُبحـر في أحلامـه الثرثارة فإنه كان في بعض الأحيان يُبحر معه في صمت. بل لقد كان يحدث لـه أن يفكّر هو أيضـاً في السيدة متفـاجئاً في وحـدته بـرغبته في تخمـين ما يمكن أن تُشْبِه، وتحت أية أشجار استطاع «مالكوس» أن يتعرّف إليها.

كان من عادتهـا كليهما أن يـذهبا، شـأن جميع «الإخـوة»، إلى سوق القـرية لعرض مُنْتَجات الجماعة. وكان ذلك هو المكان الوحيد المسموح لهما فيـه بالتقـاء النساء، وكنّ في معظم الأحيان فلاحاتٍ أشبه بثمرة الكرنيب، مُثْقَلاتٍ بالقُفف ويخبُـطْن في الأرض بخَطْوٍ مـوجَع. وكنّ من جهـة أخرى يَحْـدِجْنَ بنظرة ازدراء «أصحـابَ المـلابس البيضـاء»، هؤلاء الـرجـالَ الـذين ليســوا رجـالاً، هؤلاء الأشخاصَ الضامرين ذوي الوجنـات الشاحبـة الذين يجمعـون عامـاً بعد عـام ذَهَبَ غلالِهم الوفيرة من غير أن يُشرِكوا فيه البتّة امرأة ولا ولـداً، هذا الجَحْفَـلَ المتهرِّبَ غيرَ المرغوب فيه، وإليه تُنسب أشنعُ الرذائل وأكثرُ الممارسات استعصـاءً على أن يُباح بها.

والحقّ أن الشفقة كانت تستولي على بعضهنّ لـرؤية «مـاني» وحيداً مقـرفصاً وسط بضـاعته المعـروضة متفكّـراً بائسـاً فيلمسنَ جبينـه قـائـلات «يـا ولـدي» ويشترينَ منه في نهاية الأمر آخـر ما بقي من زعـروره بآخـر فلس معهنّ. وكان «الابن» يجهـد في افتعـال الشرود، بيـد أن صـدره كـان يمتلئ دفئـاً من جـرّاء حنـانهنّ، ولَكَمْ ودّ لو يحتجـز بضع لحظات أخرى هـذه العيون المتغضّنـة التي ابتسمت له.

وكـانت نساء أصغـر منهنّ سنّاً يـرافقنهنّ في بعض الأحيـان. وإذ كنّ في الثـانيـة عشرة أو الثالثة عشرة، وقد تبرّجْنَ، فقد كنّ يتمايلْنَ في هذه المشية التي تنمّ تارة

عن المحاكاة وطوراً عن الخضوع وثالثة عن التمرّد، وهي مشية خاصة بأولئك اللواتي انتهى صباهنّ وتقرّر مصيرهنّ وسوف يُرَيْنَ في العام القادم حوامل ثقيلات الخطو، ويُخلط في العام الذي يليه بينهنّ وبين أمّهاتهنّ. ومن هؤلاء على الأخصّ كان «سيتايي» يُحذِّر «الإخوة»: «لا تأخذوا منهنّ أيّ شيء يداً بيد، ولا تجلسوا في المكان الذي يمكن أن يكنّ قد جلسْنَ فيه، ولا تطيلوا على الأخصّ النظر إليهنّ، فهنّ جميلات على مدى موسم واحد للقِطاف، ويذبُلْنَ ما إن يُقْطَفْنَ».

أتكون واحدةٌ منهنّ «سيّدةَ» «مالكوس»؟.

وذات يوم، وبينما كان الصبيّان راجعيْن من سُخرةٍ قادتهما إلى تخوم القرية، لامست حصاة أُذُن «ماني» فأجفل. بيد أن «مالكوس» كان هو الذي صرخ والتقط بسرعة حجراً بحجم البيضة وأخذ جِذْره رافعاً ذراعه بشكل ترس وهو يصيح: .

ـ ابرزْ إذا كنت رجلاً!.

وتناهى إليهما ردّاً على ذلك صفير غلام، ولمحا بين أغصان شجرة درّاق يداً صغيرة تلوّح. وإذ اطمأنّ «مالكوس» فقد أرسل القذيفة من خلف كتفه وهو يكيل شتيمة. ودهش «ماني» وقال: .

ـ أتعرفه؟.

وأجاب «مالكوس» وقد بدا أنه كان يُؤْثر أن يكون في مكان آخر: .

ـ ربّما.

ـ ومن هو؟.

ـ بِنْت.

وعندما أصبحت أمامهما رأى «ماني» أن ركبتيها ما تزالان تحملان آثار

سقطات حديثة العهد، وأن شعرها الفاتح مجموع في طاقية ممزّقة، وأنها تتقلّد بشكل حِلْية عِقداً من عروق الكرز المضفورة. وفي يدها التي لم تكن تقذف بالحصى كانت تمسك درّاقة سُرقت للتوّ من بستان «الجماعة» وهي تخضمها بجماع أسنانها. ورفعت ذيل بلوزتها لمسح ذقنها. ولم تكن سوى جُوَيْرية. وقالت لـ «ماني»: .

ـ أرجو ألاّ أكون قد جرحتك.

وأجاب «مالكوس»: .

ـ ليس هناك دم. ولكن كان بالإمكان أن تفقأي له عيناً!.

واستأنفت الصبيّة: .

ـ وما اسمك؟.

وأجاب: «مالكوس» مرة أخرى: .

ـ «ماني».

ـ الصديق غير المُفارِق الذي حدّثتني عنه؟

قالت ذلك وهي تدنو من «ماني» وتتفرّس جِهاراً في وجهه.

ـ قلت لي إنه يقرأ كثيراً وله خطّ جميل وثلاثة حواجب وساق مُلْتوِية ونسيت أن تقول لي بأنه أُبْكم.

واستأنف «ماني» سيره بوقار. وناداه «مالكوس»، وركضت البنت خلفه.

ـ اسمي «كْلُوويه». وأنا و«مالكوس» نلعب في كثير من الأحيان وباستطاعتك أن تأتي معنا.

وتابع «ماني» طريقه، وهزّت «كْلُوويه» كتفيها. وظلّ «مالكوس» هنيهة في الخلف، ثم ركض للّحاق بصديقه.

ـ ما كان ينبغي أن أقول لها عن ساقك. سامحني. لقد حدّثتها كثيراً عنك،

وأردت أن تعرفك إذا ما رأتك يوماً تمرّ.

ـ ليس عليك أن تعتذر من أجل أمر تافه، فأنا لم أفكّر قطّ في أن احتفظ بعاهتي طيَّ الكتمان.

وإذ بدا أبعد ما يكون عن الامتعاض فقد كشف، على العكس، عن سحنة مبالِغة في الاغتباط. وذلك قبل أن يُطلق:

ـ على هذا فإنها هي السيدة التي طالما حدّثتني عنها. وأظنّ أنك إذا كنت قد وصفتها لي بكلّ ذلك الصدق فلكي أتمكّن أنا كذلك من التعرّف عليها إذا رأيتها يوماً تمرّ. إنها إذن هي التي كنت تشبّهها بتمثال إغريقي؟.

قال «مالكوس» متباهياً: .

ـ إنها هي!.

ـ الحقّ أن هناك تماثيل من جميع الأحجام...

لكنه غمر وهو يقول ذلك، وكما ليلطّف من تأثير سُخرياته، كَتِفَي «الصُّورِيّ» بذراع ودّية. وتشجّع هذا الأخير وقال: .

ـ لنسلِّمْ، فقد أخفيت عنك بعض الأمور، غير أني لم أكذب في شيء ممّا قلتُه. فلو رأيتُ على شجرة الخوخ هذه بُرعماً مُزْهراً وقلتُ «تلك خوخة» فهل أكون قد كذبتُ؟ كلاّ ثم كلاّ، إني أكون ببساطة قد استبقت الحقيقة بفصْل واحد.

- ٣ -

كـانت «السيدة»، نصف الصبيّ الصـافر ذاك، تسمّى إذن «كْلُوويه». ومع ذلك فإن أحداً في قريتها التي تجاور أراضيهـا أراضي بستان النخيـل لم يفكّر قطّ في أن يدعوهَا كذلك. لا النساء اللواتي كـانت تساعـدهنّ في شقّ حبّات التـين لتجفيفهـا فوق السـطوح، ولا الفلاحـون الـذين كـانـوا يَـدّعـونها تقـطف من أشجـارهم الثمرة التي تـرغب في خضمها. وكـان في مقدورهـا أن تـدخـل أي مكان من غير أن تقرع الباب ما دام لا يزال في وسعها أن تفعل، ومـا دامت لم تبلغ بعدُ مرتبة الإدراك المزعجة. وكانوا يحبّونها، «كْلُوويـه» السارقـة والسخيّة، سارقة التفّاح والسخيّة بالبسمات. ولقد كانت في نظرهم، وستبقى على الدوام، «ابنة اليوناني».

كانت في الواقع تنتمي إلى أسرة من أُسر المستعمِرين الـذين كان سَلَفهم قـد جاء قديماً للحرب في الشرق ضمن جيش «الإسكنـدر»، ثم اختاروا بعـد موت «المقـدونيّ» أن يبقَوْا في الأرض المحتلّة، وأن يتّخـذوا المزارع والنسـاء ليكـوِّنـوا لأنفسهـم أرومـة. وكـان والـد «كْلُوويـه» لا يـزال يحمـل بـزهْـوٍ اسم جـدّه، «شـارياس»، ويـظنّ أنه لا يـزال يحيـا، مثله، في كَنَف «الإسكنـدر». وكـانت اللحظات العاطفية النادرة التي يحدث أن يقضيها تتمثّل في توفيقه للحصول على جمهور من المستعمين يحكي لهم مـرة أخرى قصـة معركـة «أربيل» الكـبرى التي

مزّق فيها جيشُ «الغازي» إرباً إرباً جيوشَ «دارا»، والتي تلاقى فيها عـدد كبير من الشجعان، «التراسيون» و«الأودريزيـون» والفرسـان «اليبونيـون» والنبّالـون «الكريتيّون» ومرتزقة «أندروماك» و«الكتيبة» و«الرفاق». ولا سيّـما أولئك «الـرفاق» الذين لا بديل عنهم، والذين كـان والد «كْلُوويـه» يتحدث عنهم بـأُلفة، مقلّداً أحدهم مُبَكِّتاً الآخر، إلى أن تحين اللحـظة الحاسمـة من روايته، اللحـظة التي يُدخل فيها سَلَفَه قـائلاً «نحن»، «شـارياس»، ويستمتـع عندئـذٍ بالتـأثر الـذي يقرأه في عَيْنَيْ سامعه.

كانت معركـة «أربيل» قـد جرت، كـما ينبغي التذكـير، قبل ذلـك بعشرين جيلاً، ولكن ما هَمَّ، فليس الـزمن سوى الغِمْـد الذي تنضـج فيه الأسـاطير، وأسـطورة «الإسكندر» أكـثر من أي أسـطورة أخـرى، ولا سيـما في (مـا بـين النهرين)، هذه الأرض التي شهدت انتصاره ثم موته. فلقد وارته شابّاً، وشـابّاً حفظته، عروساً أبديّاً بلا غضون، وظلّ عدد أعوامه، ثلاثة وثلاثون عاماً، هـو عمر الخلود. وكان هـو، «الإسكندر»، من يتحكّم بـالزمـان. أفلم يكن فلكيّو (بـابل) قـد اختاروا تـاريخ مـوته بـداية للعهـد الجديـد؟ ومذّاك تعـاقب ملوك كثيرون، بيد أنهم لم يفعلوا سوى أن حكموا في ظلّ «المقدونيّ»؛ وكـان أوائلهم معاونيه ثم ذرّيتهم، وبعد أن آل الحكم إلى «البارتيين» حـرص ملوكهم على أن يُلحقوا على الدوام بأسمائهم لقب «صديق الإغـريق» لكي يثبتوا هم أيضـاً أنهم الحرّاس الشرعيون لإرث «الإسكندر» المجيد.

وإذا كـان الشاهنشـاه قد شعـر شخصياً، بعـد خمسة قـرون، بالحـاجـة إلى التذكير بذكرى «الفـاتح»، فهـل بالـوسع العجب من رؤيـة أبي «كْلُوويه» يُنمّي حصّته من الأسطورة، هو الذي لم يكن يملك أدنى مـظهر من مـظاهر العـظمة، فـلا أراضيَ ولا ذهبَ ولا خيولَ ولا جـواريَ؟ لقد كـان عجوزاً نحيفـاً أصهب اللحية يهيم في منزل ضخم ولكنّه خرِب؛ وكان يعيش فيه وحيداً مع «كْلُوويه» التي رُزقهـا على كِـبَر من أَمَـة لم يَعُـدْ لهـا اليـوم من أثـر. ولم يكن الأب وابنتـه يشغـلان من ذلك البيت غـير جناح واسـع جداً عليهـما فوق ذلـك، في حين لم

يكن سائره سوى سقوف متداعية وجدران منقوبة وأبواب مُنْتَزَعة بفعل التآكل والديدان.

كانت البُنيّة تغشى هذه الأطلال المؤلّفة من مخابِئ لا تنضب ونتوءات من الغبار والحجارة كانت تدوسها من غير ما حنين. وكان «مالكوس» قد جاء إليها للّعِب أحياناً في لحظات هربه، ولقد أقنع «ماني» بمرافقته إليها في يوم قائظ من أيام «تمّوز». وكانا في سُخرة إلى سوق القرية وقد اشترى منهما تاجر من «نيبور» جميع الحمولة منذ وصولهما مُتيحاً لهما بذلك فرصة التسكّع. وكانا يأملان في لقاء «كْلُوويه»؛ وكان أبوها هو المتجوّل ساهماً، وفي يده عصا.

ـ ابنا مَنْ أنتما يا ولديَّ؟.

وآثر «ماني» أن يقول: .

ـ لقد جئنا لرؤية «كْلُوويه».

ـ بنتي؟.

ـ أجل، ليباركْها الله.

وكرّر «شارياس» في مَرَح أدْرَد بعض الشيء:

ـ ليباركْها الله! ليباركْها الله!.

وكان يتأمّل من أعلى إلى أسفل الغلامَ العجيب الذي كان يتكلّم على هذا النحو.

ـ اقترب أكثر لكي أراك يا ولدي، ألا تكون أحد أولئك المجانين في بستان النخيل؟

بيد أن اليوناني رأى في قَسَمات المراهق من العذوبة والبراءة والرصانة الكئيبة ما قاده إلى الاطمئنان.

ـ إنكما لا تَبْدُوان لي مُريبينْ كثيراً. اتبعاني فلا ينبغي أن تكون ابنتي بعيدة جداً. ستحظيان بشراب التوت فينعش جُمْجُمتكما.

وإذ أخـذوا يتخطّون الحطام والأنقاض فقد وجدوا أنفسهم في الجناح المسكون من المنزل. ولم تكن «كُلُوويه» فيه بعدُ، غير أن أباها لم يكن مهتمّاً كثيراً للأمر وقد سُرّ كثيراً إذ وضع يده على جمهور من المستمعين طازج ساذج يمكنه أن يسرد على مسامعه مرّة جديدة مآثر السَّلَف وأمجاد «الإسكندر». وكان يحكي مُرفقاً حديثه بعدد كبير من الحركات بلهجة البلد الآرامية مزخرفةً كما ينبغي بكلمات يونانية، ولا سيما فيما يتعلق بالتعابير العسكرية. وكان «مالكوس» يُصغي إليه مأخوذاً. بعكس صديقه اليافع الذي لم يكن ليتأثر كثيراً بالبطولات الحربية فأخذ يُسلّي نفسه بآثار عجيبة على الجدار.

كان من الممكنْ ألاّ تكون هذه سوى لطخات كان سيُقدِّر لمالك أسعد حظّاً أن يُغطّيها بطبقة من الكلس. غير أن عين «ماني» كانت تلمح فيها خطوطاً وألواناً. وإذ اقترب فقد أخذ يحكّ بظفره حكّاً سطحياً ذروراً مُزْرَقّاً نثره على ظاهر يده، ثم شرع يُعيد رسم الحوافّ المكشوطة بسبّابة مضطربة. وقطع «شارياس»، وكان يُتبِعه نظره منذ برهة، سرد روايته ليُجيب عن أسئلته غير المعبَّر عنها بالكلام:

- إنّ حِرَفيّاً من (دورا أوروپّوس) هو الذي رسم هذا المشهد. ويُقال إن الألوان كانت مُشْرِقة ومزيَّنة بأوراق ذهبية. ولقد توقّف كثير من الزوّار المشاهير في هذا المنزل الأميري. وهنا بالذات، في هذه القاعة، كانوا يقيمون مآدبهم، أسعد مآدب (ما بين النهرين) وأسخاها بالشراب، في وسعك أن تُصَدِّقني.

مضت عدّة أسابيع قبل أن تُتاح للفتيَيْنْ الفرصة مرّة جديدة لزيارة «شارياس» في منزله حيث تكرّر المشهد نفسه: كان «مالكوس» يُصغي بشيء من السرور - في القاعة الفسيحة التي كانت تُظِلّ، حسب أقوال «اليوناني»، المآدب الباذخة - إلى حكاية كوكبة الفرسان المقدونيين، في حين كان «ماني» المتربّع قبالة الجدار على بُعد خطوات منه غارقاً في تأمّل لوحة جدارية كان الوحيد الذي يلمحها. وكانت «كُلُوويه» تندفع، كلما سمح لها نَصَبُها، من ركن إلى آخر مُصغيةً إلى طَرَف من الملحمة، ثم ساعيةً بلا جدوى إلى أن تُخمّن في عينَيْ «ماني» المُنْدَهِشَتَيْنْ الرؤيةَ التي لا يُسْبَر غَوْرُها وكانت تبهره.

والحقّ أنه خلال هذه اللحظات الطويلة من الصمت والنشوة أحسّ «ماني» للمرّة الأولى برغبة لا تُقاوم في الرسم تعتمل داخل كيانه. وإنها لرغبة عجيبة بالنسبة إلى واحد من «أصحاب الملابس البيضاء»، رغبة مُلْحِدة، رغبة آثمة. فبأية معجزة أمكن أن تتفتّح موهبة «ماني» وأعماله في ذلك المحيط المتمرِّد على كل جمال وكل لون وكل أناقة تُبديها الأشكال، وفي وسط تلك الجماعة التي ترى في أبسط أيقونة مَعْلَماً من معالم الوثنية؟ «ماني» الذي يبدو بمرّ القرون وكأنه المؤسِّس الحقيقي للرسم الشرقيّ، هو الذي سوف تخلق كل ضربة من ضربات ريشته، في (فارس) و(الهند)، وفي (آسيا الوسطى) و(الصين) و(التيبت)، ألفَ موهبة فنّية. حتى إنه ما يزال يُقال في بعض النواحي عن أحدهم إنه «ماني» عندما يُراد القول بعدد من علامات التعجّب إنه «رسّام، رسّام حقيقي».

عندما أزفت ساعة الانصراف بدرت من الغلام الذي كانَهُ بادرة غريبة كان من الممكن أن تبدو عجيبة لو لم يكن مُفْعَماً بالانفعال. فقد انحنى بتصلّب أمام والد «كُلُوويه» والتمس منه إذناً بترميم الرسم الجداريّ. وحرص «شارياس» على الإمساك عن الضحك لأنه شعر بأن الصبيّ كان على وشك البكاء. ولم يتمالك من تمتمة قبول مُحْرَج ردّ عليها «ماني» بمصافحة لائقة بإنسان بالغ.

وإذ رآه «اليوناني» يبتعد وهو يظلع في مشيته، فقد ظلّ موزَّعاً بين الانزعاج من أنه عهد بمثل هذه المهمّة إلى طفل، والشعور - على الرغم من كل شيء - بأنه يتعامل مع شخص فذ كان، لسبب من الأسباب، يهزّ شعوره هو، «شارياس» العجوز، بل يُخيفه.

انصرف «ماني» خلال الأسابيع التي تلت إلى اتّخاذ التحضيرات. الفراشي أولاً، وقد صنعها بيديه من قَصَبات ربط إلى أطرافها أوبار ماعز حصل عليها من القرية للحصول على لمسات ناعمة، أو أوباراً قاسية مأخوذة من الأرانب البرّيّة. ثم كانت الألوان، متستِّرةً أو صارخة، التي استنبطها أو ركّبها بنفسه بشغف ومهارة: رمل، وقد فصل الحُبيبات ذات اللون الأمغر أو القرميدي؛

وإذ دقّ قشور البيض فقد وقع على لـون العاج ؛ وأكمـل الظلال والفـوارق المختلفة بالتُوَيْجات أو الثمار العنبية أو ورائم الأزهار؛ ولكي يُلصقها فقد خلطها بالصمغ الذي انتزعه من جذوع أشجار اللوز.

عندما سنحت الفرصة لـزيارة جـديدة إلى «اليـونانيـيْن» حضر «ماني» ومعـه مجمـوعته التي شرع يفـكّ غلافهـا من غير تعجُّـل. وفي أتـون صيف (مـا بـين النهـرين) عبقت الأصباغ والصمـوغ بروائـح شتّى. وعندهـا ذهب «شاريـاس» و«مالكوس» إلى الشرفة للحديث كما يتحدّث أب وابنه في ظلّ نخلة سامقة، في حين كانت «كْلُوويه» تقطع قطع البطيخ ليغمسوا فيها جميعاً أفواههم الظامئة.

وإذ اقتربت من «ماني» لإعطائه نصيبه فإنها لم تلمح غير ألوان مختلطة، أزرق غائم في البعيد، ثم شـواطئ غير محـدّدة، ترابيّـة أو بلون الدم. وظلّت واقفـة خلفه تنظر. وما هي إلاّ أن ظنّت أنها تكتشف وجهاً من خلال تشابك الخطوط والألوان. وكانت أصابع «ماني» تستدير حوله فتوضِّح قَسَماته مع كـلّ استدارة. وظهر شخص ربّما قيل فيه إنه مسافـر يبرز من ضبـاب خريفيّ، وبـدا حاجبـاه وأنفه وشفتاه وكأنها تجتاز الجدار للجلوس إلى وليمة الأحياء.

زادت «كْلُوويه»، وقد سُحرت، اقتراباً من المراهق الـذي قطع عمله وتقهقـر خطوة لتأمُّل بطله. وكان وجهه مُبَلَّلاً فرفعت ابنة «اليوناني» بحـركة بـريئة ذيـل قميصها لتجفِّف قطرة قطرة العرق الكثيف عن الصدغيْن وحول العينيْن وفـوق الـزَّغَب الخفيف حيث كانت تتـلألأ أيضاً بعض القُـطَيْرات تـلألؤَ النـدى وقـد احتجزه العُشب. ولقد كان «ماني» يُحبّ شميم رائحة «كْلُوويه» اللطيفة، عَرْف الثمار الكيِّس ذاك، بيد أنه لم يكن يشمُّها في تلك اللحظة، بل كان يستنشقها، وكانت تملأ الهواء من حوله وتلفّه وتجتاحه. وفي كل مرة كان ثوب الفتاة يلامس فيها وجهه كانت حركاته تَفْـتُر ونَفَسُه يـرقّ وعيناه تضيقـان. وسرعان مـا لم يعُدْ يرى سوى فرشاته، تلك القطعة من القصب التي كان يحملها بغباء مرفوعـةً إلى مستوى شفتيه. وتعلّق بها نظره وكأنّ كلّ ما تبقّى قد توقّف فجأة عن الـوجود. فمن جميع أعضائه، من بدنه برمّته، لم يكن يشعر، لم يكن يعرف غير هذه اليد

التي تُمسك بالفرشاة وتشدّ عليها وتتشبّث بها بشغف. وعندما ابتعدت ابنة «اليوناني» لكي يتمكّن من استئناف عمله رأته جامداً والفرشاة معلّقة في الهواء وكأنه يستعدّ لوضع لمسة اللون الأخيرة.

أشارت «كْلُوويه» عندئذٍ إلى أبيها بأن يقترب من غير ضجّة. إلا أن «شارياس» أطلق العِنان لسعادته وهو يدخل الغرفة:

ـ لقد كان الأمر على هذا النحو! لا بدّ أن هذا الركن من الجدار كان على هذا النحو في أيام أجدادي.

بديهيّ أنه ما كان بالإمكان في نظره إزجاء إطراءٍ خيرٍ من هذا. فالوجه المنبعث من تحت الفراشي بدا وكأنه يشهد بالحقبة المجيدة التي اعتاد التذكير بها. وسأل «مالكوس»: .

ـ مَنْ يكون هذا الشخص؟.

ولفظ «ماني» وكأنه يتهجّى الاسم على الجدار: .

ـ «يوحنّا المعمدان».

وسخر «اليوناني»: .

ـ كلّا على الإطلاق، لم يوجد قطّ «معمدان» في هذه القاعة. قد تكون بالحري الآلهة «ديميتر»، «أمّ الشعير»، أو «أرتميس الصيّادة» أو ربّما الإله «ديونيسوس»، كلّ أولئك الذين كانت تُولَم لهم جميع ولائمنا. أو حتى...

واقترب من الصورة التي عادت إلى الظهور.

ـ كان هناك أيضاً الإله «ميترا»، وكان الرسّام القادم من (دورا ـ أوروبّوس) على علم بجميع «أسراره». إنه هو الماثل هنا، وأنا متأكّد الآن من ذلك. انظر، ما زال يُرى أثر أشعّة الشمس المرسومة حول وجهه!.

وغمغم «ماني» وقد أصابه الرعب فأفلت فرشاته وخرج راكضاً من غير أن يودِّع: .

ـ «ميترا».

ولم يفتأ يردّد: .

ـ ملعون! ملعون! ملعون! .

أوَ لم يعلّموه منذ طفولته أن يهرب من «اليونانيّين»، ألم يحظّروا عليه أن يأكل خبزهم أو يدخل منازلهم؟ فبأيّ غرور مجنون أجاز لنفسه حقّ انتهاك ذلك؟ وها هو ذا بعدُ منهمك في رسم الأوثان. مُلْحِد، كافر، ملعون.

إلى أين كان بإمكانه اللجوء إن لم يكن إلى شبه جزيرته التي لم يكن «مالكوس» نفسه يعرفها. ولقد ودّ لو يحتبس فيها وينسى نفسه ويُدفن فلا يعثر إنسان أبداً على جثمانه. ومن غير أن يلتقطِ أنفاسه انحنى فوق الماء لتهدئة عينيه.

ها هو ذا الآن ممدّد ومرفقاه مستندان إلى حافّة الترعة ووجهه ملتصق بصفحة الماء وقفّازاه الجلديان الواسعان عائمان مثل مركبيْنِ شراعييْنِ على وشك الغَرَق. وظلّ وقتاً طويلاً على هذا النحو مُسْتَرخِياً، بل ربما أخذتْه سِنةٌ من النوم. وعندما نظر من جديد رأى صورته، وقد انعكست مشوّشة بادئ الأمر، ثم أكثر فأكثر صفاء كلما زايل التغضّن صفحة الماء. ولم يكن قد سبق له قطّ أن رأى وجهه من مثل هذه المسافة القريبة. وقد علقت بشفتيه المنفرجتين قطرة ماء.

وقال مرّة جديدة «ملعون!» بيد أن شفتيه ظلّتا في الماء بلا حراك.

وفكّر عندئذٍ في أن يُقَلِّصهما في تكشيرة موحشة، فلم تتقلّص الشفتان في الماء. بل ابتسمتا. وحاكتهما شفتاه على مهل. ولم يكن الماء قطّ هو الذي يعكس صورته، وإنما كان وجهه هو الذي يحاكي حركات شخصه الآخر المتراثي في الماء.

وسالت من شفتيه فجأة كلمات، كلمات لم تكن صادرة عنه، ولكنّه كان يتلفّظ بها مع ذلك بصوته: .

ـ سلام عليك يا «ماني» يا ابن «پاتيغ»!.

واضطرب فكّه وتـألّم. ولقد ودّ أن يجيب وأن يـطرح أسئلة، بيد أن كلماتـه، كلماتـه هـو، ظلّت في حلقـه، في حـين كـانت كلمات الآخـر تخـرج من فمـه المروّض: .

ـ سلام عليك يا «ماني»، منّي ومن «الذي» أرسلني.

إن المشهد الغريب على ضفة الماء قد وصفه «ماني» بنفسه. ففي نظره كما في نظر من سيُدْعَوْنَ يوماً «المانويّين» فإنه يسجّل بداية «الوحي» إليه. فهكذا تولد المُعْتَقَدات كما يقول بعضهم: انزلاق الخيال عند منعطف سنّ البلوغ؛ لقاء مع المرأة، المرأة المحرّمة؛ وإذا الرغبة تطفح . . .

بلا ريب. ولقد كان «ماني» بحاجة إلى تأمّل ذاته في مرآة الطفل هذه ليعيد لصق قِطع ذاكرته المهشّمة. فالحقيقة بشأن مولده، بشأن قدومه إلى بستان النخيل، إنما كان يحدس بها، وكان قد جمع أجزاء منها، غير أنه لم يكن يجرؤ على وضع كلّ منها بحذاء الأخر؛ وقد انبغى أن يُقْبِل ذلك «الصوت» فيناديه «ابن پاتيغ»؛ وانبغى أن يسمع من فم «التجلّي» اسم «مريم».

«في الثانية عشرة من العمر علمت في نهاية الأمر مَن المرأة التي حملت بي وولدتني، وكيف تكوّنتُ في هذا الجسد المكوَّن من لحم، ومنه كان بذار الحبّ الذي بعثني حيّاً».

تلكم هي أقوال «ماني» التي نقلها بعد ذلك بأعوام حواريّوه.

ومع أنه كان ابن عصره فقد نظر إلى هذه الأمور نظرة ساذجة ومُفْعَمَة بالحميّة. فالصورة التي رآها، أو ظنّ أنه رآها، ذلك الوميض الراسي على صفحة الماء، يسمّيها في كتبه «تَوْأمي»، «صِنْوي»، ويتحدّث عنها وكأنه يتحدّث عن رفيق حقيقي. وإنه لرفيقٌ تعاسةٍ بالنسبة إلى المراهق المتمرِّد. وحليفٌ عزيز جداً على الأخصّ في مواجهة «أصحاب الملابس البيضاء ومعتقداتهم ومحظوراتهم.

وهكذا فإنه في اليوم الذي تمّ فيه ذلك اللقاء الأول، يوم أفزعه التجلّي على الرغم من كل شيء، أراد التكفير عن رسمه على الجدارِ وجهَ الإلّه «ميترا فسمع من فم «التوْأم» الردّ الذي كان يرجوه: .

«ارسم ما حلا لك يا «ماني»، فـ «الذي» أرسلني لا منافس له، وكلّ جمال يعكس جماله «هو».

- ٤ -

هل كان في وسع الصبيّ إذن أن يرسم بلا وَجَل، حتى ولـو صورة وَثَن؟ إن «تَـوْأمه» يقـول له أشيـاء أخرى كثيرة كان متعـطّشـاً لسـماعهـا: أنّ معـتقـدات «أصحاب الملابس البيضاء» ليست معتقداتـه، وأنّه لم ينتمِ يـوماً إلى ديـانتهم، وأنّ نقاوتهم ليست سوى ادّعاء وانحراف. وأنّه عندما يصبح ذات يوم ناضجـاً لمواجهة الدنيا فسوف يُغادر بستان النخيل ذاك.

عاهد «ماني» نفسه على عدم البوح بشيء من كل هذه الأشياء لأحد. إلا أن نفسه كانت تفيض بفرح غامر يُخيِّل معه أن روحه قد تلاحمت بعد طول ارتهان بـدلاً من أن تنقسم أو تنصدع أو تنشـطر. أفلم يغادر بيت «شـارياس» وكـأنـه ينجو بنفسه من ماخور اشتعلت فيه النيران؟ وها هو ذا يعود إليه بعد بضعة أيام ويعود إلى جلسته أمام الجدار ويلتقط فرشاته التي كان قد ألقاها من يده فيؤجِّج ببضع ضربات نشيطة الأشعّة التي تكلّل رأس «ميترا». أفلم يكن قد هرب من «مالكوس» من غـير أن يُقيم له أيّ اعتبـار؟ وها هـو ذا يعود فيلتفت إليـه أشدّ مراعاة وأكثر إمعاناً أيضاً في الصداقة.

وكان «الصُورِيّ» يعلم جيداً أن صديقه قد تغيّر، وأنه بات مختلفاً عـمّا كان، ولكنْ مختلفٌ في أي شيء؟.

عندما جثا المراهقان أحدهما بجانب الآخر في «البيت المقدّس»، المكان الذي تقام فيه الشعائر، لم يكن «ماني» يُرتِّل. بل كان يحرّك شفتيه وذقنه وحاجبيه ليُوهم بأنه يُرتِّل، بيد أنه لم يكن يخرج من فمه أيّ صوت. وإذ كانا معاً في سُخرة ذات يوم في بستان الجماعة فقد لاحظ «مالكوس» أن «ماني» لم يكن كذلك يعمل. بل كان يرفع مِعْزقته بتثاقُل ويخفضها ببطء، بطء شديد بحيث تكاد وهي تلامس التربة تخدشها. ثم كان يتظاهر من حين إلى حين بأنه من العياء وكأنه قد عَزَق حقّاً، فيتوقّف ويُسند أداته بأناة إلى جذع شجرة رمانٍ أملس لكي يستعيد أنفاسه.

ولم يتمالك «مالكوس» في ذلك اليوم عن سؤاله عمّا كان يفعل. وعندها التقط «ماني» غصناً مقطوعاً كان قد بدأ يذبل وإن لم يزل أخضر فلوّح به وفرقع وكأنه سوط.

ـ اسمع هذا الصفير! إنه الهواء يُعْوِل لأني أهنتُه. ولو كنتَ تُحْسِن الإصغاء إليه لسمعته يقول: تخفّف فوق هذا الثرى، سِرْ من غير أن تشدّد الوطء، تجنّب الحركات الفظّة، لا تقتل الأشجار ولا الأزهار. تظاهر بحرث الأرض ولكنْ لا تجرحْها بل اكتفِ بمداعبتها. وعندما يرفع الآخرون عقائرهم حرِّكْ شفتيك ولا ترفعْ عقيرتك.

لسوف يقول «ماني» فيما بعدُ وهو يتذكّر بأعوامه في بستان النخيل التابع لـ «أصحاب الملابس البيضاء»:

«لقد سِرتُ وسط هؤلاء الناس بحكمة وحيلة، محافظاً على الراحة، غيرَ مقترفٍ ظُلماً، غيرَ مُنْزِلٍ أي نوع من العذاب، غيرَ مُتَّبِع شريعتهم، غيرَ خائضٍ في أي حديث على طريقتهم».

فأما الحيلة فقد انبغى اللجوء إليها للعيش يوماً بيوم في كنف هذه الجماعة من غير التقيُّد قطّ بممارساتها، ولكن من غير التظاهر أيضاً بمناقضتها. وذلك لأنه كان على المراهق أن يُخفي حقيقته الخبيثة، وأن يتعلّم ويتأمّل وينضج خلال

سنوات طويلة إلى أن يُصبح جاهزاً لمواجهة الدنيا. وكان عليه بانتظار ذلك أن يحيا في المراءاة والتظاهر والتخفّي. ولقد اتّبع ذلك بشدّة على كل حال، وعندما كان يَحْدُث أن يفقد الشجاعة أو المواظبة فإنّه كان يردّد في نفسه: «إنه بمحاكاة حركات الناس يتعلّم المرء عدم جدواها».

ومع ذلك فقد بقي مضمارٌ كان يحرص فيه «ماني» على عدم التظاهر. فمن بين جميع أبنية البستان كان هناك واحد، المكتبة، لم يكلّ قطّ عن اجتياز عتبته. والمؤسف أنّ «سيتايي» كان قد اختار الإقامة في ذلك المبنى بالذات. ولم يكن يشغل منه غير خليّة متواضعة جداً. ولكنّه كان هناك على كل حال، قريباً جدّاً من الكتب والقرّاء. ولم يكن أحد ليزعج «ماني» ما دام مرجعه مقتصراً على المؤلّفات التي كان «الأب» يوافق عليها. ولكنْ ما إن تُسَوِّلَ له نفسه تصفُّحَ مخطوطات أخرى حتى يكون على ثقة من قدوم «سيتايي» أو أحد «الإخوة» القائمين على خدمته، في الدقائق التالية، وهما يلوّحان بالتهديدات واللعنات.

والحقّ أن المؤلّفات المسموح للمريدين، ولا سيّما أصغرهم سنّاً، بأن تصل أيديهم إليها كانت نادرة في هذه المكتبة الغنيّة إجمالاً وغير المُنْتَظَر العثور عليها في ركن منعزل من وادي «دجلة». وكان يكفي أن يكون المؤلّف وثنياً لكي يُحكم بالطبع على كتاباته بأنها مُلْحِدة. والمؤلّفات الوحيدة التي لم يكن يشملها الحظر هي بعض الأبحاث القديمة في الطبّ والنبات والنجوم والرحلات. وإذا كان المؤلّف يهودياً فإنه ينبغي التأكّد ممّا إذا لم يكن قد قدّم ـ على غرار «إبراهيم» ـ قرابين من الحيوان على أحد المذابح، ولا وافق بشكل خاصّ على مثل هذه الممارسات؛ وهذا يُفَسِّر أن «التوراة»، كما كانت تُقرأ في بستان النخيل، قد بُتِر جزء لا يُستهان به من نصوصها. وإذا كان المؤلّف في نهاية المطاف مسيحياً فإنه يُواجَه على الفور بشُبُهات قاسية في الهرطقة؛ وعليه فإنّ من بين الأناجيل العشرين التي كانت المكتبة تملك نسخاً منها، ظل إنجيلان أو ثلاثة فقط مسموحاً بها، وأما الباقي فكان يكاد يُعتبر أحسن من رسائل «بولس الطرسوسي» الذي لم يُغْدِق عليه أفراد الجماعة قطّ نعت «القدّيس»، وإنما نعوت

الكـافر والخـائن وأمير الهـراطقة، لأنـه، حسب ما قـال «سيتايي»، «قـد بهـرج عقيدة «يسوع» لكي يستسيغها الإغريق».

وأمـا الكتب القليلة التي لم تكن محـظورة عـلى «مـاني» فقـد قـرأهـا، وأعـاد قراءتها، قبل أن يحفظ عن ظهر قلب مقـاطع طـويلة منها كـانت قد أعجبتـه أو استرعت انتباهه أو حيّرته. وكان يُفاجأ أحياناً، وهـو يتصفّح بعـين كسول نصّـاً سبق أن عرفه كلمةً كلمة، بأنه يـرى بالصُّـوَرِ المشهدَ الـذي يتحدّث عنـه ذلك النصّ. وعندها كانت تعتلج في نفسه الرغبة في الـرسم. وكان ذلـك يبدأ عـلى الدوام بمواجهةطويلة بينه وبين الصفحة، ثم لا تلبث هذه أن تكتسي فـراغاتهـا حول الكتابة الآرامية بمشهد حافل بالأشخاص والأزهار والحيـوانات الخُـرافيّة. ومع ذلك فإنه لم يكن يُراوده في لحظة من اللحظات أن يصطحب نصّاً أو يزيّنـه بالصور أو يـزخرفـه، على الـرغم من أنّ هذا التعبـير الأخير كـان سيملأ نفسـه حبـوراً؛ بل كـان مقتنعاً، عـلى العكس من ذلك، بـأنه لـو قُرئت رسـومـه عن كَثَب لفُهمت مادّتُها من غير ما حاجة إلى الاستعانة بالكلمات.

وعلى هذا النحـو كان فنّ «مـاني» يتفتّح في هـوامش الكتب، من غير سـابق تصميم، ولكن بالجموح الماهر الـذي يرافق النضـوج المُبكِّر. وكـان يخطّ بادئ الأمر بمِداد النُّسّاخ الخطوط النحيفة التي تُحدِّد هيئة الأشخاصِ والأشياء ثم ينفخ فيها الضِياء والوضوح. وإنها لدقائق من السعادة يختطفها يوماً بعد يوم من يقظة «الإخوة» وحَذَرهم.

لكن لم يكن بدٌّ من أن يُكتشف الأمر. فـما إن رأى أحد «أصحـاب الملابس البيضاء» للمرة الأولى «ماني» وهو «يلطِّخ» صفحـات أحد الكتب المقـدّسة حتى هـرع يُخطِر «سيتـايي» بالتجـديف المُقْتَرَف. ولم يشـأ الصبي أن يتـوسّـل ولا أن يهرب. وإذ كان منتشياً بلحظة الإبداع فإنه لم يستسلم للخوف ولا حتى للحَـذَر الـذي كان قـد رصده لنفسـه. وعندمـا انتصب المعلّم أمامـه خاطـر بـاعـترافٍ وَقِحٍ:.

ـ لم أَنْهِ بعدُ رسمي.

وإذ أخذ «سيتابي» الكتاب، وهو نسخة من إنجيل «تـوما»، فقد توقّف منذ التوطئة عند رسم يمثّل «يسـوع» وسط حواريّيـه. ولم يكن أي واحد من أولئـك الأشخـاص مرسـوماً بـالجسد، فـما هم سوى ثـلاثـة عشر وجهـاً، وفي الـوسط «الناصريّ» وخلف رأسه قرص شمسيّ على شاكلة آلهة (تدمر). وقريباً [illegible] ما «توما»، تَـوْأمه بحسب اعتقـاد الجماعـة؛ وحولهـا الوجـوه الأخرى دائـرة وكأنها كواكب في سماء زرقاء وسوداء. وكتم «سيتابي» أنفاسه. وكان المـريدون خلفـه ينتظرون حُكمه بصمت.

بيـد أن صدور الحكم تـأخّر. فقـد مضى المعلّم يضع الكتـاب فوق إحـدى الـطاولات، أقرب واحـدة من النافـذة، وغرق في تـأمّله من جديـد على ضـوء النهـار. كانت الصـورة التي ينظر إليهـا تنظر إليـه أيضاً، وكـانت وراء الـورقـة بكثير، وأدرك أنها لا يمكن أن تكون قد وُلدت من خيال المراهق. فلقد تعمّقت ملامحها وازدادت نظرتها كَدَراً وكأنما أصابها الخوف.

وفي حـين ظلّ الـرجل خـائراً، كـان «ماني» يجـول بنظره عـلى الجدران التي تكدّست لصقها الرِّقاق وأوراق البرديّ الملفوفة والكتب المؤلفة من سعف النخل والمحزومة بحُبَيْلاتٍ رثّة. وكان الصبيّ يعرف كـل مُصَنَّف من جلدته فـأخذت شفتاه تتمتمان لاهِيَتَيْنِ بأسماء المؤلِّفين: «بـطليموس»، «آريـان»، «مارسيـون»، «بردوزان». . . وكان في مُكنته أن يظلّ كذلك ساعات من غـير كَلَل، مراجِعـاً في ذاكرته ما حفظه من كل منهم، وفي بعض الأحيان ما كان قد أُغري بـرسمه أيضاً. وأقبلت ابتسامة أشرق معها وجهه الطفولي المفتون. وكان قد سبق ذلك أن غاب كل شيء عن الـوجود حـواليْه. . . إلى أن تحـطّمت هذه الـدَّعَة الهشّة عند أول كلمة سمعها. فقد قال «سيتابي» الذي نمّت عيناه وصوته عن تأثّره: .

ـ هذه الرسوم، اللهُ أم الشيطانُ هو الذي ألهمك إياها؟ .

واستدار من لحظته وخرج ليُدلِّل بالتأكيد على أنـه لم يكن ينتظر أي جـواب من فم «ماني».

ظلّ المعلّم متجهّماً في الأيام التي تلت وكأنه يتفكّر في عِبرة تنحفر إلى الأبد في ذاكرة المراهق الغضّة. وكذلك حرص «الإخوة»، باستثناء «مالكوس»، على ألاّ يبادلوا المُذْنِب كلمة واحدة خوفاً من أن يُصيبهم غضب «سيتابي»، وبسبب الرعب الشديد الذي كانت توحي به إليهم جميعاً الخطيئة التي لم يُعاقب عليها بعدُ.

كانت الأيام تمضي، وغدا هواء بستان النخيل مُحرِقاً، ولم يكن لشمس صيف (ما بين النهرين) يدٌ في ذلك. وما كان جوار «دجلة» ليلطّفه قطّ هذه المرة. فلقد كان المعلّم يشعر بأنه مهدَّد في سلطانه. وكان يقول في نفسه: «ألستُ أنا الذي قرّر، مستجيباً لاندفاعة مباغتة، أن يذهب ذات يوم إلى (المدائن)، إلى معبد الوَثَن «نَبو»، ليصطاد عند حافّة الحوض أميراً «پارتياً» عجيباً يبحث عن الحقيقة؟ ألستُ أنا «سيتابي»، مَنْ ألحّ على جَلْب هذا الصبيّ إلى هذه «الجماعة»، وحين ضعف «پاتيغ»، ألم أكن أنا الذي ذهب شخصياً لجلب الصبيّ؟ ألم أكن بذلك أداة «مشيئة سامية»؟ ثم ألم أُصْبِحْ، بشكلٍ ما، عرّابَ «ماني»، أباه في «الجماعة»؟.

«ومع ذلك فإن هذا الصبيّ الذي أعتقد أن «العناية الإلٰهية» قد أشارت به هو نفسه الذي ينتهك شريعتنا، هو نفسه الذي يجرؤ على رسم ملامح «الوجه القدسيّ» بأصابعه القذرة! بأية لغة أُكلّمه، وأي سلوك أسلك معه، وكيف أمنعه، على الأخصّ، من نشر الاستهتار والاضطراب في بستان النخيل هذا؟».

إذ كان الاضطراب قد أخذ يعمّ بين «الإخوة». فكان بعضهم، وهم قلّة قليلة والحقّ يُقال، يتساءلون: ألا تبدو، في الثانية عشرة من العمر، عند مفارقة الطفولة، مخايل «المختارين» وتنفجر حكمتهم في وجه من يكبرونهم؟ فكما «يسوع» في وجه فقهاء الشريعة في (هيكل القدس)، كذلك هو «ماني»! وكان هذا التشبيه يثير حفائظ معظم «أصحاب الملابس البيضاء» الذين بدأوا يأخذون الآن على «سيتابي» قلّة تشدّدهِ بإزاء المُلْحِد. وإنها المرة الأولى منذ

تأسَّست الفِرقة، قبل أربعين عاماً، يُعارَض فيها مُرْشِدها. وكان خصومه يقولون: «لو كان «ماني» ذلك الشخص الطاهر الذي أشارت به «العناية الإلَهية» لكان اختار رفيقاً له، من بين هذا العدد من المريدين الفضلاء، شخصاً غير هذا الفاسد «مالكوس» الذي ينتهك كل يوم أنظمة حياتنا ولا يُعلن سوى الاحتقار لجماعتنا!».

والحقّ أن الفتى «الصُّوريّ» ما كان من الممكن أن يكون نموذجاً للتُّقى. فقد كان يناهز أعوامه الخمسة عشر، أي سنّ النضج المعترف بها، ولم يكن يُخفي قطّ رغبته في مغادرة بستان النخيل. ولا كان يتحرّج كذلك من الحديث إلى الجميع عن (المدائن)، وعن تجارته في قابل الأيام، وعن قصره وقوافله. ثم إن «سيتايي» و«أصحاب الملابس البيضاء» الآخرين كانوا قد كفّوا عن منع اختفاءاته مُدركين أنه لم يكن ينتمي قطّ إلى شريعتهم.

ما أشدّ إذن ما كانت دهشة «مالكوس» لدى عودته من القرية ذات مساء عندما انقضّ عليه ثلاثة من أعتى «الإخوة» وثبّتوه إلى الأرض ثم جرّوه إلى فِناء «البيت المقدّس» حيث أوثقوه إلى نخلة النادمين وأخذوا يَكيلون له الضربات من غير أن يقدّموا له أي تفسير.

وعندما هرع «ماني» كانت السِّياط الثلاثة المصنوعة من نبات معترش مضفور تنهال على ظهر صديقه وفخذيه بانتظام شَرِس مصحوبة بالمواعظ المعتادة: «اعترف بذنوبك!»، «اعترف!»، «أظهر توبتك!». وفي كل مرّة كانت صرخات «الصُّوريّ» تطول وتزداد إيلاماً.

وبإشارة من «سيتايي» ازدادت أيدي الجلادين وطأة، فصرخ المراهق بغتة في سورة غضب: .

ـ لست الوحيد الذي يفرّ هنا، فلماذا أُعاقَب أنا؟.

وأشرق وجه «سيتايي» بابتسامة. فها قد جاءت آخر الأمر الوشاية التي كان يصبو إليها. وهكذا اقترب من المُنَكَّل به، وكأنه لم يكن ينتظر سوى هذه

الكلمات، لكي يتوقّف الجلّادون على الفور عن الضرب.

ـ مَنْ كان معك إذن؟.

وإذ ثاب «مالكوس» إلى رشده فقد تمالك نفسه.

ـ لا أحد! كنت وحدي!.

ـ هذا المساء ذهبت وحدك، أعلم ذلك. ولكن في غير هذا اليوم مَنْ مِن هؤلاء الإخوة رافقك؟.

ـ لا أحد منهم!.

لم يكن يُسمع غير لهاث المراهق المنكّل به عندما التفت «سيتابي» بجلال إلى «ماني» وقال بصوت منتصر: .

ـ أعرف أنه أنت يا «ماني» مَنْ يصحبه في مغامراته، ومعظم الإخوة يعرفون أيضاً. بيد أني أردت أن أسمع ذلك من فمك.

كان «سيتابي» قد صرخ تقريباً، ثم أشار إلى الجلّادين بأن يتابعوا عملهم. وأسرع «ماني» يجيب: .

ـ إذا كانت كلمة من فمي تُجنِّب «مالكوس» هذا العذاب فسأقولها.

وصاح «سيتابي»: .

ـ حسناً قُلْها، انطقْ بها.

ـ هذا صحيح، لقد رافقت «مالكوس» في بعض النزهات.

ـ وإلى أين كنتما تذهبان؟.

لم يكن ما يطلبه «سيتابي» اعترافاً جسوراً، بل كان وشاية.

وأجاب «ماني» بتسليم: .

ـ كنا نذهب إلى القرية.

ـ هذا شيء مؤكّد، ولكن إلى مَنْ ذهبتما؟.

ـ إلى أشخاص شتّى.

ـ إلى «اليونانيينْ»؟.

ـ أحياناً.

ـ إن مرّة واحدة لكثيرة. لقد انغمستما في النجاسة والكُفْر!.

كانت تصاحب كل جملة يقولها «سيتايي» الآن جلبة تنمّ عن الموافقة. وتابع هذا بصوت لا يني يُظهر مزيداً من الاستنكار ومزيداً من الوشاية: .

ـ وعندما كنتما تذهبان إلى «اليونانيينْ»، ألم يحدث قطّ أن أكلتما من خبزهما؟.

كان جواب «ماني» حاضراً في رأسه فتقدّم خطوة ورفع رأسه وتهيّأ ليقول بصوت مفاخر: «أجل، لقد أكلت من الخبز اليوناني كما فعل قبلي رُسُل «يسوع». فعندما أرسلهم للتبشير بين الأقوام لم يأخذوا معهم رحى ولا قِدْراً. ولم يكن لهم من متاع غير الثوب الذي يلبسونه». ولن يكاد يقول هذه الكلمات حتى يحمرّ وجه «سيتايي» وترتفع جلبة «أصحاب الملابس البيضاء» انحيازاً إليه. ولكنّه في اللحظة التي همّ فيها بالكلام، وكان قد تقدّم بخطوة متحدّية، حتى تبلبل ذهنه وتراخت أطرافه، ولم يَعُدْ يتحكّم بشفتيه ولا بيديه فظلّ في مكانه لا يريم وفي حالة يُرثى لها. وأخذ ينتحب.

وانتصر «سيتايي». فلقد استعاد سلطانه وأسكت المِقْلاع. وقاس «ماني» بنظره من أعلى إلى أسفل قبل أن يستخلص بوقار الأمير: .

ـ إن بعضكم أيها الإخوة يريدون أن أطرد في هذه اللحظة من جماعتنا الفتيينْ الجاهلينْ اللذين انتهكا شريعتنا واستخفّا بتقليدنا وبرهنا عن قدر كبير من الغرور والادّعاء. بيد أنه ليس في وسعي أن أُعامِل هذين المخطئينْ بالطريقة ذاتها. فـ «مالكوس» لم يَعْتَنِقْ يوماً ديانتنا بملء خاطره. والذين أَتَوْا إلى

هذا المكان وكانوا بالغين اختاروا اختياراً ورِعاً سوف يُجازَوْن عليه، والذين قدموا أطفالاً كبروا في كنف شريعتنا. ولا ينتمي «مالكوس» لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، ولقد أبقيناه وفاءً للمرحوم أبيه، ولكن لنعرف أن نتقبّل أنه لن يكون أبداً واحداً من جماعتنا، إنّه ينتمي إلى قذارة الدنيا وعليه الآن أن يعود أدراجه إليها. والاحتفاظ به هنا معناه المخاطرة برؤيته يُفْسِد أكثر مريدينا قابليةً للعطب، ولقد كان لنا برهان على ذلك هذا المساء.

«ومن غير تأثير «مالكوس» المشؤوم، من غير الإغراءات المستمرّة التي يُخضِعه لها، سوف يعود «ماني» سريعاً أَوْدَعَ حَمَلٍ في هذا القطيع».

ـ ٥ ـ

عندما تمدّد «ماني» في ذلك المساء على الحصير الذي كان فراشَه منذ أن قدم، كـان المَهْجَع معتـماً وخاليـاً، إذ كـان «الإخـوة» لا يـزالـون مجتمعـين في «البيت المقدّس» لصلاة الغروب. وكانت أصواتهم المختلطة تترامى إليـه في نفثات. ثم انتشر منـاخ ثقيل من السكـون. وعنـدهـا اعتـدل «مـاني» وطـوى تحتـه سـاقـه اليسرى، الساق المعطوبة، وأدار وجهـه إلى النافـذة باتّجـاه البدر إلى أن غسلت هـالتُه عينيْه فما لبث أن أغمضهـما وكأنّـه يهضم النور الـذي التقطه عـلى هـذا النحو.

عندئذٍ ارتسمت في ذهنه الصورة التي سبق أن رآهـا في ماء القنـاة، صورتـه هو، صورة «تَوْأمه». ليتمكّن المراهق وقد انفرد بها من البكاء.

ـ لمـاذا أذللتُ نفسي هكذا أمـام «الجماعـة» بأسرهـا؟ لِمَ لم أستطع الـردّ عـلى «سيتايي» وإفحامه؟

وأجاب «الآخر»: «لم تأزف الساعةُ بعدُ».

ـ لِمَ لا أقول لهؤلاء الناس حقيقتهم؟.

«ألم تقـرأ أقوال «يسـوع»؟ لا تُرمى الـلآلئ للخنـازيـر! إنـه لا يُكشف عن الحقيقة إلا لمن يستحقّونها. إن رسالتك فتنةُ الملوك وقَلْبُ المعتقدات وهزُّ العالم،

وأنت لا تفكّر إلا في بَهْر بعض «أصحاب الملابس البيضاء!».

ـ لكني هنا عشت على أي حال منذ طفولتي، وهؤلاء الناس هم الوحيدون الذين أُخالطهم.

«إنك لم تنتمِ قطّ إلى «أصحاب الملابس البيضاء»، ومصيرُك هو غير هذا، ولن تشيخ بين هؤلاء الناس».

وتوقّف عن البكاء عندما تكوّنت هذه الأقوال فوق شفتيه، وعلى مدى برهة داعب حُلُماً: ماذا لو رحل هو و«مالكوس» منذ الآن؟ ولكنّ «الآخر» تقنّع جِيال نزقه بقناع الزمن المُلْغى الوادع.

«لا يا «ماني»، لا تستطيع أن تكشف نفسك، فما يزال الوقت مبكّراً جدّاً لكي تواجه العالم، ولن يُصغي أحد إلى صبيّ».

على الرغم من أن «مالكوس» كان مطروداً شرعاً فقد سُمح له بالبقاء بضعة أسابيع أخرى في بستان النخيل. وإنه لتسامُحٌ لم يكن ليخلو من علاقة ظاهرة بالجروح البارزة التي أُلحقت به. ولم يكن جلّاده «سيتابي» ليُريد أن يُقدِّم للقرويين المجاورين مشهداً كفيلاً بأن يُغذّي شكوكهم.

وكان «ماني» مقتنعاً بأن صديقه سوف يرفض هذه الرحمة المتأخّرة والمشبوهة وينتهز أول ليلة فيهرب. غير أن «الصُّوريّ» لم يحتقر المهلة التي عُرضت عليه. وقد شرح ذلك لِـ «ماني» بقوله: «لا أودّ أن أصل عند «اليونانيينْ» على هذه الحال!» فلم يكن يريد أن يَمْثُل مراهقاً مجلوداً مُهاناً في حضرة امرأةٍ عمرِه والرجل الذي سيصبح حماه. ما دام في إمكانه أن ينتظر في الظلّ أن تختفي آثار ما كان!.

والحقّ أن «مالكوس» لم يكن مستعجلاً الرحيل كثيراً. وحين حضر بعد عشرين يوماً من الحادثة أحد «الإخوة» ليشرح له على لسان «سيتابي» بأنّ عليه أن يذهب بدا عليه الاضطراب.

ـ لقد آن الأوان لكي أعترف لك يا «ماني» بأني كذبت. كذبت كثيراً عليك.

ـ ليس الوقت وقت اعترافات، فلقد نُسِيَتْ أكاذيبك. ولا تتّخذ هذا الصوت النامّ عن الوداع فلسوف نلتقي.

ـ لم أكن أتحدث عن الأكاذيب الماضية، فالأمر يتعلّق بما نحن فيه اليوم. لقد أوهمتك أن «اليونانييْن» ينتظرانني، وأنهما متلهّفان لاستقبالي ما إن أتركُ بستان النخيل هذا. فاعلم أني كذبت!.

ـ ألا يريدك «شارياس» زوجاً لابنته؟.

ـ أتظنّ أني تجرّأت حتى على مفاتحته بذلك؟.

ـ حسبك، لقد رأيتكما مئة مرة معاً تتحدّثان وتضحكان. إنه يحبّك وكأنّك ابنه حقّاً.

ـ ما دمت أسأله عن مآثر سلفه في معركة «أربيل»! بيد أنه لو قُدِّر أن يشكّ لحظة بأني أحلم بأن انتزع منه ابنته الوحيدة لأقودها إلى (المدائن) لما عاد يفتح لي بابه قطّ.

ـ وما أدراك؟ إني على ثقة بأنّك لو طلبت منه بالفعل يد «كْلُوويه» لقبل من غير أدنى تردُّد.

ـ من ذا يرفض تقديم ابنته إلى أحد «أصحاب الملابس البيضاء»؟.

ووجد الصديقان أنفسَهما غارقيْن في الضحك. لا بصوتٍ مرتفع فقد كان بالإمكان أن يسمعوهما.

لم يعُدْ «ماني» يسمع بأخباره. فقد كان هو نفسه مراقَباً على الدوام، وفي كل مرّة يجتاز فيها جدار السياج الصغير كان اثنان من «الإخوة» يرافقانه. ولم يكن يجد الراحة إلاّ في مُعْتَزَله السرّيّ. وبمعجزةٍ ما لم يكن «أصحاب الملابس البيضاء» يزعجونه قطّ حين يذهب إليه أو يعود منه، حتى لكأنّ ذلك المكان

كان يزوِّده بنوع من الخفاء عن البصر، ولكـأنّ الوقت الـذي كان يُمضيـه فيه لم يكن محسوباً عليه.

ومـع ذلـك فقـد لاحظ ذات يـوم وهـو يتخـطّى النخلة التي كـانت تشكّـل الحاجز، وجوداً غريباً.

ـ «كُلُوويه»! كيف وصلتِ إلى هنا؟.

ـ كانت النبرة فظّة. فلم يسبق لأي إنسان أن داس أرض شبه جزيرته.

ـ لقد تبعتك مرّة، منذ مدّة طويلة. بيد أنك كنت تبدو مستغرِقاً جدّاً بحيث لم أجرؤ على الاقتراب.

لم يلبث «مـاني» أن استعاد اللهجـة الرقيقـة التي طالمـا استخدمهـا مـع ابنـة «اليوناني». وكان أن غُفِر تدخُّلها.

ـ ماذا عندكِ من أخبار عن «مالكوس»؟.

ـ لقد وجد مأوى في الجهة الثانية من الترعة عند مُزارع بحاجة إلى مساعدين لجني المحصـول. وهـو يشتغـل من الصبـاح إلى المســاء حتى لينـامُ من شـــدّة النَصَب . ولم يأتِ إلى بيتنا سوى مرة واحـدة. لقد اشتقنـا إلى زياراتكـما. وقد سألني أبي أمسِ عمّا إذا لم تكن راغباً في إصلاح رسوم أخرى فوق جدراننا؟.

كان شعرُها، شعرُ الصبيّة، ملموساً تحت خمار امـرأة، وكانت حـركاتهـا تنمّ عن خَفَر لم يعهده «ماني» فيها.

ـ إني أحتفظ بـذكرى رائعـة عن تلك المغامـرات. ومـا زلت أرى أبـاك مـع «مالكوس» لقد بدآ يصبحان بِهذارَيْن. . .

ـ «ماني»، عندما كنتما تأتيان لزيارتنا كنتَ أنت على الأخصّ مَنْ أنظر إليه.

وكأنما لم يسمع فحاول أن يحتفظ بالنبرة المرحة نفسها.

ـ . . . معركتهما في «أربيـل» التي لم تكن تنتهي، والسَلَف الذي كـان يصل

دائماً في اللحظة المؤاتية لإنقاذ «الإسكندر». وتلك الضحكة المتهلّلة التي يطلقها «مالكوس». . .

إلاّ أنّ «كْلُوويه» لاذت بالوقار.

ـ «ماني»، أنتَ من كنتُ أنظر إليه على الدوام. إن أبي يحبّك أيضاً.

كانت ابتسامةٌ قد بدأت تَفْرُج قَسَماتِ «ماني». غير أنه قمعها ورجع خطوة إلى الوراء.

ـ و«مالكوس»؟.

ـ ما كان بيني وبينه قطّ من وعد.

ـ إنه منذ سنوات يحلم. . .

ـ هل عليّ أن أحمل أحلام الآخرين؟.

وغمغم «ماني»: .

ـ لكني أنا وعدت.

ولفّ ذراعه اليسرى حول شجرة مألوفة وكأنه يَنْشُد عَوْنها قبل أن ينطق بالكلمات التي ستُبعد عنه مَنْ يرى «مالكوس» أنها «سيّدته».

ـ لقد قطعت على نفسي عهداً في بستان النخيل هذا بألاّ أتّخذ لي زوجة أبداً. انظري، لقد لففت هذا الحبل حول قامتي. . .

وأضاف وكأنه يودّ تعزية «كْلُوويه»: .

ـ في ذلك الوقت لم أكن أعرفك.

ـ لا، لم تكن تعرفني. فهل سبق أن عرفتَ شيئاً غير بستان النخيل هذا؟ وهل ستعرف يوماً شيئاً غيره؟ هل ستحبّ يوماً أحداً.

وألحّ «ماني» قائلاً وهو يجهد في اتّخاذ أجفّ نبرة: .

ـ لقد قطعت عهوداً!.

عنـدئـذٍ فـرّت «كْلُوويـه». وعلِق خمـارهـا الـذي لم تُحْسِن عقـده في أحـد الأغصان، ولكنها لم تتوقّف لالتقاطه.

وانتظر «ماني» أن تصبح بعيدة لكي يبكي، لكي يسألها الصفـح في صمت. ولكي يصفح هو نفسه عن «مالكوس».

بعد ذلك بشهر علم «ماني» من الشائعات في بستـان النخيل أن «مـالكوس» قد تزوج ابنة «اليوناني» وأنهما ذهبا معاً إلى (المدائن).

- ٦ -

كـان على «مـاني» أن يصبر ويصـابر، أن يصـبر طويـلاً، بعد انقضـاء أعوام مراهقته بكثير. وبحسب الحديث الذي حفظته كتابات التلاميذ فإنـه لم يتلقَّ إلاّ في الرابعة والعشرين، «من شفتيْ تَوْأمه»، الكلمات التي طالما أمـل في سماعهـا: «ها قد أزفت الساعة لكي تتجلّى لعيون العالم. وتترك بستان النخيل هذا».

وإذا كـان قد تلبّث عـلى هذا النحـو بقرب «أصحـاب الملابس البيضـاء» في حين كان يرفض ممارساتهم ومعتقداتهم ويتألّم كل يوم لاضطراره إلى مخـالطتهم، فربما لأن رغبته في الرحيل كانت مصحـوبة بخشيـة يستحيل البَـوْح بها. وكيف كان في وسعه، هو الذي عاش فتوّته بأسرها في عالم الطائفة المُغْلَق، عالم القمع والحماية الذي يشيخُ فيه المرء ويخشن طبعه من غير أن ينضج حقّاً، العالم الهزيل الحذِر المنطوي على وساوسه، الجاهـل في نهاية المـطاف لكل مـا يمكن أن يحدث خلف جدار سياجه الصغير، كيف كان في وسعه أن ينظر بخفّة إلى المواجهة مع الدنيا؟.

لقد ترك إذن الأيام والأسابيع المتشابهـة كلّها، الكئيبـة كلّها، الثقيلة كلّهـا، تركها تمضي. حتى كان ذلك الصباح من نيسان (ابريل)، صبـاح الخلاص ذاك الذي بدأ بذهابه بعد الاستيقاظ من النوم لغسل وجهه في ميـاه ترعـة «دجلة».

وقد لبث هناك دقائق طويلة منحنياً بلا حراك، بعد انقضاء وقت على عودة جميع «الإخوة». ثم إنه نظر، وهو يعتدل على مهل، إلى البعيد بشغف. وكانت الشمس محجوبة بعض الشيء، والهواء دافئاً ومتراخياً، وكان سعف النخيل يترجّح بكآبة ترجُّحَ أجنحة ضخمة مأسورة. وبغتة بدا له زمن حياته نفيساً.

كان قراره قد قرّ: سوف يرحل قبل المساء!.

كان «ماني» يردّد في نفسه قائلاً: «الرحيل عيد، وربما هو العيد الوحيد بألف شكل وألف ثوب من القماش الجَعْد أو من خيوط البلّوط. وإذ كان الناس رهائن الأفق فهل احتفلوا يوماً بغير ذلك؟».

لم يختر لرحيله من «بستان النخيل» التظاهر ولا الفرار، وإنما التبختر والمواجهة العريضة، وإنما الاحتفال: التعرّي قبل كل شيء، والقيام على مهل بسلخ هذا الجلد الآخر الأبيض الذي يغلّفه ويخنق أنفاسه منذ عشرين عاماً، سلخه عن جِلده، والتنفُّس في العُري، والنظر بازدراء إلى ثوبه الرثّ المنشور على الأرض مصروعاً مُفَرَّغاً من كل سَمْك الحياة.

ثم الانبعاث بالألوان: «كان «ماني» يلبس سراويل فضفاضة بساقينْ مصبوغتين بالأصفر المحاكي لون الصدأ والأخضر المحاكي لون الكرّاث»، هذا ما نقله خبر مدوَّن مُغرِق في القِدم. وكان على كتفيه قِباء أزرق سماوي، وكان قميصه، على الرغم من بياض لونه، مرصَّعاً بأزهار رسمها الرسام بنفسه في مواسم انتظاره الكئيبة وهو يحلم، كما يُطرِّز جهاز العروس. ومع ذلك فإن تلاميذ «ماني» سوف يُؤْثرون وهم يذكرون فيما بعدُ يوم القطيعة ذاك أن يتحدّثوا عن «مَوْلِد»، حتى إنهم لَيَنْسَوْنَ «مريم» و(ماردين) وأقمطة «أوتاكيم» المشدودة. ولسوف يقولون: لا، لم يكن مولداً الانتقالُ من أحشاء امرأة إلى أحشاء جماعة، لم يكن سوى حَمْل لم ينجح، وقد توجَّب شيء آخر، عشرون عاماً من السفر حول الذات. وبالصبر تُدْرَك زلزلة العالم.

حين انتهى «ماني» من التهندم في ذلك اليوم ومَثَل أمام «أصحاب الملابس البيضاء» المجتمعين تحت قبّة «البيت المقدَّس» الواطئة، كانت نظرته مستقيمة وفي يده عصاً وقد تأبّط كتاباً. وكان يُستشَفّ الاطمئنان في خطوه، غير أن زغب لحيته القليل كان لا يزال يكشف عن بعض الهشاشة.

كان آخر من دخل. وعلى الرغم من أن الصلاة كانت قد بدأت فقد أحدث ظهوره بعض الهمهمات. ولقد استدارت الأكتاف البيضاء، وإنْ حدث أنْ ظل أحد «الإخوة» خاشعاً فإنّ جاره كان يهزّه ليُريه، بذقنه أو بمِرفقه، المتجرِّئ الذي لا يُسمَّى. وحده الكاهن «سيتايي» تظاهر بمتابعة قدّاسه. إلا أن الترتيلة الأخيرة العارمة في العادة استُبعدت بنغميْن متسرِّعيْن ثم خرج المريدون القهقرى مطأطئي الرؤوس متجنِّبين المرور بالجناح المركزيّ الذي كان ينتصب في وسطه «ماني» مُستفِزّاً بالألوان. وقد لجأوا في انسحابهم إلى التمسُّح بجدران الأروقة الجانبية وكأنهم أسرى بلا مجاذيف في سفينة، أو صيادون بلا شِباك.

وإذ أصبحوا خارجاً فقد تجمّعوا قرب الباب وأغرقوا في كيل اللعنات للمستفِزّ واستنكار زيّه وجنونه المباغت وتجديفه المجرم. وعندما خاطر «ماني» في نهاية الأمر بالخروج بعد ساعة تعالتْ جَلَبة في صفوفهم. وفيما كانت بعض الأيدي تمتدّ للقبض عليه، للأخذ بثيابه المبرقشة، لتغريمه ثمن استفزازه، تدخّل «باتيغ» وكأنّه تذكّر فجأة أنه أبٌ وأن عليه واجبات، وجرّ ولده بحزم من ذراعه وقاده إلى حافّة الترعة حيث لا يستطيع «الإخوة» التربّص بهما.

وأسلس «ماني» قِياده من غير أن يفقد شيئاً من دَعَتِه ولا من روعته، وكان «باتيغ» على الأخص هو الذي يبدو قلقاً حائراً على الرّغم من تمكّن المرء إذا ما تفرّس في سحنته عن كَثَب من اكتشاف سعادة مكتومة: السعادة بأن يجد نفسه للمرّة الأولى في حياته وهو يحمي ابنه، وهو ينقذه من المهالك. والحقّ أنه، بعد سنوات من البعاد واللامبالاة الجليّة، كانت قد نشأت بينهما صداقة خفيّة غداة رحيل «مالكوس». بيد أن الفرصة لم تسنح قطّ لِـ«باتيغ» لمثل هذه الأُلفة، لأنْ

يأخذ بذراع «ماني» ويبتعد به عن «الجماعة» ليعِظه موعـظةَ الأب الحقيقي الذي كانه: .

ـ أية فكرة مضحكـة أمكن أن تـدور في خلدك وتحملك عـلى ارتـداء هـذه الملابس التنكُّريّة!.

وأجاب الابن: .

ـ إن أُذُنيَّ تخونانني بالتأكيـد، أفيكون أحـد «أصحاب المـلابس البيضاء» هـو من يسعى إلى تعليمي كيف أتزيّا للرحيل إلى العالم؟.

كان «پاتيغ» ينتظر جواباً أكثر خضوعاً.

ـ لماذا تتكلّم بهذه اللهجة وكأنك محاط بـالأعداء؟ ليس لـك هنا إلّا إخـوة. تعـال، اتبعني، سنذهب لمقـابة «مـار سيتايي». إنـك لتعلم تقديـره لك، وإني لواثق من أنه سيبدو مستعدّاً لنسيان هذه الحادثة البلهاء.

ـ لا أريده أن ينساها. أريد أن يحتفظ بها إلى الأبد أمام ناظـريه، وأن يـظلّ يرى في أكاذيبه بعد عشرين سنة «ماني» بثياب ملوَّنة.

ـ اصْـحُ يا «مـاني» ثُبْ إلى رشدك، ليس الـوقت وقت بطولات صبيـانيـة، لسـوف يجتمع مَجْمَـع القدامى لـلأمر بـطردك. ربما كنتُ لا أزال أملك الـوقت الكافي لمحادثتهم، لتهدئة سُخطهم.

ـ إني أرغب في الرحيل، والمَجْمـعُ يريـد أن أرحل، فلماذا أخشى المـواجهة؟ إنهم لا يفعلون، هم الذين يظنّون أنهم يعاقبونني، غير الإسراع في تخليصي.

ـ الـرحيل، الـرحيل، ليس عـلى شفتيك إلا هـذه الكلمـة، ولكن إلى أين ترحل؟ لقد عشت على الدوام بين هـذه «الجماعـة». وما إن تخـرج من هنا حتى تضيع. وما هي إلا أن تُلْتَقَط على حافّة طريق وكأنك صرّة مفكوكة.

ـ تـريد أن تقـول لي إن في بستان النخيـل البائس هـذا متّسعاً لي وأن العـالم الواسع سيضيق بي؟

ـ ما زلت تجد هنا أناساً يُصغون إليك ويُناقشـونك، إننـا أُسرتك الـوحيدة، وأنا الذي يكلّمك، إنك من لحمي ودمي. أتجهل ذلك؟.

هذه الكلمات التي لم يسبق أن قالها «پاتيغ»، أطلقها لافتقاره إلى الحُجّة عـلى أمل إفحام «ماني». الذي أخذ في الواقع يضطرب. فلقد فرغت نـظرته وغـاب عن الـوجدان. وأخـذ قلبه يقـرع صدغيْـه. وإنه لخـائف من أن يتهالـك ويده تبحث عن جدار تستند إليه فيمدّ إليه «پاتيغ» راحة مبسـوطة وكـأنها تسعى لأن تتلقّفه، بيد أن الابن ما إن لمسها وشعر بلزاجتها الخشنـة حتى تراجـع وانتصب قائلاً بصوت لا نبرة فيه:

ـ لقد تأخّر الوقت كثيراً الآن لكي يكون أحد من الناس والدي.

لم يكن أي منهما قد سمح لنفسه حتى الآن بـالتذكـير، ولو تلميحـاً، برابـطة الدم التي تجمعهما؛ واكتفى كـل منهما بـأن يعرف أن الآخـر يعرف، وقـد حفظ هذا التواطؤ الصامت لأحاديثهما المتبادلـة تأثُـراً لم يكن قد شُرِع بـه. وعليه فقد جـاءت الكلمات التي تلفّظ بها «پـاتيغ» لا لكي تفضـح وحسبُ عُـرفـاً ضمنيـاً وحكيماً، بل لكي تتّخذ ـ وقد قيلت في مثـل هذه الـظروف وبمثل هـذه الأفكار المسبّقـة ـ في مسمع «مـاني» صورة شيء عِـدائي وبذيء. وكـان عليه أن يلتقط أنفاسه بعناء قبل أن يضيـف بنبرة أرادها حاسمة:

ـ لقـد كُتب منذ الأزل أن تكون السبيـل التي أُقبـل عليهـا للحلول في هـذ الجسد. بيد أنك لن تكون حجر عثرة في طريقي.

كان قدامى «الجماعة» مجتمعين في قاعة المَجْمَع المحاذية لِـ «البيت المقـدّس». وكـان هناك «سيتـابي» مترئّسـاً وابن أخيه «غـارا» و«أخ» من (الرُّهـا) وآخر من (فراة) وثالث من (قشقر). كان مجموعهم خمسة قضاة جالسـين بعرض الـطاولة الضخمة، وقبالتهم كان المتّهم واقفاً ولا أثر في وجهه لأي انفعال.

كانت الكلمة الأولى من حقّ «سيتابي».

ـ لسنا مجتمعين لمعاقبتك يا «ماني» بل لدعوتك إلى التوبة. لقد لبست خلال عشرين عاماً بياض النقاء والتواضع، وهـا أنت ذا تستعيد ألوان التكبُّر. عشت بيننا مثل نعجة وديعة، مثل خطيبة حيِّية ومحتشمة، واحتفظت بجسدك طاهراً، ولم تضع في فمك غير الأطعمة الطاهرة، فبأي جنون تريد أن تخسر اليومَ مربح مثل هذه الرحمة؟.

بدا «ماني» وكأنه يثبّت نظره على نقطة مجهولـة من الجدار الـذي فوق رؤوس المُحاكمين.

ـ سواء كانت الأطعمـة طاهـرة أو دنسة فـإن مآلهـا إلى الفضلات، أفيكـون هناك في رأيكم فضلات طاهرة وأخرى دنسة؟.

ـ لقد دعوناك للإصغاء إليك برحمة. فلماذا تبدو بهذا القـدر من الازدراء منذ لكلمة الأولى؟.

ـ لا يعتلج في صدري أي غِـلّ، غـير أنكم تـدّعـون أنّكم أعشتمـوني في الطهر، وأنا أجيبكم بأن هذا الطهر الذي تبشّرون به لا يساوي شيئاً. تزعمون أن الثمار التي تخرج من أرض «الجـماعة» ثمـارٌ «ذكور» وطـاهرة، أليس هـذا ما تقـولـون؟ لمـاذا إذن تبيعـونها في الخـارج للقـرويـين الكَفَـرة الـذين يـطحنـونها بأضراسهم الدنسة؟.

ـ إلى أين تريد أن تصل؟.

ـ الحديث عن أطعمة طاهرة ودنسة محض خرافة؛ ومحض خرافة الكلام على أناس طاهرين أو مدنّسين، ففي كل شيء، وفي كل شخص منا يتجاور «النور» و«الظُّلُمات».

ـ ولأجل الاحتجاج على فرضنا الطهارة خلعت ثيابك البيضاء؟.

ـ لا. لقد تزيّيت بهذا الزيّ لأني مزمع على الرحيل.

تقدّم من الباب خطوة. وناداه «سيتابي».

ـ كل ما فعلته هو أنك عرضت علينا أفكارك، لكننا لم نناقشك فيها بعدُ، ولا تداولناها فيما بيننا، وها أنت ذا تنصرف.

الحقّ أن «ماني» كان هو الذي يُظهر القدر الأكبر من العدوانية في هذه المواجهة. ولسوف يغفر لِـ «سيتايي» فيما بعدُ أن انتزعه من أمّه وصادره عشرين عاماً وأرهبه. وسيتحدّث بلا حقد فيما بعدُ عن معلّم الطائفة وعن الانبهار المتبادل الذي كان قد نشأ بينهما. ومع ذلك فقد كان من الواجب في هذه الساعة أن يُحسِن القطيعة وإنقاذ نفسه والفرار. أن يُحسِن الرحيل.

ـ لست أرحل بسبب بعض الخلاف معكم، وإنما لأني أحمل رسالة عليّ تبليغها إلى العالم.

ـ وما هي يا تُرى هذه الرسالة؟.

ـ ليس عليّ أن أبلّغها في هذا المكان. سوف تسمعون صيحتي عندما يُرجّع العالم إليكم صداها.

ـ لستَ منصفاً. إننا مجتمعون للاستماع إليك وتريد أن تذهب من غير أن توضح؟ عندما يعثر الفلّاح على بذرة جديدة فإنه يجرّبها أولاً في قطعة صغيرة من الأرض؛ وإذا نبتت استطاع أن يسمح لنفسه بزرعها في جميع حقوله. اشرح لنا رسالتك ونقول لك رأينا فيها ونساعدك على تمييز الحقّ من الباطل.

ـ الحقّ حقّ والباطل باطل، ولا تهمّ كثيراً آراؤكم أو آرائي.

غدا صوت «سيتايي» أشدّ حزماً من غير أن يبدو معادياً مع ذلك.

ـ ليست القضية قضية آراء وحسب، إننا خمسة قدامى مخلصون للكتب ولسُنّتنا، وقد شاهدناك تكبر وعلّمناك كل ما تعلم، وليس في وسعك التمادي في الغرور إلى حدّ الزعم بأن رأيك وحدك أهمّ من رأينا!.

ـ أنت نفسك علّمتني هذا يا «سيتايي»: لا كبير مع الحقيقة. هناك في أربعة

أقطار العالم جماهير من الناس تتعهّد أشدّ الخرافات عبثاً، فهل يضيف عددهم الكبير أية قيمة إلى معتقداتهم؟.

ـ ولكن الإخوة الذين تقف أمامهم ليسوا السواد الأعظم، إنهم أكثر الناس فقهاً وأوسعهم علماً!.

ـ إنه لا يُقترع على قوانين الكون في مجامع العلماء. إن هذه القوانين هي ما هي، فأي شيء تستطيع آراؤكم أن تغيّر فيها؟.

ـ تبدو واثقاً جدّاً بنفسك.

ـ لست واثقاً إلاّ بالرسالة التي أُوحِيَ إليّ بها.

ـ يجب أن يُعرف فوق هذا إن كانت تلك الرسالة قد وصلت إليك من الله أم من الشيطان. ولِمَ تكون السماء قد اختارتك، هل تساءلتَ قطّ عن ذلك؟ أتكون الأقدس والأتقى والأفضل؟.

ـ أنا لا أسألها عن مقاصدها. وقد أكون مُصطفاها.

كاد صبر «سيتابي» ينفد، بيد أنه جهد بعدُ في السيطرة على نفسه.

ـ لنفرض أن الله تعالى قد اختارك حقّاً يا «ماني». لقد شاء إذن أن يميّز «بستان النخيل» هذا، ألا تظّن ذلك؟ فإذا كنت قدّيساً ومباركاً فإن الشجرة التي حملتك مباركة سواء بسواء.

ـ ماذا فُعل عند ولادتي بالماء القذِر الذي سبحت فيه تسعة أشهر؟ لقد رُمي به. وبستان النخيل هذا هو الماء الذي سبحت فيه طفولتي ومراهقتي.

لقد طفح الكيل. ودّ «سيتابي» ـ غير مصدِّق ـ أن يطلب إلى الوقح إعادة العبارة التي تلفّظ بها لتوّه، ولكن ابن أخيه «غارا» كان قد قفز من مكانه وهو يصرخ «زنديق!» وكأنما كانت هذه الكلمة إشارة انفتح بعدها بلحظة الباب ودخل جحفل من «أصحاب الملابس البيضاء» القاعة وهم يلعنون وهجموا رأساً على «ماني» يرجمونه بالوحل ويحاولون تعريته من ملابسه الملوّنة.

وتدخَّل «سيتايي»: .

- كل مَنْ يكون على أقل من ثلاث خطوات منه سوف يُحرَم على الفور! .

وتوقّفت الضربات. بيد أنه حين تجرّأ «ماني»، وكان طريح الأرض، على رفع رأسه انطلقت رشقة من الوحل لتتحطّم على جبينه قبل أن تتدحرج على امتداد حاجبيه ثم على سائر وجهه. وتهالك من جديد. وبعد لأيٍ تمكّن «باتيغ» من إنهاضه وانتزاعه من الجحفل.

عندئذٍ استعاد «ماني» ابتسامته وهو غارق في دموعه. كيف استطاع تُرى أن يبدو مندهشاً من أن تكون معاملته قد أُسيئت؟ أيكون قد ظنّ أنهم سوف يمجّدون من انتهك شريعتهم؟ الحقّ أنه هو الذي كان يدعو للرثاء. فما هي إلا صفعة، وما هي إلا رشقة وحل، وها هو ذا يفقد كل وقار ويجد نفسه باكياً مثل طفل بين ذراعيْ أبيه! .

ومسح وجهه بحركة متمهِّلة من مقلب رُدنه، وانتصب ورفع غطاء الصندوق الخشبي الخام الذي كان قد رتّب فيه متاعه وسحب منه لوحه وفراشيه للفّها في منديل من الكتّان ربطه حول قامته.

ثم نهض. غير أنه بقي مدّة طويلة مترجِّح الذراعين عاجزاً عن وضع إحدى قدميه أمام الأخرى. وكأنّه كان ينتظر من صوته الداخلي تأكيداً أخيراً: .

«أجل يا «ماني» يا ابن (بابل)، إنك وحدك، خالي الوفاض، منبوذ من ذويك، وأنت راحل لغزو الكون. وبهذا تُعرف البدايات الحقيقية».

القسم الثاني

من «دجلة» إلى «السند»

لقد وصل أملي إلى شرق العالم

وإلى كل مكان من المسكونة

«ماني»

- ١ -

كـانت مغادرتـه بستان النخيـل الخاص بـ «أصحـاب الملابس البيضـاء» إلى الأبـد في شهر نيســان (ابريـل) من عام ٢٤٠. وكـانت صفحـة من قصتـه قـد طُويت: لقد عـاش حتى ذلك الحـين مقيماً ومتخفّيـاً؛ ولسوف يعيش بعـد الآن على الطرق.

وكانت محطته الأولى (المدائن). وكانت المدينة الكبرى في وادي «دجلة» عنـد ولادة «ماني» مقرّ الملوك «البارتيين»، وإذا كانت إمبراطـوريتهم قد دالت بعـدئذٍ على يد الفرس «الساسانيين» فإن سادة البلاد الجدد استقرّوا في العاصمـة نفسها فاحتفظت بذلك بهالتها وازدهارها.

لقد امّحى اسم (المدائن) اليوم. ومع ذلك فقد كـانت إحدى عـواصم العالم القديم الكبرى ومهد المانوية ومـوطناً سـامياً كـذلك للمسيحيـة الشرقية. وغـير بعيد من الموضع الذي سيأتي العرب بعد خمسة قرون لإنشاء مدينة «بغـداد» فيه فإنّه لا يزال في الوسع مشاهدة آثار القصر الذي حقّق فيه «ماني» أشهر فتوحه.

لكنّ الأحوال لم تكن كذلك غداة رحيله من بستـان النخيل. فـابن (بابـل) كان في ذلك الوقت يملك روح فاتح، غير أن مظهره كان غير ذلك، كان مظهر راهب هائم يرتدي ملابس عجيبة الألوان.

وإذا كان قد رحل ماشياً ورأسه ملفوف بمنديل واقٍ فقد كـان ينبغي أن يبلغ المدينة في أربعة أيام أو خمسة. إلا أن فيضانـاً حدث في «دجلة» فحـطّم الجسور وأغـرق الطرق فـطال أمَد الـرحلة. ولم يبلغ المدينـة إلاّ في اليـوم العـاشر عنـد غروب الشمس ليضيع على الفور في الـزحام اليـومي. فقد كـان من عادة أغنى سكان (المدائن) أن يقتنوا عدداً من البهائم، مطايـا وقطعـاناً كثيفـة كان الـرعاة العبيـد يقودونها كـل صباح لـترعى خـارج الأسـوار بـاتّجـاه مـراعي (نصـير) أو (ماهوزيـه) ويعودون بهـا في المساء سـادّين أبواب المـدينة بسحـابة من الصـوف وعصيّ الرعاة والروائح.

وكان على ابن (بابل)، كما على كثير غيره من المسـافرين، أن يقتفي أثـرهم مُدافَعاً وساعلاً سُعالاً خفيفاً وقد أطاشه صخبُ ألصقُ بالمُدُن لأن الشوارع التي تفـتر ظهراً كـانت تعـود إلى الانتعـاش عنـد اقـتراب الغسق والشمسُ تميـل إلى الغروب. وكان الكَتَبة والحمّالون والجنود والجمّالون يستأنفون تدافعهم إلى العمل بعد القيلولة ثم ينضمّ إلى الزحام عدد من المتنزِّهين كان يزداد في كل ساعة على طول الضفاف حيث تنتظرهم مراكب التجّـار المتجوِّلـين عارضـة عليهم الحُصُر والـطواقي وبعض الأشياء النفيسـة. وكانت قـطع النقود تتسـاقط قبضـاتٍ من كيس إلى آخر محدثة جلبة. هكـذا كانت (المـدائن). ولم تكن تُقْصَد للتنـزّه من أجل هوائها المنعِش، بل للتبختر وعرض الأطفـال المكتنزين والخـدم، ولا سيما الـزوجـات اللواتي يفضّـل أن يكنّ بيضـاوات بلون اللبن وممتلئـات ومُثْقَـلات بـالعقود عـلى النحور وبـالأساور مـرصوصـات مثنى أو رُباع إلى المِـرفق. وكـان النـاس في هذه المـدينة يحملون معهم كـلّ ما يملكـون وكلّ مـا هم أو يزعمـون أنّهم. وإذا حدث أحيانـاً أن أُلقي بأحـد هذه الأسـاور إلى متسوِّل متهـالك إلى جدار معبد فإنما لأجل توسيع عيون الناس من فرط الدهشة.

وعندما كانت السماء تزداد قتامـاً وينتهي أمَد النـزهة كـان القوم يعـودون إلى منازلهم مع البهائم والناس للأكل والشرب، إذ لم تكن الحانات إلا للمسـافرين وبعض الأشقياء. فكل بلديّ يحـترم نفسه كـان يسكر في الـواقع داخـل منزلـه مستلقياً، مستلقياً على الدوام للشراب يحيط به أشخاص أعزّاء أو رائقون. وهنا

أيضاً ينبغي أن يُحسِن المرء الاستعراض وإثبات أنه يملك الوسائل لسُكره فيقدّم الخمر في الدِّنان المتفخة إلى الأصدقاء والجيران والزبائن، ويسكر حتى يفقد كلّ إحساس. أفليس على هذا النحو يسلك ملك الملوك؟ أفلم يكن له بالإضافة إلى متذوّقي شرابه وندمانه كاتب متخصّص في أمور السُّكْر يرصد سجلاً بكل ما يصدره العاهل في سُكره العارم من قرارات لكي يذكّره بها عند صحوه فيتمكّن من إصلاح الأمور؟ فلو كان خمره البارحة سخيّاً وأبطل مفعول الضرائب لأربع سنوات فإنه ينبغي أن يتمكّن من استعادتها؛ ولو كان خمره غضوباً وجرّد رئيس الكهنة من وظيفته لأن ذنبه أنه رفض أن يرقص فإنه ينبغي أن يتمكّن من ردّه إليها.

(المدائن). السُّكْر منظّماً، والعظمة الموسوَس بها. (المدائن) وريثة (بابل) ومنافسة (روما)، لسوف ينام «ماني» في تلك الليلة داخل أسوارها.

لكنّ عليه أولاً لكي يكون للمدينة وجه أن يعثر على الصديق. وسأل «ماني» مارّاً بدا أنه كان أقلّ تعجّلاً من الآخرين. هل يعرف بالمصادفة تاجراً صُوريّاً اسمه «مالكوس»؟ «مالكوس»، ردّد الرجل مبالغاً في تضييق عينيه؟ إنهم حقاً عشرة أو اثنا عشر بهذا الاسم. إن امرأته يونانية، هذا ما تقوله.

على هذه الشاكلة وصل «ماني» إلى حي معبد «نَبو»، غير بعيد من ساحة «الحَدَبات»، أمام منزل من طبقتين مشرق بالطلاء الكلسي الجديد خلف أجمة نخيل. وقاد البوّاب الزائر إلى سيّده الذي فتح ذراعيه على مداهما وقد ظهر عند طرف الممشى.

قال «مالكوس» بتواضع وقد بدا شبعان رخيّاً مشرقاً بكل جوارحه:

ـ ليس هذا هو القصر الذي وعدتُ به، غير أنني قد ابتنيت هذا الكوخ القذر.

وهرعت «كْلُوويه» غير مصدِّقة. وكانت قليلاً ما تغيّرت. ولولا الطفلة

المتفخة الخدّين التي كانت تحملها إلى ردفٍ متعوِّد على حملها لكانت نفسَ الصبيّة الفكِهة المتمرِّدة التي كان «ماني» قد احتفظ لها بأرقّ عاطفة، وقد نمّ شعرها الفاتح اللون عن الفوضى عينها. وكان في الوسع اكتشاف فرحة غير مصطنعة في النظرة التي تبادلاها؛ وبقية أسف ولا ريب. وأما الغموض والتلبيس فما كان لها قطّ من أثر. قالت: .

ـ هذا الثوب.

ـ أجل، لقد هجرت «أصحاب الملابس البيضاء».

ـ إلى الأبد؟.

ـ بل إلى أبعد.

تقدّم منها خطوة ولامس بيد مضطربة خدّي الطفلة، وكان عمرها يكاد يناهز عامين، فتركت الزائر المجهول يُلاطفها، بل أنعمت عليه بابتسامة قبل أن تتشبّث خجلةً بملابس أمّها.

قال «مالكوس»: .

ـ أهلاً بك هنا، فهذا البيت بيتك، وأنت تعرف ذلك.

ـ إذا كان هناك من بيت في الدنيا يمكن أن يكون بيتي فسيكون هذا. بيد أني لن أكون سوى عابر سبيل.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟.

هذا الأمر ما زلت أجهله. وبانتظار ما سيكون فهل تمنحني المأوى لهذه الليلة؟.

ـ هذه الليلة، والليلة القادمة، وكل ليالي حياتي.

ـ من أجل غدٍ أطلب إليك ذلك غداً.

لقد ودّ «مالكوس» لو يحتجّ، بيد أنه عرف لدى صديقه تلك النبرة البعيدة

المتقطّعة بغتة وكأنّها صادرة عن مُرَوْبص. وما كان الإلحاح ليُجدي. والأفضل تغيير الموضوع.

ـ غداً آخذك لرؤية مُحْتَرَفاتي ومستودعاتي، ثم القصر، وحلبة السباق الجديدة...

إلا أن صديقه قاطعه متناولاً يده بيده في حركة اعتذار.

ـ لا يا «مالكوس» فأنا بحاجة على الأخصّ إلى التسكّع في هذه المدينة كيفما اتّفق. لقد آن الأوان لكي أرى كيف يعيش العالم.

فيما كان «مالكوس» عائداً إلى منزله في اليوم التالي للغداء والنوم، وكان يقود بغلته كالمعتاد في طريق مختصَر عبر بستان مشاع، وهو نوع من كرْم مهجور، رأى «ماني» جالساً فوق حجر وسط جمْع صغير من الناس. وإذ اقترب فقد لاحظ فوق رُكبتيْ صديقه كتاباً مفتوحاً بدا أنه كان يرسم فيه شيئاً في الوقت الذي يتحدّث فيه إلى الأشخاص الذين يحيطون به. وهمّ «الصُّورِيّ» بالترجّلِ عندما تعرّف على الرؤوس الخمسة أو الستة التي كانت متجمّعة حول الرسّام فعَدَل واستأنف طريقه ناظراً إلى مكان آخر.

وفي بيته جلس إلى المائدة من غير أن ينبس بكلمة. وسألته «كْلُوويه» بنبرة عتاب: .

ـ ألا تريد انتظار «ماني»؟.

ـ سيأكل عندما يأتي. إني جائع.

كان «مالكوس» يبدو عندما يتّخذ سحنته الحرِدة أكثر بدانة من المألوف، وكانت لحيته المستديرة تتشعّث.

واستنتجت: .

ـ مشكلات جديدة أيضاً مع أصحاب القوافل...

غير أن زوجها كان صامتاً يلتهم خبزه كرُيّة بعد كرُيّة وهو ينظر إلى أصابعه.

ولم تلحّ «كْلُوويه» واستمرّت متشاغلة حوله.

لم يَقِل بعد تناول الفاكهة بل ذهب يجلس فوق وسادة وهو يُسبّح بسبحته المُتّخَذة من العنبر. وبعد ساعة وصل «ماني». ولم يرفع «مالكوس» عينيه.

ـ رأيتك وأنا أجتاز الحديقة. . . كنتَ غارقاً في الحديث مع بعض الناس. . . هل تعرفهم؟.

ـ لا. كنت أرسم نقشاً زَهْرِيّاً بالحبر الأحمر فأقبلوا عليّ وتحدّثت إليهم.

ـ من غير أن تعرفهم؟.

ـ لا أعرف خارج بيتك أحداً في هذه المدينة.

ـ سأقول لك من هم أولئك الناس: متعطّلون، تافهون، مخبّلون، سكّيرون، كل الذين ليس لهم ما يشغلهم في الصباح سوى التسكّع في الأراضي البور. . . أنتَ لا تقول شيئاً! لا تأبه بأن يكون من يستمعون إليك أخسّ أشقياء الحيّ!.

ظلّ «ماني»صامتاً. بيد أنه كان في تمرّد هذا الصبيّ ذي الأربعة والعشرين عاماً، هذا الصبيّ الكبير الملتحي والمبرقَش، من البراءة ما دفع بـ «مالكوس» إلى عدم الإصرار. وارتخت ذراعاه، وانطبقت عيناه نصف انطباقة، وذهب يَقيل قيلولته التي أُخّرت بلا جدوى.

تحاشى «الصُّوريّ» في الأيام التالية المرور بالحديقة. وفضّل أن يُرغم نفسه على التفافة كبيرة على أن ترى عيناه مجدّداً مخالطات «ماني» الدنيئة. أفيكون قد سلك بعد أسبوع طريقه القديمة بدافع الفضول أم الكَلال أم لمجرّد السهو؟ وكان المشهد هذه المرة مختلفاً. فقد كان يحيط بالرسّام أكثر من خمسة عشر شخصاً بينهم اثنان أو ثلاثة من متسكّعي اليوم الأول، ولكنّ فيهم أيضاً أناساً من جميع الطبقات منهم جارٌ، «صُوريّ» مثل «مالكوس»، غنيّ ومحترم. وكان ابن (بابل) جالساً كعادته على ساقه اليسرى مطويّةً تحته وكتابه مفتوح أمامه،

بيد أنه كان قد توقّف عن الرسم ووضع فرشاته خلف أُذُنه. وترجّل صديقه ودنا لسماعه متوارياً بالإجمال خلف سَرْوَةٍ فتيّة. وإذ لم يبدُ على «ماني» أنه لاحظ وجوده فقد تابع خطابه:

. . . . في بدء الكون وُجد عالمان منفصلان الواحد عن الآخر: عالم «النور» وعالم «الظُلُمات». وفي «حدائق النور» كانت جميع الأشياء المشتهاة، وفي الظُلُمات كانت تقيم الشهوة، شهوة عارمة ملحّة هدّارة. وبغتة حدثت صدمة عند حدود العالمين، أعنف صدمة عرفها الكون وأشدُّها هَوْلاً. وعندئذٍ اختلطت جُزيئات «النور» بـ «الظُلُمات» بألف شكل مختلف، وهكذا ظهرت جميع المخلوقات، الأجرام السماوية والمياه، والطبيعة والإنسان. . .

توقّف كلامه وكأنه يسعى إلى التنفُّس. ثم انساب من جديد.

- في كل كائن وفي كل شيء على السواء تتعايش «الظلمات» و«النور» وتتشابك. فلُبّ الثمرة التي تخضمونها يُغذّي جسدكم، بيد أن مذاقها الطيّب وعطرها ولونها تغذّي نفسكم. و«النور» الكائن فيكم يتغذّى بالجمال والمعرفة ففكّروا بتغذيته من غير انقطاع، ولا تكتفوا بإتخام الجسد. وحواسّكم منذورة لتلقفُّ الجمال ولمسه واستنشاقه وتذوّقه والإصغاء إليه وتأمّله. أجَل أيها الإخوة، إن حواسّكم الخمس مصافي «نور». فقدّموا إليها العطور والأنغام والألوان. وجنّبوها النتن والصرخات الجشّاء والقذارة.

وإذ كان مستمعوه ينتظرون التتمّة فقد نهض «ماني» متوكّئاً على العصا التي كان يمسك بها على الدوام، وأفسح له الجميع الطريق باحترام وهم لا يزالون متعلّقين بوجهه، وجهِ المراهق المرِح الضامر. ثم تبعوه مفتونين صامتين وكأنّ خيوطاً دقيقة تربطهم به.

لقد اطمأنّ «مالكوس» ولا ريب بشأن مخالطات صديقه، غير أن ذلك لم يبدّد مخاوفه. فبالأمس خشي أن يرى حارساً متفانياً يخلط بينه وبين أوباش الحيّ، واليوم يخشى أن يراه مُعْتَقلاً لأسباب أوْجَعَ وأَخْطَرَ. فلا يمكن أن يجمع

المرء كل يوم في شوارع (المدائن) عشرات البلديين، وقد يصبحون قريباً مئات، من غير أن يُظَنّ به التدبير لمؤامرة. والذي سمعه للتوّ من فم صديقه لا يحتوي بالتأكيد على أيّة كلمة تدلّ على العصيان. بيد أن «مالكوس» كان متخوّفاً. فهو يعرف «ماني» حقّ المعرفة لكي يُخمّن أن تعليمه لم يكن إلا في بدايته، ويستشعر أنه لن يتوقّف إلى الأبد عند ملاحظات حالمة عن بدايات الكون. وسوف يلفظ صديقه ذات يوم قد يكون قريباً الجملةَ الفائضة التي تُحْدِث ما يتعذّر إصلاحه. وبقدر ما كان «الصُوريّ» يُجيل الأمر في ذهنه كان الخطر يبدو له أوضح وأقرب. بل لقد رأى نفسَه ملقىً في زنزانة بتهمة التواطؤ، وتجارتَه مُفلسةً، وجميعَ مطامحه متلاشيةً، وامرأتَه مرغمةً على التسوُّل...

قال له فجأة:.

ـ أريد أن أتحدّث إليك يا «ماني».

لم تكن النبرة جافية، بل سعت فقط إلى أن تكون جادّة وصريحة. وابتدأ ابن (بابل) بالابتسام.

ـ هيّا افرد حاجبيك، إن هذه السحنة المتجهّمة لا تتلاءم جيداً ووجهك الممتلئ. ولكن تكلّمْ، قل لي ما يُثْقِل قلبك...

ـ لقد عشنا أنا وأنتَ صِبانا كلّه في بستان النخيل ذاك، بمعزل عن العالم، عن أفراحه وأتراحه، وعشتَ أنتَ، أكثر ممّا عشتُ أنا، في كتبك، وليس من يعرف خيراً منك الطبّ وعلوم الدين، وإني لمعجب بعلمك وموهبتك واندفاعك، وإنّ رجالاً مثلك ليتركون آثاراً على الأرض التي وَطأوها وفي قلب المقرَّبين. بيد أن هناك أحمالاً من الأشياء التي تفوتك ويدركها أشدّ الناس خشونة خيراً ممّا تدركها، فهل أنت مستعدّ للقبول بها؟

وافق «ماني» فآنس صديقه في نفسه الشجاعة على المتابعة.

ـ يبدو لي أوّلاً أنك نسيت أن سيّد (المدائن) وهذه الإمبراطورية بأسرها هو «أردشير الساسانيّ»، ملك الملوك. وأصرّ على تذكيرك باسمه واسم سُلالته وبأنّه

وطّد حكمه بإزالة إمبراطورية «البارتيين» عن سطح الأرض وبقتل «أرطبان» آخر ملوكهم. وأكرّر عليك، إذا لم تكن قد فهمت، أنّ «الساسانيين» وطّدوا ملكهم على أنقاض «البارتيين» وطاردوهم في أرجاء هذه الأرض من بلاد «ما بين النهرين»، في (ميديا)، وحتى أبواب (جزيرة العرب) و(الهند). وأنت يا «ماني» احتفظ على الدوام في ذهنك بأنك «بارتي»، وأنك في عين السادة الجدد أمير «بارتي» أوّلاً وقبل كل شيء. فليس أبوك وحده من أسرة «هسكانيا» النبيلة، بل أمّك تنتمي كما يقال إلى أسرة «كمسراغان» التي هي أنبل وأعرق من تلك، وقد شاركت في عهد «البارتيين».

ـ لقد جهلت طويلاً هذا النَسَب، وعندما عرفته أهملته. فليس في نظري، وأنت تعلم ذلك، من وجود لأعراق ولا لطبقات.

ـ أعرف ذلك يا «ماني» وأحترمك لأجله، ولكن العالم لا ينظر إلى الأشياء على هذا النحو. ففي هذا المساء بالذات تستطيع يد مُؤْذِية أن تقدّم إلى ملك الملوك تقريراً بأمير «بارتي» اسمه «ماني» ينظّم اجتماعات في شوارع عاصمته. وسوف يكون ذلك نهاية مغامرتك.

ـ ولماذا ينقمون عليّ، فأنا لا أهتمّ بشؤون «الدولة»، ولا أتحدّث إلاّ عن «السماء»، ولا أدعو إلى التمرُّد.

ـ ألم تقل لي قبل قليل إنك لا تؤمن بالأعراق ولا بالطبقات؟ ويكفي أن تتلفّظ بهذه الكلمات علانيةً لتجعل من نفسك مذنباً بتهمة القدح في المَلِك، لأن ملك ملوكنا فخور بطبقته مثلما هو فخور بعِرْقه. وحتى لو لم تتحدّث إلا عن «السماء»، فهل تظنّ أن ذلك كافٍ لتبرئتك؟ قد لا تكون واعياً الأمر، غير أن الأزمنة تغيّرت. ففي عهد أبناء عمومتك «البارتيين» كانت جميع المعتقدات مسموحاً بها. وكان بين جيراني مسيحيون يمارسون شعائرهم من غير أن يَتَخَفَّوْا. وكانت لحاخام اليهود يومئذٍ زيارات للقصْر، بل لم يكن يُدرى ما هو دينُ الأمير. غير أن «أردشير» مختلف عنه. إنه محاط بجيش من الكهنة يسعون إلى فرض عبادة النار على امتداد رقعة الإمبراطورية. ولا يزال في وسع المرء أن

يمارس ديانةً من اختياره في بستان نخيل منسيّ على ضفة ترعة من ترع «دجلة». وأما هنا في العاصمة فإنه يصمت ويختبئ، وإذا أصرّ على الابتهال لـ «يسوع» أو «بعل» أو «نَبو» أو «موسى» فإنه يفعل ذلك في حِمى جُدْرانه.

ـ لا تخيفني أقوالك يا «مالكوس». وإذا جاءوا يقبضون عليّ فسيكون ذلك فرصة سانحة لكي أعرض رسالتي أمام سيّد الإمبراطورية.

ـ ها أنذا أتعرّف هنا على سذاجتك. تتذكّر أنك قرأت في كتيك خرافةً قديمة عن مُتَّهَم مَثَل أمام الملك، وها أنت ذا تتخيّل نفسك وجهاً لوجه مع العاهل تحاوره وتفتنه وتقنعه باعتناق رأيك. اصْحُ يا «ماني» وتخلَّ عن أحلام المُراهِق هذا! لن يقودوك إلى ملك الملوك أيها المنكود بل سوف يلقون بك في زنزانة مُوحِلة لا تستطيع فيها مناقشة غير الجرذان والهوامّ.

ـ في هذا أنت مخطئ. فأنا أعرف أنني سأتحدّث يوماً إلى الملوك...

كان «مالكوس» قد أخذ بمراقبة صديقه ساعياً إلى الكشف عن الأسباب الداعية إلى مثل هذا اليقين عندما أقبلت «كْلُوويه» وفي نظرتها تردُّد من لا يعلم إذا كان الخبر الذي أتى به سيثير الفرح أو الضيق. قالت:

ـ «پاتيغ» هنا.

نهض «ماني» وتقدّم خطوة نحو الباب؛ ولم ينهض مضيفه بالمقابل إلّا على مضض إذ كان لا يزال مهموماً مشغول البال، غير أنّه عندما دخل «پاتيغ» الحجرة، وكان لا يزال مرتدياً زيّ «أصحاب الملابس البيضاء»، مدّ إليه ذراعين مرحِّبتين. ولم يبادله «الأخ» الكهل سوى مصافحة عجلى. فلم تكن عيناه تريان غير ابنه الذي لم يقترب منه قطّ مع ذلك متأمّلاً إياه عن بُعْد وكأنه ظهور قويّ وعابر ولا خطر منه.

ـ كنت مقتنعاً بأني لن أراك أبداً! وعندما ذهبتَ بكيتُ وأردت أن أصوم حتى الموت. و«سيتايي» أيضاً بكى وكأنّه فقد ابنه الحقيقي. ثم وصل إخوة كانوا قد رأوكَ تعبُر جسر (سلوقيا). وافترضت أنك قد ذهبت إلى «مالكوس»

لأنـك لا تعرف إنسـاناً غـيره في هذه المـدن. وعلى هـذا تبعتُك. ورغب جميـع الإخـوة في مـواكبتي. فـرحيلك قـد أحـزنهم وهـزّهم. لـو كـان في وسعي فقط إعادتك إلى بستان النخيل لابتهجت «الجماعة» كلّها. فما من أحد، هل تسمع، مـا من أحد سـوف يفكّر في مؤاخـذتك عـلى أي شيء، وسيكـون في مقـدورك الكلام بصوت مرتفع، وعرض أفكارك...

كان وجه «ماني» يقسو أكثر فأكثر عند كل كلمة من كلمات أبيه.

ـ إذا كنتَ قـد أتيتَ لتقـول لي هـذا فقـد كـان من الأفضـل لـو بقيتَ عنـد «أصحـاب الملابس البيضـاء». اعلمْ مرة واحـدة وأخـيرة أني لن أرجع أبداً إلى بستان نخيلك، فأنا لا أنتمي إلى هذه الديانة.

ـ وأنا يا «ماني»، هل فكّرت لحظة فيَّ؟ لقد هجرت الدنيا ومتاعها، وهجرت زوجي لأعيش مع هذه الجماعة ظانّاً أني سأجد هناك الطهارة والأُخوّة، وهـا إنّ ابني يقـول لي إنّ التضحية بحيـاة كاملة كـانت بلا جـدوى. ولو أصغيت إليـه لأنكـرت كلّ مـا قد نـذرت لـه نفسي، ولـو ظللت متعلّقـاً بـالجماعـة لفقـدتُ الشخص الوحيد القريب إليّ. ليس لي غيرك في هذه الدنيا.

ـ ابقَ معي إذن. أصـغِ إلى كلماتي. وإذا كافـأتِ انتظارك تبعتَ طـريقي كما تبعتَ في الماضي «سيتايي». وإلاّ رجعتَ إلى بستان النخيل.

لقـد كلّم «ماني» أبـاه وكأنّـه يكلّم غريبـاً. أو خصماً. فقـد كـان جميـع مـا بـاح بـه «پاتيـغ» من عواطف بمثـابة تهجّم وعـدوان، وبدا لـه كل تلميـح بربـاط القربى بينهـما في غير محلّه. وكـان «مالكـوس» و«كْلُوويه» يـراقبان المشهـد بـاستحيـاء، شاهدَيْن منزعجينْ على تصفية حسابٍ بين مصيريْن. فالأب كان قد أخضع ابنه وجميع ذويه لنزوات ضَياعه الورِع. وها قد برز الآن الانتقام غير الحقيقي: فقد سقط «پاتيغ» فجأة على ركبتيه، وكأنما حدث ذلك بفعل دفعة إلّهية.

ـ سـأبقى معك يـا «ماني» وأُصغي إلى أقـوالك جـاهـداً في إدخـالهـا قلبي. افرضْ عليّ يديك فأكون أول مريديك.

لم يُجِبْ «ماني». فقد كان سابحاً وهو مُغْمَضُ العينينْ وسط ذكرياته باحثاً عن أمارة، عن بشير كان من الممكن أن يُنبئه بهذا المشهد الغريب الذي يحياه. فلم يكن بإمكانه قطّ أن يتخيّل أنّ الأشياء ستحدث على هذا النحو.

ثم فتح عينيه على مهل وألقى راحة يده اليمنى فوق رأس أبيه الجاثي. ومن غير أن يدري فقد أعاد بذلك، ومحا بشكل من الأشكال، تلك الحركة التي كان «سيتابي» قد سيطر بها فيما مضى على «پاتيغ» في حديقة معبد «نَبو».

في الأيام التالية كان «مالكوس» يتذمّر داخل مُحترفاته ويدور على نفسه لاعناً مرتبكاً عاجزاً عن أداء أدنى عمل مُفيد. فلقد كان «ماني» قد فتنه ولا ريب على الدوام، بيد أنه لم يسبق قطّ أن بدا له مضلِّلاً إلى هذا الحدّ، مستحيلاً إدراكه إلى هذا الحدّ. فأحياناً تصدر عنه حركات معلّم محاط بالتلاميذ، وبعدها بلحظة حركات طفل؛ وكان «مالكوس» يُعجب به أحياناً، وبعدها بلحظة كان يرغب فقط في حمايته وكأنّه أخ أصغر.

وكان «الصُّورِيّ» يجترّ في ذهنه على الأخصّ أحداث البارحة: لقد أبصرت «كنيسةٌ» غريبةُ النورَ في منزله بالذات، وقد وُلدت من ولاء مخالف للطبيعة من أبٍ لابنه. فأي دور يُسند إليه هو «مالكوس الصُّورِيّ» المكرَّس تاجراً، المتشيِّع التائب الذي فرّ من «الكنائس» و«الجماعات»؟

لقد كان في علاقاته بصديقه سوء تفاهم لم يكن قد حسب حتى الآن ضخامته وانعكاساته. فقد غادرا كلاهما بستان النخيل التابع لـ «أصحاب الملابس البيضاء»، غير أن دوافعهما كانت متباينة جدّاً. فهو نفسه قد عرف يقيناً على الدوام ما يريد من الحياة: الثروة والمرأة الحبيبة والمنزل المؤاتي بانتظار بناء قصر... و«ماني»؟ ما الذي حلم به وهو يغادر الطائفة؟ بدين جديد؟ لقد كانت تعتلج في نفسه بالتأكيد تلك الرغبة في التبشير، وتلك التلميحات التي أصبحت كثيرة التردّد الآن بنداء سماوي... وإذا كان الأمر كذلك فكيف يُفسَّر أن يكون «مالكوس» قد سمع من فمه، في المساء الذي جاء فيه «پاتيغ»

بالذات، هذه العبارة المحيِّرة: «أتساءل أحيـاناً عـمّا إذا لم يكن سيّد «الـظُلُمات» هو الذي يُوحي بالأديان لا لشيء إلاّ لتشويه صورةَ «الله»!

أفتكون هذه أقوالَ رجل دين؟

- ٢ -

في أثناء هذه الإقامة الأولى خارج بستان النخيل كان أن تحدّث الأب والابن عن «مريم». فلم يكونا من قبل قد ذكراها، وحتى في ذلك اليوم نجح «ماني» في عدم لفظ اسمها. فقد قال ببساطة:

ـ أتراك علمت ما آلت إليه؟

كانا يمشيان جنباً إلى جنب في درب هادئ من دروب (المدائن) وكلاهما ساهمان منذ مدة. وكان الوقت فجراً، ولم تكن الشمس قد صبّت لظاها بعدُ على المدينة التي كانت تستيقظ على مهل في عذوبة نسمة نَهْرِيّة عليلة. ولم يتردّد «پاتيغ». وكان الأمر كما لو أن كُتب أن ينضمّ ذلك الطيف الذي يرفرف بينهما منذ ربع قرن إلى هذا الاجتماع المتأخِّر.

ـ كنت قد مررت مجدّداً بـ (ماردين) منذ بضعة أعوام. وفي حديقة منزلنا القديم أرَوْني قبرها. لقد كنت أودّ أن أوضح لك بعض الأمور يا «ماني»...

غير أن الابن جمد في مكانه بشكل مفاجئ انغرست معه عصاه في الأرض. واتّخذت راحته المنتصبة قريباً جدّاً من وجهِ أبيه تلك الحركة التي كان يستخدمها هذا الأخير فيما مضى لقمع زوجته، وهي حركة كانت تعني «ولا كلمة».

أطاع «پاتيغ». إنه طالما عرف كيف يطيع وهو خارج منزله. وعندما استأنف «ماني» سيره بخطى أوسع، لحق به. بصمت، وعلى مسافة خطوتين منه.

ولسوف يبقى هذا الموضوع مـذّاك مُغْلَقاً. الموضوع لا الجُـرح الذي سـوف تأتي أحياناً بعض الأقوال الرعناء لتنْكأه.

إن أغـرب العلاقـات التي يمكن تصوُّرهـا بين أب وابنـه سـوف تُنسج بـين «پاتيغ» و«ماني». ولسوف تـولد صـداقة عـلى مرّ السنين وتكبر، حنـانٌ حقيقي وعميق، ولكنّه لا يدين بشيء لرابطة الـدم. بل إنـه، على العكس من ذلـك، سوف ينشأ رغم أنف هذه الرابطة، وكأنما لجحدها ونكرانها. وسيكون «پاتيـغ» حتى مماته مُريداً قـريباً من «مـاني» وأخلص رفيق له في أسفـاره وأشدّ مستمعيـه مواظبة.

مـواظب، بيـد أنـه، في الأيـام الأولى، متحفّظ وحــذِر جـدّاً. فكلّما كــان «مالكوس» يجتاز الحديقـة التي اعتاد صـديقه أن يـرسم فيها ويُعلِّم، كـان يرى الأب جالساً بعيداً على جذع شجرة مقطوع مُصيخاً إلى الخطيب ومستغرِقـاً على الدوام وشبه مضـطرب. وكان «الصُّـوريّ» يأتي في بعض الأحيـان فيجلس إلى جانبه مُحيِّياً إياه بحركة فاترة وابتسامة خابية مُتحاشِياً النطق بأدنى كلمـة يمكن أن تُلهيه عمّا هو فيه. وكان هو نفسه يُصغي إلى أقوال «مـاني» مع بقـائه يقـظاً أمام ردود فعل المستمعين وسعيه إلى التعرّف على بعض الوجوه المألوفة. ولو أن أحداً راقبه لألفى أنه لم يكن يبدو قطّ أقلّ اضطراباً من «پاتيغ»، على الرغم من تباين الأسباب.

فالمخاوف التي كان يُجيلها في نفسه منذ قدوم صديقه سوف تبدو محقّة جـداً، لأنه في ذات يوم، بينما كان «ماني» يتكلّم بصوت مـرتفع أمـام حشد أكثف من المعتاد، صرف انتباه «مـالكوس» وقـع أقدام ثقيـل كان الهشيم يصرّ تحتها. وإذ التفت فقـد التقت عيناه عينيْ ضـابط من حرس النـظام فاستـدعاه بحـركـة من يده.

ـ من يكون هذا الرجل الذي هناك؟

ـ مبشِّرٌ شاب من بلاد (بابل). واسمه «ماني».

ـ وعمَّ يتكلّم؟

ـ عن الصلاة والصيام.

ـ وأيّ دين يتّبع؟

لقد ودّ «مالكوس» لو يعرف هو نفسه ذلك! غير أنه رأى من الحرص أن يجيب مُغمغِماً:

ـ دين «الناصريّ» على ما أظنّ.

دوّن الضابط الأمر في سجلّ ذاكرته.

ـ وأنت، مَنْ تكون، لقد سبق أن رأيتك في الحيّ.

ـ اسمي «مالكوس»، وأنا تاجر أَصْلِي من (صُور). كنت مارّاً...

وإذ تضايق «پاتيغ» من الطنين المتلاحق خلفه فقد التفت مهدِّداً بيده التي كانت على استعداد لفرض الصمت على المزعجينْ؛ وسقطت اليد عندما لمح صاحبها الضابط في بزّته. وأمره هذا بالتقدّم منه وسأله وهو يشير إلى «ماني»:

ـ أتعرفه؟

ـ إنه ابني!

ـ وما اسمك؟

ـ «پاتيغ».

ـ إنه اسم «پارتي»، إذا لم أكن مخطئاً.

ـ أجل، فأنا «پارتي» وأَصْلي من (أيكبتان).

ـ وكيف حدث أنك وابنك تتكلّمان الآرامية بطلاقة؟

ـ جئت يافعاً إلى بلاد (بابل) ووُلد ابني في هذه النواحي، في قرية (ماردين).

ـ وإلى أيّة عشيرة تنتمي؟

قال «پاتيغ» وقد استعاد بغتة اعتزازاً هو مكبوت في العادة:

ـ إلى «الهسكانية».

قال الضابط وقد بدا فجأةً مُعْجَباً وموقِّراً:

ـ سلالة من المقاتلين الأشدّاء وقائعهم الحربية في جميع الحوافظ!

لم يَطُلْ أَمَد الحفاوة لأن «پاتيغ» لم يلبث أن أعلن عن معتقداته بنبرة ليس فيها شيء من التصالح.

ـ لم أشترك طول حياتي في أية معركة. إن ديني يمنعني من حمل السلاح. مهما كان الدافع.

ـ إذا أنا امتشقتُ سيفي لإقامة النظام وقتال أعداء مَلِكنا فلست في نظرك إذن خيراً من قاتل ولصّ!

حكم «مالكوس» بأن اللحظة مؤاتية للتدخّل فقال:

ـ إن الأمير «پاتيغ» وابنه يعيشان من أَمَد طويل منعزلَيْن في بستان نخيل ومنصرفيْن لقراءة كتب قديمة مقدّسة ولا يعرفان شيئاً كثيراً عمّا يجري في هذا العالم.

سمح الضابط لنفسه أن تلين بفعل هذا الإيضاح، كما بفعل الغمزة الملحّة التي وجهها إليه «مالكوس». بيد أن «پاتيغ» رأى ألاّ مندوحة عن أن يضيف قوله:

ـ لقد عشنا سعيدَيْن في بستان النخيل ذاك إلى أن كان يوم اختار فيه ابني المجيء إلى (المدائن) فكان عليّ أن أتبعه.

ـ ماذا جاء يفعل؟

ـ يريد تبشير العالمين بدين جديد.

ـ لا شيء إلا هذا! وكم من الوقت ستشرّفاننا بحضوركما؟

تحدّث «پاتيغ» بصوت خافت وكأنّه يكلّم نفسه:

ـ لو كان الأمر لي وحدي لرحلت في الحال. فعندما تسنح للمرء فرصة العيش بعيداً عن هذا الفساد، عن هذا العفن، عن هذه الحانات...

وأوحى الضابط:

ـ كان الوضع أفضل في الماضي.

ـ بلا ريب.

ـ كان كل شيء على ما يرام أيام «الپارتيين».

على الرغم من سذاجة «پاتيغ» التي لا حدّ لها فقد انتهى به الأمر إلى الارتياب في أن شَرَكاً قد نُصب له. غير أن «مالكوس» كان قد تولّى زمام المبادرة:

ـ لتمدّ لنا «السماء» في حياة سيّدنا الإلهي «أردشير» وابنه المحبوب الإلهي «سابور» شريكه في الحكم، فلم يسبق أن كانت هذه المدينة مزدهرة ولا متحضّرة على هذا النحو إلاّ عندما جعلاها بحمايتهما. ليبقيا إلى الأبد فوق رؤوسنا!

شمخ الضابط بأنفه وبشاربه الكثّ وكأنه يقول «أرى أيها «الصُّورِيّ» أنك تتقن عبارات المجاملة المألوفة، غير أن ذلك لا يكفي لانسحابك من القضية». وكان عليه مع ذلك أن يقول بدوره: .

ـ ليبقيا أبداً!.

وتلا الردَّ التقديسيَّ صمتٌ ثم لبث الضابط يحدج «پاتيغ» من أعلى إلى أسفل متهيّئاً لطرح سؤال جديد يكون بمثابة فخّ. إلاّ أن صوت «ماني» ارتفع جاذباً إليه الأسماع والأنظار.

ـ . . . لم يكن الله، وهو «نور» خالص، يعرف جيّداً عالم «الظُلُمات» عندما دعا أوّل إنسان ليقول له: «أنتَ يا من يتجاور فيه «النور» والظلام، إنك خير سَنَد لي. أجل أيها الإنسان، إنك الشَرَك الذي ينصبه «النور» لـ «الظُلُمات». وإليك أعهد بمهمّة السلطان على «الخليقة» والمحافظة عليها».

وعندها اقترب الضابط. واجتاز الممرّ المُحصِب الضيّق الذي يفصل الحضور عن «ماني»، وهو يختال بقامته المُكْرِشة، وبيده عصاً قصيرة وسيفُه إلى جنبه. وإذ أصبح في مواجهته تماماً فقد توقّف وانتفض. وما لبثت الرسالة أن فُهمت، لأن المستمعين، بلا استثناء، فصلوا أنظارهم عن الخطيب ليثبتوها في الضابط، ونهضوا واحداً بعد واحد منسحبين القهقرى، بحَذَرٍ أخرق أوّل الأمر، ثم مُوَلِّين بسرعة وقد وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

وجلس الضابط جَذْلانَ حتى صدغيه، فخوراً بأنه أصبح بذلك وحده، بمعجزة السلطة، مجموع المستمعين.

عبارة أخيرة أطلقها «ساني»: .

ـ سأعلّم دين الجمال للأمم في أربعة أقطار الدنيا.

ثم صمت من غير أن يغادر مكانه؛ وكأنّما كان يتابع في داخله الموعظة التي قُطعت. وراقبه الضابط ورازه، ثم بدا منشغلاً وكأنّه يبحث سُدىً عن الكلمات التي في وسعه توجيهها إلى هذا الرجل العجيب. إلاّ أنه عدل في النهاية عن مكالمته وتركه ينهض ويبتعد بمشيته الظالعة.

ظلّ المستمع الأوحد في مكانه مُتطامناً وشبه نائم وغير ثائب إلى نفسه إلاّ في اللحظة التي كان فيها «ماني» قد اختفى. وعندها فقط انتصب ولحق ركضاً بـ «مالكوس» عند باب بيته.

ـ قل لهذين «البارتيّيْن» بأنّي لا أريد أن أراهما يجرّان ثوبيْهما داخل أسوار (المدائن). وليرجعا إلى قريتهما ويمكثا فيها إلى الأبد! ذكّرني باسميْهما!.

ـ «پاتيغ» و«ماني».

ـ وأنتَ «مالكوس»، أليس كذلك؟ ههنا تعيش؟ منزل جميل!.

وفيما كان الضابط يُجيل في المُلْكية نظرة حسدٍ ووعيد فوجئ «مالكوس» بأنه كان يتأمّل بحنين جدران بيته وكأنه يراها منتصبة للمرّة الأخيرة.

وإذ دخل وهو يترنّح فقد مضى يستلقي في الحديقة الوارفة حيث مزجت له «كْلُوويه» شراباً من التوت. وكرعه دفعة واحدة وطلب واحداً آخر حتى قبل أن يجفّف عرقه. وإذا كان يريد الإبقاء على ممتلكاته وأسرته فإنه يعرف ما عليه أن يفعل، ويعرف أيّ طلب كريه عليه أن يوجّه إلى «ماني». ولكنْ كيف السبيل إلى أن نتجاوز الكلمات شفتيه؟ ولم يتحدّث إلى «پاتيغ» الذي جاء يجالسه إلاّ بالحركات والهمسات المختنقة.

ولم يُقبل «ماني» للانضمام إليهما إلا بعد ساعة، وكان منتعشاً وادعاً مُلْهَماً. قال: .

ـ لقد فكّرت. ينبغي أن أذهب من هذه المدينة.

استشعر «مالكوس» للحال ارتياحاً جَهِد في عدم تركه يشفّ. في حين كان ابن (بابل) يضيف بنبرة متأثّرة بعض الشيء، وإن لم تَخْلُ من مَكْر: .

ـ لقد طلبت النُّصح من «رفيقي» السماوي الذي أجابني: «المدائن باب ضخم إن لم تستطع خلعه فحاول أن تحصل على مفتاحه». ولسوف أرحل هذه العشية بالذات. وإذا رغب «مار پاتيغ» في مرافقتي فإن في وسعه أن يفعل.

وكنّى الأب عن الجواب بالنهوض وفكّ حبل ثوبه الأبيض ليعيد ربطه بشكل أوثق.

وكان «مالكوس» قد استعاد استعمال كلمات المجاملة.

ـ أليس من الحكمة انتظار الفجر؟.

كان خارج هذه العبارة المهذّبة مرتبكاً بحقّ. وأكثر فأكثر بمرور اللحظات.

فلقد كان خَجِلاً من أنه كان يرجو رحيل «ماني»، بل من أنه كان على وشك أن يـطلب منه ذلـك. وكان المشهـد الذي يحيـاه يملأ نفسـه بالمرارة، مرارة سـوف يحملها معه، وكان يستشعر ذلك حقّاً، حتى آخـر حياتـه. أفلم يكن قد احتفظ طَوال سنوات بالصورة المؤاسية لصديقه وهو ينـاقِص من نوى التمـر في مقصف بستـان النخيل؟ وهـا هو ذا الآن مقتنـع بأنـه سوف يتـذكّر بعـد عشرة أعوام، عشرين عاماً، بخجل كامل وبالمرارة نفسها، اليومَ الذي كان قد طـرده فيه من منزله. طرده؟ إنه لم يطرده، وليس في عيْنَيْ «ماني» أيّ لوم؛ بيد أن «الصُّورِيّ» لن يغفر لنفسه أبداً غياب مروءته. ما العمل إذن؟ هـل يستبقي الابن والأب، ويخاطر بخسارة كل شيء، بيته وتجارته وكلّ ما بناه منذ وصوله إلى (المدائن)؟.

هكـذا نشأت في ذهنـه رويداً رويـداً، ومن غير أن يعـترف بذلـك لنفسـه، الفكرةُ السخيفة، الفكرة الشاذّة. وأسرع بكنسها من خاطره فعادت مُلِحّة.

كان «مالكـوس» ينظر، مُتَقّـع الوجـه، حزينـاً، يُرثى لـه، إلى ضيفيه وهمـا يجمعان متاعهما القليل، عندما أقبلت «كْلُوويـه». وبلمح البصر، ومن غـير أن تكـون قد سمعت أدنى تفسـير، كانت قـد فهمت ما يجري: رحيـل الضيفـيْن وصراع الزوج مع نفســه. وشملتهم جميعاً بنـظرة حنان ثم انتحت بهـذا الأخير جانباً.

ـ إذا كنتَ تفكّر في مرافقتهما بعضَ الطريق فلا تتردّد. فعـلى الرغم من سنّ هذين الرجليْن فإنهما ليسا سوى طفليْن، فهما لا يعرفان شيئاً عن الطرق ولا عن الرحلات، ولسوف يضلّان من غيرك.

وجد «مالكوس» نفسه واقفاً وحافـلاً فجأة بـالنشاط وكـأنه لم يكن ينتـظر إلّا هذه الكلمات. وقال بمرح: .

ـ هلمّ ننطلق! سأطلب من الخدم إعداد المطايا.

بعضَ الطريق، قالت زوجتـه؟ إن «مالكـوس» سيظل يتسـاءل بعد سنـوات طِوال كيف أمكن أن يخوض بمثل هذه الخفّة تلك المغامرة.

* * *

لم يكن «ماني» ليبدو على معرفة بالهدف من رحلته. وكان كل صباح يشقّ طريقه من غير أن يسمح لنفسه بالاستلقاء ليلتين على الحصير نفسه. وكان رفيقاه يتبعانه. باتّجاه (غنازاك)، وفي (أتروپاتينيا)، وباتّجاه (أرمينيا)، وجبال (ميديا)، ومستنقعات (ميزينيا)، وفي نهاية المطاف باتّجاه (قشقر) على نهر «دجلة» حيث أقلعوا.

ـ والآن إلى أين نذهب؟.

لم يكن «مالكوس» ينتظر من جواب عن سؤاله بمثل ما كان الأمر عن أسئلته العشرين السابقة. وكان قد تهاوى في مقدّم السفينة إلى جانب «پاتيغ» ورأسه مستور في كوفية مبلّلة. وكانت الشمس من القرب بحيث يُسمع قَرْعُها في الصدغينْ. و«ماني» وحده كان واقفاً وظلُّه متجمّع عند قدميه. وأعلن من غير أن يلتفت، وكأنّه يتصفّح نشرة قيادة السفينة: ـ

ـ سننام الليلة القادمة في (شاراكس). ثم تنقلنا سفينة إلى (البحر الكبير). حتى (الهند).

كان «مالكوس» قد فقد عادة الاحتجاج. فكان ينام وينهض ويُصغي ويمشي. ومع ذلك فإنه لم يتوقّف قطّ، وراء عينيه الكثيرتي الخضوع، عن القيام بحساباته. فكان يقول إننا بالتأكيد في شهر أيار (مايو)، آخر شهور الربيع، وهو بالطبع بداية الرياح الموسمية التي تدفع بالسفن نحو (الشرق)، وهذا ما يعرفه البحّارة كما يعرفه التجّار الذين يقومون بالرحلات الطويلة؛ ولكن من أين لـ «ماني» هذه المعلومات الدنيوية؟ واعتدل «مالكوس» على أحد مِرْفَقيه، على أمل أن يزداد انجلاء رؤيته. أفيكون صديقه قد درس نظام الرياح؟ أيكون قد جرّه إلى هذه الرحلة الهائمة وهو متبصّر منذ البداية ببلوغ (شاراكس) في الوقت الذي تنفتح فيه بالضبط طرق (الهند) الموسمية؟ أم أن «تَوْأَمه» هو الذي يَعْلَم ويقوده؟ «تَوْأَمه»؟ ولكن من يكون «ماني»، ومن يكون «تَوْأَمه»؟ وباليد المتضايقة نفسها طرد «مالكوس» شكوكه ويعوض المستنقعات.

- ٣ -

كان يُهيَّأ للرحلات في (شاراكس)، مستودَع (ما بين النهرين)، في الأكـواخ القذرة المزروعة على طول مصبّ النهر. مستأجرو سفن وبحّـارة وصيارفـة وتجّار شرفاء وعاهرات وبرّاجات. وقد ظلّ «ماني» و«پاتيغ» بعيـدينْ عن ذلك الـدَّغَل الداوي بالقهقهـات المخمورة والأغـاني البذيئة. بل خـارجه بحَـذَر، في شارع غاصّ بالمارة وَوارف الظلال. وكان على «مالكوس» وحده أن يقوم بـالاقتراب، «مالكوس» الذي كان قد جدّ في البحث عن مـواطن من مواطنيه؛ وكان واثقـاً من العثور على واحد أو عدد منهم، إذ كـان «الصُّوريّـون» يسلكون منـذ قرون درب كبش القرنفل وحَبّ الهال.

والحقّ أنـه لمح في زمـرة صغيرة، أقـلّ الزمـر صخباً، وجهـاً، قَصَّـةَ لحيـة، تسريحةَ شعر، خاتماً. وانسلّ واستحوذ على مقعد وشيء من جعة الشعير. وكان الحـديث يـدور عن «الـدراهم» و«الـدنـانـير» و«الفضـــة» و«الـذهب»، ثم عن اضـطراب الأمواج وصخـور الشاطىء والقـراصنة. وذكـر «مـالكـوس» مـآثـره التجارية وزبائنه، تاركاً لمخاطَبه أن تتراءى له أعمال مشتركة مثمرة. وما هي إلّا ساعة حتى كان «الصُّوريّان» متوافقَينْ وقد انعقدت راحتاهما.

- متى ننطلق؟.

ـ البضاعة على المركب، وكذلك الماء العِذب، ولسنا ننتظر سوى البشائر. لقد رأى مخطِّطنا في منامه الليلة الماضية قطيع ماعز، سوداوات مثل عاصفة معقودة، فلم يشأ البحّارة الإقلاع. وغداً صباحاً أُقدِّم ثوراً قُرباناً لهيكل رصيف المرفأ. فإذا قَبِلَ نَشْرَنا أشرعتنا بعد الظهر قبل أن تغيّر الآلهة رأيها.

ونهضنا على أثر ضحكة متشنِّجة، فالبحر لا يُركِب قطّ من غير كَرْب. ثم ذهب «مالكوس» يخبر أصدقاءه بأن كل شيء قد رُتِّب.

كان «ماني» و«پاتيغ» محاطينْ بحلقة من المستمعين، كما هو الأمر في جميع النواحي التي كانا قد زاراها. فهل يُقاطعهما ليزفّ إليهما نجاحه؟ ما الفائدة، فهو يعلم سلفاً ردّ فعلهما، فلسوف ينظران إليه بعينيْ نعجة ناعسة، كما لو أنه اتُّفق منذ الأزل على أنه سيلتقي وهو يدخل هذه الحانة صانع سفن صُوريّاً ذاهباً بالضبط إلى (الهند)، وقد أخّر رحيله يوماً واحداً بالضبط، ويقبل بأن يأخذهم ثلاثتهم على متن سفينته! كلّا، لن يقول «مالكوس» شيئاً فهو يُفضِّل أن يترك «الپارتيّيْنْ» مُنْصرِفينْ إلى مهامّهما السماوية ويَشْغَل هو نفسَه بمهمّة أدنى: المؤونة. لأنه إذا كان مواطنه قد أصرّ بلطف على نقلهم مجّاناً فإنّه لا مراء في أن عليهم تأمين قوتهم على غرار ما يفعل جميع الركاب.

هل بالإمكان تصوُّر جبل المؤن التي ينبغي جَمْعُها لميرة ثلاثة رجال طَوال الرحلة؟ وتوجّه «مالكوس» بخطى واسعة إلى سوق الميناء. وكان لا يفتأ يُدمدم وهو يسير، والكلمات تتعالى من أحشائه على غير قصد منه وكأنّها فقاقيع السمك على سطح الماء. وكان عند رحيله من (المدائن) قد خطّط، كما كان سيفعل كل امرىء عاقل، لجلب خادم أو اثنين! غير أن «ماني» لم يشأ أن يسمع بشيء من هذا.

ـ من سيتولّى إذن نصب خيامنا وإعداد الطعام لنا؟.

ـ لن يكون لنا خيمة ولا مطبخ. فلسوف يُقدِّم لنا أناس أسخياء في كل مرحلة من مراحل سفرنا المأوى والمآكل.

ـ أفنرحل في الطرق وحيدين كالمتسوّلين؟ .

وأخذ «ماني» يضحك .

ـ ومَنْ خيرٌ من المتسوِّل استحقاقاً لإرشاد العالم؟ .

لقد كان مثل هذا الرأي مثيراً لرجل يعمل في التجارة! .

ـ هناك أيام لا أفقه فيها شيئاً ممّا تقول يا «ماني». وإني لأتساءل عمّا إذا لم تكن تتحدّث على هذا النحو لمجرّد الرغبة في بلبلتي .

بيد أن ابن (بابل) قد اتّخذ أشدّ السَّحَن جِدّاً ليشرح : .

ـ على مَنِ اختاروا إرشاد الآخرين أن يستنكفوا عن كل سلطة وكل ثروة ، ولا ينبغي أن يملِكوا غير الثوب الذي يرتدون ، ولا شيء غيره ، حتى ولا طعام غدٍ . وهكذا يمكن التمييز بين الحكماء والأتقياء المزيَّفين بائعي المعتقدات .

ـ ولكن كيف يبقى هؤلاء الحكماء على قيد الحياة؟ .

ـ سيطعمهم الشعب كل يوم .

ـ ألا يمكن أن يَكِلَّ الشعب يوماً عن إطعامهم؟ .

ـ حين لا يكون هناك على امتداد مساحة الأرض شخص واحد يريد إطعام حكيم فمعنى ذلك أن العالم لا يستحقّ قطّ الحكماء ، وأنه حان الوقت لكي يذهب هؤلاء .

ـ وهل يتركون أنفسهم يموتون؟ .

ـ عندما يتخلى العالم عن الحكماء فإن الحكماء يتخلَّوْن عنه . وعندها يبقى العالم وحيداً ويأسى لوحدته .

كان «مالكوس» قد أدار طاقيته ثلاث مرات حول رأسه .

ـ إذا كنتُ أُحْسِن الاستخلاص فإننا سوف نسافر من غير طعام ولا ذَهَبٍ .

ـ أجل، من غير أيّ شيء من هذا. سوف نرحل كما يرحل الحكماء.

كان «الصُّوريّ» سيقول «كما يرحل المجانين». ولكن كيف السبيل إلى مدّ الجسور عندما يكون عدم التفاهم بمثل هذا البَوْن؟ ومن أيّ طرف يكون الحِجاج؟.

لقد انطلق «ماني» وأبوه وصديقه إذن بلا أي جهاز سوى مطاياهم. ومع ذلك فإن «مالكوس» لم يتمكّن من الامتناع عن أن يحمل بِدرة مخبّأة تحت ثوبه. غير أن الفرصة لم تسنح له قطّ طَوال الرحلة لحلّ خيطها. فما إن كانوا يجتازون باب مدينة، سواء كانت (حلوان) أو (كنغوار) أو (أرتكساتا)، أو أوضع بلدة، حتى كان الناس يحتشدون حولهم، بدافع الفضول قبل كل شيء، نحو كل غريب؛ ثم إنه ما إن كان «ماني» يبدأ بالتبشير حتى كان جمهور يحتشد للاستماع إليه. وعندما كان ابن (بابل) يجهل كلام الموضع الذي هو فيه، كان رجل من الحضور ينتدب نفسه ترجماناً، وكان ذلك الرجل، أو غيره، يتوسّل آخِر النهار إلى المسافرين بأن يشرّفوه بالمبيت في منزله.

وعند كل وجبة كان الوجهاء يتشاجرون لاستضافة الزوّار إلى موائدهم؛ وعلى امتداد النهار، وما دام «ماني» يتحدّث، كان النساء يتوافدْنَ حاملات الفاكهة والأشربة الطازجة له ولصاحبيْه ولمستمعيه.

وكان من عادة «ماني» قبل أن يقطع الخبز أن يقول هذا الدعاء القصير: «أيها الربّ، لقد لزم لتحضير هذه الوجبة انتهاكُ التربة والنبات وغيرهما من المخلوقات. بيد أن الذين فعلوا هذا لم يكونوا ينوون إلاّ تغذية «النور» الذي في الإنسان، وإلا إتاحة البقاء لـ «كلمتك».

ثم كان يأخذ بتوزيع الطعام على من حوله وكأنه ربّ المنزل، مكتفياً لنفسه بقليل من الخبز وبعض الثمار. وكان يحبّ البطيخ بشكل خاص، وإذا سئل عن سبب ذلك شرح أنه لا يجتمع في أي غذاء مثل هذا القَدْر من «النور»: «لاحظوا البطيخة، إن عيونكم لتفرح بلونها، وأنفكم بعطرها الخفيّ، ويدكم تداعب قشرتها الصلبة والناعمة، ولستم في حاجة إلى الشرب في الوقت نفسه،

لأن ماءها فيها، وليس عليكم أن تضعوها في صحن لأنها تنضج وتُؤتي أُكُلُها في وعائها الخاصّ. ابدأوا من الأطـراف ثم اقتربـوا من القلب وكل لقمـة تقرِّبكم من «حدائق النور».

وكـان يقدِّر كـذلك الخبـز الساخن، والخيـار والتمر، ولا سيّـما أشدّ التمـور صفاء، تلك التي يُرى الضوء من خلالها. وكان يُزيح في المقـابل بحـركة تكـاد تكون مهذَّبـة أطباق اللحم. وأمـا الخمر والمشروبـات المخمَّرة فلم يكن يشرب شيئاً منها؛ كـان يتظاهـر فقط، في ابتداء الـوجبة، بغمس شفتيـه فيهـا ليشعـر الضيوف بحريّة تناولها. بيد أنه لم يكن يتسامح بالسُّكْـر؛ وكان يكفي أن تلوح من أحد الحضور أمارة على ثمله لكي ينهض «ماني» ويبتعد غير عابىء بمضيفيه.

وفي أغلب الأحيـان يكون «مـاني» قد فتن في لحـظة استئنافـه طريقـه بعضَ الأشخاص الذين لم يكـونوا يـرغبون في مفـارقته. غـير أنه كـان يقول لهم: «لا تتبعوني بعدُ، فلم يَئنِ الأوان لـذلك. انتـظروني وكونـوا أملي في هـذه المدينـة، وانشروا حـولكم ما قـد سمعتموه من فمي، وقـولوا لكـل أحدٍ إنني سـوف أمرّ ثانيةً».

كذلك كان بعض أعيان المـوضع يـأتون لتقـديم الهدايـا إليه، أثـواب قشيبة وقطع ذهبية. وكانت هذه تلتمـع في عَيْنَيْ «مالكـوس»، لكنّ «ماني» كـان يشير إليه برَفْعَة من حاجبيه بألاّ يمسّها. ثم كان يتوجّه إلى المحسنين قائـلاً: «هديّتكم مقبـولة مـع العرفـان بالجميـل، احتفظوا بهـا في بيتكم باديـة للعِيـان، فسـوف تذكِّركم بمروري وتعلن لكم عن عودتي».

وهكذا بلغوا (شاراكس) آكلين مُستجِمّين كلّ يوم، غير أنهم ليسوا أكثر غنىً ممّا كانوا عند ذهابهم. ولا أكثر فقراً أيضاً لأن «مالكوس» لم يكن قد مدّ يده مرة واحدة إلى بِذْرته. ولقد كـان سيوافق طـوعاً عـلى أن حيطتـه كانت سُـدىً لو لم يكن مشروع تلك الـرحلة في البحر للوصـول إلى (الهند). ففي الـدروب يمكن أن يحصل المرء على المأوى والزاد في جميع المراحل، وقد كان «ماني» على حقّ في

ذلـك وتبينً أنّ شكـوك «مالكـوس» لم يكن لها مـا يُسوِّغهـا. غير أن الأمـور في البحر لم تكن لتجري بالطريقة نفسها، إذ كان كل امرئ يصل ومعه مُؤَنه؛ ولا سيّما على طـريق (الهند) التي كثيـراً ما كـان الساحـل فيها مُقْفِـراً ونادراً مـا كان مضيافاً.

إلى متى ينبغي تـوقّع المؤونـة؟ هذا مـا استعلم عنه «مـالكـوس» من صـانـع السفن «الصُّورِيّ». فلو تمّ الإبحار في غير أوانه بمحاذاة الساحـل على امتـداده لكان من الممكن أن يمتدّ شهوراً؛ وإذا تُرِكَ الأمر للرياح الموسميّة ففي الإمكـان بلوغ وادي نهر «السند» في ثلاثة أسابيع على الأكثر. بل لنقل في ثلاثين يوماً إذا حسبنا حساب التقلّبات الجويّة.

وقام «مالكوس» بحساب مـا يلزم لمؤونة ثـلاثة أشخـاص مؤونةً كـافية مـدّة ثلاثين يوماً. وإذ التفت ببصره إلى أقرب مفترق طرق فقد نادى حمّالَيْن جالسيْن بالقرب من بِركة ماء. وكانا متعوّديْن على خدمة المسافرين فقاداه عـلى الفور إلى سوق المرفأ عند رجل اعتاد اجتذابها بأسعاره التي كانا متـأكّديْن من اعتـدالها، وهـو «نبطيّ» من مـواليد (البـتراء) لم يلبث أن أكّد بغمـزةٍ من عينه لـوسيـطيْـه عمولتهما المعتادة.

وإذ استعلم عن الرحلة فقد نظّم بنفسه لائحـة السلع الضرورية. فللنّصف الأول من الرحلة بيْضٌ مسلوق وأرغفة خبـز بشكل كعـك وجبنٌ وسمكٌ مجفّف أو مكبوس؛ ولما تبقّى شعيرٌ وحنطة روميـة وعدس وفـول وفاصـولياء وحمّص؛ وبالطبـع جرّتـان من التمر المـرصوص وبعض عشـاكيل البصـل والثوم وزيتـون وعسل ومشمش مجفّف وزيت وملح وتوابل مختلفة؛ وقـال بعدم إغفـال الخمر، وبضرورة أخذ بعض دِنانه التي سيحتفظ بها القبطان، إذا شاء أن يكـون لطيفـاً معكم، مدفونـة إلى منتصفها في الـرمل المبلّل الـذي يوازن قعـر المركب، والتي ينبغي أن تُشرب بصحبته.

ـ وأما بشأن الآنية والأوعية فأظنّ أنك اشتريت ما يلزم منها للطريق.

قال «مالكوس» متأوِّهاً: .

ـ لا، إننا لا نملك غير إبريق للشرب.

ـ وكيف كنتم تفعلون للأكل؟.

ـ ليس من السهل شرح الأمر. كنا نتّكِل على فضل «السماء».

قال «النبطيّ» وقد اعتاد التزام أقصى الحذر فيما يتعلّق بالمعتقدات: .

ـ إنها طريقة كغيرها للسَّفَر. خذ مع ذلك قِدْراً وحطباً للوقود!.

وعندما اشتُري كل شيء بعد مساومة طويلة، اضطّر «مالكوس» إلى مناداة حمّال ثالث، ثم رابع؛ ولم يكتفِ هو نفسه بفسح الطريق للمرور، فقد كانت ذراعاه محمَّلتينْ حتى ذقنه عندما انضمّ إلى رفيقيه. وكان «ماني» لا يزال يتكلّم أيضاً وأيضاً، و«پاتيغ» يُصغي إليه عن كَثَب. وأشار «الصُّوريّ» على الحمّالين بالأناة فوضعوا أحمالهم من غير تذمُّر متوقّعين مزيداً من الأجر.

وإذ انتهى الخطاب آخر الأمر فقد تأمّل «ماني» البضائع المرصوفة من غير أن يُبدي تحمُّساً.

ـ لقد تجشّمتَ سُدىً كل هذا العناء.

وفضّل «مالكوس» الصمت. لا كما يصمت تلميذ أمام معلّمه، بل كما يفعل، على العكس من ذلك، أخٌ أكبر مصمِّم على عدم معارضة أخيه الأصغر غير الناضج. ثم إنّه كان يعلم، من غير أن يكون أكثر تطيُّراً من سواه، أنه لا ينبغي قطّ أن يتشاجر صديقان في لحظة إبحارهما.

تُرى أيّ بحّار مكشوف عن بصيرته قد أطلق ذات يوم على أشدّ صخرات (البحر الكبير) الثلاث فَتْكاً هذا الاسم الذي لا مثيل له: «سلامتي وابنتاها»؟ ولقد تُنوقلت التسمية من لغة إلى أخرى في الأساطير المفزِّعة التي حاكها جميع البحّارة من (كانتون) إلى (مرافئ الحبشة). وهي تتعلّق بثلاث شِعاف قائمة تخترق صفحة الماء بشكل مذراة جهنّمية غالباً ما تسترها الظلمة والضباب. وكانت الخيزرانيّات الشراعية تلتفّ حولها بحذر، وبعض المراكب التي منسوب

مائها أضعف تتسلّل بينها في جسارة انتحارية يحتفظ منها القاع القريب بذكرى عدد كبير من الحُطام.

لم تكن الرحلة بالنسبة إلى رفيقيْ «ماني» إلا أهوالاً. فما إن اجتيز المضيق الذي يحمل الاسم الإلهي «هُرمز» حتى أقضّ صراخُ قيلولةَ المسافرين: .

ـ قال! قال! قال!.

كان المُنْذِر بالخطر بحّاراً من مدينة (سوز)، وقد مدّ يده نحو عُرض البحر. وانضمّ إليه صانع السفينة ثم الربّان وهمُّهم الأول أن يتحاشوا استسلامَ الركاب للذعر واندفاعَهم جميعاً للتجمهُر في مكان واحد مُخلِّين بتوازن السفينة بآكد مما قد يفعله الحوتان المندفعان باتّجاهها.

ـ ليبقَ كل واحد في مكانه، فأوّل من ينهض سوف أقذف به من فوق ظهر السفينة!.

وجمد الركاب في أمكنتهم من غير أن يصدِّقوا بالفعل التهديد. وإذ أطمأن الربّان إلى أنه قد أُطيع فقد أضاف قائلاً: .

ـ لا يُجَنَّ جنونكم فهيكل السفينة صلب، وفي كل رحلة تهاجمنا الحيتان ونبقى عائمين على الدوام!.

وكأنما أرادت البهيمتان تحدِّيَه فلامستا المركب فبدأ يترنّح.

وصاح الربّان: .

ـ هاتوا المقارع!.

المقارع؟ لم يكن بين الركّاب من هو أشدّ رعباً من «پاتيغ». فإذ كان طالما عرف أن هذه الآلات تستعمل في الكنائس بصفة أجراس فقد جثا على ركبتيه وشبك يديه وأخذ يدمدم: «لِنُصلِّ، لِنُصلِّ، فلم يبقَ لنا إلا الصلاة!» ومع ذلك فقد انبغى أن تُستعمل المقارع الاثنتي عشرة التي جلبها نجّار السفينة في قدّاس مختلف تماماً. فلقد وزَّعها على بحّارة المركب، وإذ بقي منها اثنتان فقد

أعطى إحداهما إلى «مالكوس» مُوصِياً إيّاه بالانحناء فوق السياج وقرع ألواح الخشب برأسها مُحْدِثاً أكبر قدر ممكن من الجَلَبة. وحضر طبّاخ الربّان للمعاونة رافعاً صينيّة من النحاس أخذ يقرعها بضربات من مِغْرَفة. وشارك الجميع شيئاً فشيئاً في العمل فغدت كل مساحة صنجاً يُقرع ويُضرب ويُنقر عليه فيما تتعالى الصيحات والتهليلات بقدْر متساوٍ من الحمِيَّة والرهبة. وبدا أن الصخب كان مُجدياً، فما هي إلا دقائق حتى لوحظت نافورة ماء على بُعْد زهاء ميل من مقدَّم السفينة. وكان الحوتان قد فرّا، ولن يُريا بعدُ أبداً.

كان الإعصار الذي برز في اليوم الثالث عند الغَسَق أشدَّ إقلاقاً. فلم تُرَ بادىء الأمر غير غيمة بيضاء أخذت تكبر وتنتفخ وتثخن دقيقة بعد دقيقة حتى أخذت تدوِّم أسرع فأسرع مُحاكيةً شكل قرن ضخم متأهّب للغوص في العُباب. ومع ذلك فقد حدث العكس فشرع البحر فجأة يغلي كالقدر في هذا الموضع بالتحديد، وارتفعت صفحة الماء، يا للمعجزة! وقد اجتذبتها الغيمة المدوِّمة وامتصّتها؛ وكان عمود أسود من الماء قد انتصب الآن وأخذ يتعالى ويتعالى وهو يئزّ، وكأنما البحر بأسره سوف يُسفَط إلى السماء.

وجمد الركّاب في أمكنتهم. والحقّ أن الظلمة قد ساعدت على إظهار الإعصار بصورة وحشٍ مُدمِّر، نوعٍ من تنّين ضخم مُعَلَّقٍ بين السماء والبحر، أكثر مما هو ظاهرة مائيّة عاديّة. وأصاب الرعب صانع السفينة نفسه فذهب إلى حقيبته وأخرج منها عِقداً مصنوعاً من قطع ذهبية ولفّه حول عنقه. وأخرج بحّار شاب خنجراً مشحوذاً من غمده وسدّده إلى نحره وكأنه لا ينتظر سوى إشارة لقتل نفسه. وسجد «پاتيغ» من جديد واستأنف صلواته.

لم ينم أحد تلك الليلة، فالجميع يُصيخون السمع ويرقبون الأفق بلا كَلَل للتأكّد ممّا إذا كان الخطر يقترب. رجلان، رجلان فقط ظلّا بمعزل عن كل ذُعر. الربّان أوّلاً، وهو بحّار عجوز من (شاراكس). وإذا كان قد أمر بالضجيج لإبعاد الحوتينْ فقد اكتفى لدى ظهور الإعصار بلمّ الأشرعة، فماذا

كان في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك؟ وكان يعلم أن الإعصار سينقضّ، قريباً أو بعيداً، ربّما بصبيب يجعل السفينة تميل وتجنح، وربّما بقطرات صغيرة رقيقة، برذاذٍ لا ضرر منه. وبانتظار ما سيكون تقدّم بخطوة واثقة وسط رعيّته المتململة. وإذ كانت الأنظار متشبّثة به والأصوات تتضرّع إليه وتناديه فقد اكتفى بأن أغدق على الجميع الأقوال نفسها، وفي بعض الأحيان نظراتِ تعاطُفٍ متعاليةً.

وقادته خطاه ذات لحظة إلى «ماني» مُتهَيِّئاً لتوجيه كلمة التشجيع إليه. غير أن ابن (بابل) هو الذي ناداه: .

ـ أتكون الرجل الوحيد الذي يشاطرني دَعَتي على هذا المتن؟.

بدا في عَيْنَي الربّان نوع من الحيرة والتردُّد. فقد جعل انقلاب الأدوار هذا فجأة من تحصيلِ الحاصل جميع العبارات التي كانت جاهزة في ذهنه.

ـ ها هي ذي أقوال تشجيع وتشريف! مَنْ تكون أيها المسافر الكريم؟.

كان اسم هذا الشخص قد قيل له كما قيل اسم كل من المسافرين العشرين الآخرين، بيد أن مثل هذاالسؤال كان مفروضاً فيه أن يُعيد الهيبة والسطوة إلى نفس الرجل القائد.

ولم يتوانَ «ماني» عن تقديم نفسه.

ـ أحمل رسالة وعليّ نشرها في (الهند)، وهذه السفينة تقودني إليها، ولن يقطع رحلتي أيّ إعصار، ولا أيّة صخرة بحرية، ولا أيّ حوت، ولا أيّة عاصفة. هكذا هو الأمر. وليس في مقدور البحر شيء.

ـ يا لَلسّعادة بسماع رجل بمثل هذه الثقة في مثل هذه الليلة! كثيراً ما يقال إن البحر قتّال؛ وأما أنا فلم أَخَفْ منه يوماً. وعندما يحين حيني فسيكون ذلك في بيتي في (شاراكس) صريعَ حُمّى لعينةٍ ما. وأما فوق الماء فأظلّ واقفاً وأبصق على الأخطار وأعلم أنه ما من شيء يمكن أن يُصيبني.

قضى ابن (بابل) والربّان الليل بطوله واقفينْ إلى سياج السفينة وهما يتحدّثان، وسواء كان الحديث عن قصص البحر أو عن مواعظ الأدباء، فقد كان كل منهما يصغي إلى كلام الآخر من غير كلال. وكانا كلاهما يوزّعان على الركاب المتّجهين نحوهما كلمات التشجيع نفسها. لأن الناس كانوا لا يزالون يتململون على ظهر السفينة مذعورين، بيد أن تباشير الصباح حملت معها العزاء إذ كان الإعصار قد غاب بعيداً ولم يترك أثراً ولا أضراراً. وارتفع في نهاية الأمر السكون الأزرق المعروف في بحار الجنوب فوق تلألؤ الأمواج التي بدا لبعض الوقت أنها قد ندمت على ما بدر منها.

أخذ القوم يتنفّسون وانفكّ عِقال الألسنة وأصبح بالإمكان طرح الأسئلة التي كانت ستبدو البارحةَ غير محتشمة ومن قبيل سوء الطالع. وأفاد صانع السفن الصُّوريّ بشأن عِقد الذهب الذي كان حول عنقه:

ـ حين أكون في البحر والموت يهدِّد أتساءل على الدوام بفزع عن مصير جسدي إذا أصابني الغرق. لا شكّ في أنه سينقذف إلى الشاطىء حيث يكتشفه أحدهم ويتردّد بشأن مآله؛ فإذا وجد كل هذا الذهب قدّر أنه قد كوفىء بسخاء وقدَّم لرفاتي، عرفاناً منه بالجميل، القبرَ اللائق.

وكان هناك أيضاً ذلك البحّار الشاب الذي بدا عازماً على قتل نفسه. وكان عربياً. وقد قال إنه إذا لم يكن بدّ من حدوث الموت فهو يفضّل أن تُخلي روحه للهواء الطُّلْق وترحل إلى السموات العلى بدلاً من أن تبتلعها الأمواج وتبقى أسيرة الأرواح الشريرة المتحكِّمة بالأعماق.

أصبح من حقّ «ماني» مذّاك أن يسترعي جميع الأنظار. فإذ غدا موضع مزيد من الإجلال عمّا كان عليه في المدن التي اجتازها، يحيط به القوم على الدوام ويتبعونه ويصغون إليه، فقد كان يُدعى لمشاركة الربّان جميع وجبات طعامه وكل سهراته، ويحظى رفيقاه بالامتياز نفسه. وظلّت المؤن التي كدّسها «مالكوس» كما هي تقريباً حتى نهاية الرحلة.

ولم يكن الـربّـان يُفصـح عن شيء من أمـور الـرحلة إلا لـ «مـاني» ورفيقيْـهِ وصاحب السفينة. وعليه فإنّـه عندمـا لاحظ «مالكـوس» أن السفينة قـد مالت نحو الجنوب بدلاً من الذهاب مباشرة بـاتّجاه مشرق الشمس وافق الـربّان عـلى إيضاح الأمر له: .

ـ إن من يجهلون البحر لا يَرَوْنَ فيه إلاّ سهلاً شاسعاً من الماء. ولكنْ يوجـد هنا، كما على اليابسة، دروب وطرق ملتوية وأخرى غير نافذة، وكذلك جادّات واسعة ترسمهـا التيّارات والـرياح. مثـل الجادّة التي تصـل في هذا الفصـل بين رأس (الجـزيرة العـربية) و(الهنـد). وعلينا الانـطلاق إلى الجنـوب لبلوغهـا ثم سلوكها. وعند ذلك فقط نلتفّ باتجاه الشرق بأقصى سرعة كما يُفعـل في أفضل الطرق المُعْلَمَة. ونبلغ (دَبْ) من غير أن نرسو على الإطـلاق، وحتى من غير أن نرى اليابسة، إلاّ أحياناً بعض الجزر المسكونة بالخرافات المُرْعِبة ولا يجرؤ بحّـار على الاقتراب منها.

أقال الربان (دَبْ)؟ كانت المدينة قائمة في دلتا نهر «السند» على فرع أتربته شيئاً فشيئاً الأوحال المجروفة من أعلى الجبال. وأصبحت السفن القادرة على بلوغها أندر فأندر عاماً بعد عام. وذات صباح استيقظ الثغر وقد غرق وسط الأتربة. وعندها هجره الناس إلى مشاهد أخرى في الجوار مثل (تاتّا) و (سِنْدي) و (لَـهْري)، ومؤخّراً (كراتشي).

ماذا بقي من (دَبْ)؟ ما الذي بقي من قصورها ومعابدها فوق التلال ومبناها القرميدي اللون الخاص بالمكوس، ذلك البناء المحدَّد الأعلى الذي كان البحّارة يرقبونه من بعيد وكأنّه منارة؟ لقد كان بعض المسافرين لا يزالون يشيرون إلى وجوده حتى القرن السابع عشر. ثمّ تاه كل شيء. فلا أدنى أثر للمكان المعينّ، ولا ظلّ لطلل. ولا من أحدٍ يعلم. وفي اللحظة التي يُخَطّ فيها هذا السطر لا يزال بعض علماء الآثار ينقبّون في مصابّ «السند» عن أثر لأثر.

لم يكن في مقدور معاصري «ماني» تجاهل (دَبْ). ولا سيّما أكثرهم مغامرة. فقد كان جَرْس هذا الاسم يرنّ في آذانهم رنينَ نداء مُخْتَنِق ويولّد في نفوسهم الرغبة في الترحال. وفي ذلك الوقت كان الناس يتعرفّون على العالم من خلال همساته، ويُراد بالحدْس والتخمين، وكانت خرائط نصف الكرة شديدة التشابك والاختلاط، والجُزُر تنتفخ بنفحة الحكايات العجيبة فتتحوّل إلى قارّات، وتتحوّل البرزاخ إلى محيطات تنبثق منها مسوخ ووحوش كان يرسمها الجغرافيون. فوق الجبل المُشرِف على (دَبْ) كان كاتب حريص قد خطّ وكأنّه يُعينِّ منبع نهر: «قد تكون العَقارب وُلِدت في هذا الموضع».

كان الناس يتوقّعون في كل مرحلة من مراحل الرحلة أن يلتقوا الطاعون والوحوش والمجاعة والحرب والنهّابين، وكذلك العمالقة الأسطوريين ذوي العين الواحدة وجميع أنواع العجائب، بيد أنهم لم يكونوا يعدِلون لهذه الأسباب عن الرحيل. وكان الموت شوكة قارصة مألوفة. وكانت المغامرة تُعاش على هذا النحو. وكان يُقال وداعاً ويرحل الراحلون. بلا تاريخ ولا ضمان بالعودة. وعندما كان المرء يتحلّى بالإقدام وينعم بالحظّ والرياح المؤاتية فإنه كان يبلغ (دَبْ).

لقد كتب «ماني» أن العالم كان مقسّماً في أيامه إلى أربع إمبراطوريات عظمى، إمبراطورية «الرومان» وإمبراطورية «الفرس» الساسانيين وإمبراطورية «الصينيين» وإمبراطورية «أحباش البحر الأحمر» وَرَثَةِ مملكة «سبأ». ولم يكن رعايا هذه الإمبراطوريات يتخالطون في أيّ ثغر تخالُطَهم الحميم في (دَبْ)؛ وكانت بالنسبة إلى الخيزرانيّات الشراعية القادمة من (كانتون) المحطّة الأخيرة قبل (جزيرة العرب)؛ وكانت بوابة (الهند) للقادمين من «الغرب»؛ على أن تؤخذ هذه الكلمة الأخيرة بالمعنى الذي استخدمها به «ماني» نفسه، أي شاملة (ايطاليا) و (اليونان) و (قرطاجة)، ومعها أيضاً (مصر)، و (فينيقية) وجميع أراضي (آرام)، هذه الأراضي التي جَعَلنا انزلاقُ في «التاريخ» ندعوها الآن «الشرق» الأدنى.

ومن بين حكايات الأسفار الكثيرة التي قرأها ابن (بابل) في مكتبة «أصحاب الملابس البيضاء» كانت هناك حكاية بالذات قد ألهبت مُخيِّلته: حكاية «توما» الذي كان يلقّب بتوأم «يسوع»، والذي كان قد جاء إلى (الهند) لينشر فيها كلام «الناصري». ولربما كان «ماني» قد أراد الاقتداء به حين اعتزم القيام بهذه الرحلة.

والحقّ أن «توما» كان قد نزل في (دَبْ) وِفاقاً للمتداوَل من الأحاديث والأخبار.

- ٤ -

كانت جميع كنائس (الهند) تحمل في عصر «ماني» اسم «توما»، وتـزعم كلها أن الحَوارِيَّ بناها بنفسه وتحتفظ منه بالأساطير والذخائر. وكانت تلك البِيعِ في أكثر الأحيان متواضعة، وبعضها يقوم في كهوفِ (غندرا)، وكان يكفي لإذكاء هذا المعتقَد الذي لا يزال جديداً صليبٌ وثلاثةُ مشاعل.

ولم يكن الأمر على هذا النحو في (دَبْ). فقد كان الازدهار، كما يليق بمدينة تجّار، يشعّ في أمكنة العبادة، وما تضمّ من الأشياء المتعلّقة بها، وكان الذهب المكسوب بالطرق الشريفة يتدفّق عليها بدافع العرفان، والذهب المشكوك في أمره بدافع التوبة. وازدانت الكنيسة واتّسعت، وأخذ أهل المدينة يلتقون فيها عابري السبيل من مثل بحّار إسكندريّ داخلٍ حديثاً في الدين أو راغبٍ في التنصُّر من (أوستيا) وقد أبهجهما أن استطاعا في نهاية الأمر أن ينعما بممارسة عقيدتهما جِهاراً.

ومن الملائم القول إن المدينة كانت قد عاشت طويلاً تحت السيطرة المتسامحة التي مارسها «الكوشانيّون» ورثة «كانشكا» العظيم أحد ثلاثةٍ من أعدل الملوك الذين احتفظ «الشرق» بذكراهم، «كانشكا» الجليل الذي كان يشرِّفه، وهو في أَوْج نفوذه، أن يستضيف تحت سقفه بعض الرهبان المتسوِّلين. وقد كان

هاجس الأمراء «الكوشانيّين» على الدوام ألاّ يُبطلوا صيت سَلَفهم وأن يُظهروا مروءتهم وعدلهم في جميع المناسبات شاملين برعايتهم جميع المعتقدات. وكان نقدهم المتداوَل يحمل على الوجهين رموز ثمانٍ وعشرين عبادة مختلفة.

وعلى هذا كانت تقوم عند أطراف (حيّ) التجّار الأجانب كنيسة القديس «توما»، ومعابد «پوزييدون» و«أناهيتا» و«ڤشنو»، ومحاريب «اللات» و«يمّ»، وكنيس يُقال إنه بُنِيَ في عهد «الإسكندر»، وعلى طريق (تكسيلا) صومعة البوذيّين ودَيْرهم.

كانت تلك العبادات لا تزال تتعايش باحترام جنباً إلى جنب عندما وصل «ماني»، وكان أول ما قام به وهو يطأ اليابسة أن توجّه إلى الكنيسة البادية بجلاء من أرصفة المرسى. وكان اليوم يوم أحد والناس يحثّون الخُطى إلى فِنائها. وكان «توما» قد علّم الهنود ما علّم «يسوعُ» الحواريّين: أن يراعوا «السبت» من كل أسبوع بحميّة مثالية وأن يجتمعوا من جديد في الغداة من أجل شعائرهم الخاصّة، ولا سيّما من أجل التعليم وقراءة النصوص المقدّسة ومواعظ الأجداد والرسائل التَقَويّة الواردة من الطوائف المنتشرة في أرجاء الدنيا؛ وإذا حدث أن مرّ بالمدنية يوماً مؤمن ذائع الصيت فلْيُفسحْ له مجال الكلام.

وقد عرف «ماني»، بطريقته في شقّ جموع الناس وطَلّعه المتعالي، كيف يبدو منذ اللحظة الأولى رجلاً جديراً بأن يُصغى إليه. ولقد تخلّى له الكاهن بطيب خاطر عن المنبر، على الرغم من بقائه مُتَأهّباً وهو واقف في صدر الكنيسة. فقد كان هناك كثير من الأصوات المهرطقة، الجليّة أو الماكرة، بحيث ينبغي التدخّل في الوقت المناسب لإسكاتها، بل لطرد مُفسِد النفوس في بعض الأحيان بنُشدان المعونة من الحاضرين من حمّالي المرفأ البواسل الذين سوف يتفانَوْن في سبيل مثل هذا العمل الوَرِع.

كان «ماني» يتحدّث بالآرامية، ولم يكن مَنْ يفهمون كلّ ما يقول بالكثيرين: مُقيم القدّاس واثنان أو ثلاثة من المثقّفين... ومع ذلك فقد كان يُصغي إليه كل واحد من الحضور. أفلم يكن لسان «يسوع» و«توما» هو

المتجاوِب؟ وكان التأثّر بالغاً. وما كان المضمون ليهُمَّ كثيراً. فقد كان كل الأمر في نبرة الصوت، في بعض الأسماء المباركة التي كانت تطفو، في الوجه الناحل لذلك الرجل ذي الساق الملتوية القادم من الأراضي المقدّسة.

ولم يكن هو نفسه يسعى إلى مفاجأة مستمعيه. وإذ كان يَسلُك نفسه مباشرة في خلافة «يسوع» فقد أخذ يُعيد بأمانة أقواله كما كان «توما» قد نقلها. ولم تكن طريقته بالجديدة. فقد كان مسيحيو الإمبراطورية الرومانية يتصرّفون هكذا في كُنُس الشتات. كانوا يُعرِّفون بأنفسهم مُعلنين أنهم قدموا رأساً من (القدس)، ويذكرون ما جَدَّ من أمور خاصة بالطائفة، وينقلون ما يكابده سكّان (اليهودية) من بؤس وانتظار، ويتحدّثون عن التوراة مُستشهِدين من الذاكرة بالنصوص المُنبِئة بمجيء «مسيح مخلِّص»، ثم يوحون بأنه ربما كانت النبوءات في طريقها إلى التحقُّق من خلال ما كان يعانيه اليهود في ذلك الوقت من حَصَر. وكان أشدّهم مكراً يتمكّنون من الحديث طويلاً، وحين كانت تُكشف أقنعتهم في نهاية الأمر فبعد أن يكونوا قد أفلحوا في إغواء قسم من الحضور، أو على الأقل في إثارة الرغبة في سماع المزيد. وكان بعض الأشخاص يتبعونهم إلى الخارج، بل يدعونهم في بعض الأحيان لإكمال تعليمهم في منازلهم. وهكذا كان حواريٌّ من الحواريّين يتميّز بلباقته ومهارته من أولئك المهتاجين الذين كانوا ما إنْ يدخلون الكنيس حتى يجأروا بمعتقدهم الجديد، ثم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم في الخارج، وحدهم، وقد أُوسعوا ضرباً أحياناً، حتى قبل أن يكون جميع الحضور قد أدركوا سبب طردهم.

وتبعاً لهذا المعيار فقد كان «ماني» من معدن أعظم المبشِّرين، «بولس» أو «مرقص» أو «توما»، وهو يتصرّف في البِيَع والكنائس تصرُّفَ أسلافه في الكُنُس. وبالقدر الذي كانوا يتمتّعون به من الاقتناع والإيمان. وكما أن مسيحيّي (فلسطين) الأوائل كانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً خيراً من اليهود، بل ربّما اليهود الوحيدون الحقيقيون، فقدَ كان «ماني» مقتنعاً بأنه جاء يُكمل رسالة «المسيح» ويصقلها في عقيدة شاملة كفيلة بجمع كل معتقدات البشر الصادقة.

وإذ بدأ «ماني» موعظته في كنيسة (دَبْ) فقد أخذ «مالكوس» و«پاتيغ» يتلفّتان حولهما بقلق مترصِّديْن ردود فعل هؤلاء وأولئك، مترقِّبيْنَ أخفى رمشة تصدر عن الكاهن، سواء بفعل الامتعاض أو بفعل الموافقة. أكان سيُصغي حتى النهاية، أم أنه لن يلبث أن يزعق فجأة: يا للهرطقة، يا للتجديف؟!.

الغريب أن شيئاً لم يحدث. فلا حماسة ولا استنكار. ولا حتى لامبالاة. وكان بالإمكان أن تُقرأ الحميّة في جميع العيون، حميّة يخالطها الحزن. وأما الكاهن فقد أصغى بوقار لا يشي بأيّ انفعال إلى أن سكت الزائر فنهض وألقى عبارة شُكْر وامتدح بلاغة «ماني» ومعرفته الواسعة بالنصوص، وبعد صلاة قصيرة تلاها الحاضرون جماعةً، أشار بانصراف المصلِّين متمنِّياً لهم السلامة.

وبعد أن جثا القوم ورسموا إشارة الصليب رجعوا القهقرى في حين دعا الكاهن «ماني» ورفيقَيْهِ وأحد وجهاء الطائفة للحاق به إلى منزله، وهو بيت متواضع من القرميد مُلْحَق بالكنيسة.

قال:

ـ سامحونا أيها الإخوة الكرام إذا لم يكن الاستقبال الذي أعددناه لكم لائقاً بمقامكم وعلمكم. بيد أنكم قد تكونون شعرتم بالخوف الذي كان يساور جَمْع المؤمنين.

كان «پاتيغ» أشدّهم دهشة لهذا الاستهلال.

ـ ومع ذلك تبدو طائفتكم أسعد الطوائف كلها. لقد التقينا بإخوتكم في (المدائن) و(قشقر) وعشرين مدينة أخرى، ولم يكن صوت صلواتهم يُجلجل في أيّ منها.

وثنّى «مالكوس» مُؤَمِّناً: .

ـ إن السعادة التي تعرفونها نادرة. ففي الأقاليم الرومانية يُضطهَد المسيحيون، وفي الإمبراطورية الساسانية غدت عبادة النار ديناً رسميّاً، ولا يُتسامح فيها مع الطوائف الأخرى ما لم تكن قد كفّت عن استقطاب المريدين.

إنهم يُراقَبون عن كَثَب ويُبهَظون بالضرائب ويُحْتَجَزون في أحيائهم ويُرغمون على ارتداء زيّ يفرّقهم عن الآخرين.

بدا الكاهن متأثّراً. وسعيداً.

- كلامكما هو الحقيقة بعينها، وقد لا نكون شكرنا الربّ بما يكفي على أعوام الرحمة التي مرّت بنا... فلم يكن شيء ممّا ذكرتماه قائماً بالفعل في (دَبْ). وكنا نعيش وسط الناس ونلبس الزيّ نفسه، ونحكي بصوت مرتفع.

وإذ قال ذلك فقد اختنق صوته وسال دمعه. وتحاشاه «ماني» و«مالكوس» و«پاتيغ» بأنظارهم وقد سُقط في أيديهم. والوجيه وحده وضع على كتفه المتداعية فجأة يداً بَنَوِيّة ومؤاسية. وكان الكاهن قد دعاه في أثناء التعارف «بر - توما» واصفاً إيّاه بأنه أكثر تاجر مسيحي في المدينة تمتّعاً بالاحترام. كانت بشرته سمراء داكنة لا لمعان فيها، وكانت شحمتا أذنيه مخروقتين على طريقة الهنود؛ ومع ذلك فإنه، نظراً لاسمه الخاصّ بأبناء بلاد (آرام)، لا بدّ أن يكون هجيناً.

كان قد ظلّ حتى ذلك الوقت صامتاً، بيد أنه إذ أدرك ثقل الاستغلاق الذي بدأ يرين فقد جهد في تبديده.

- أيها الزائرون الكرام، أتكونون الناس الوحيدين الذين يجهلون في هذه المدينة أن ملوكنا، الأمراء الكوشانيين، قد انهزموا على يد الجيش الفارسي وانكفأوا إلى ما وراء الأنهر الخمسة؟

كان يتحدّث بآرامية شبه سليمة نابراً معظم المقاطع نبرة مغلوطة كما يفعل كثير من المتديّنين المعتقدين بأن من واجبهم تعلّم لغة الدين ولا تتاح لهم فرصة استعمالها في أحاديثهم اليومية. وعندما كانت تغيب كلمة عن باله كان يُحِلّ محلّها ما يعادلها في اليونانية وهو مستريح إلى أن كلّ شخص من الحاضرين يفهمها.

وألحّ في نفاد صبر ظاهٍ وقوراً:

ـ أيها الإخوة الكرام، ألم تلاحظوا أنه ليس من جندي واحد في شوارع (دَبْ)؟

وأجاب «مالكوس»:

ـ لقد لاحظت ذلك بالفعل، بيد أني وجدت فيه دليلاً على أن هذه المدينة تعرف السلام والأمن.

ـ لقد أخفت وداعة روحك عنك الحقيقة المؤلمة. إن مدينتنا متروكة في الواقع لمصيرها، فقد رحلت الحامية كما رحل الوالي؛ وقد استدعى قبل رحيله زعماء جميع الطوائف ونقابات الحِرَف لنُصْحِهم بإظهار الخضوع لسادة البلد الجُدُد.

ـ وأين هم إذن هؤلاء السادة الجُدُد؟

ـ يقال إن جيشهم يُعسكر على مسيرة يوم من هنا، فوق تلال (طوران)، وأنه بقيادة أمير يافع هو «هرمز» حفيد «أردشير» ملك الملوك. ماذا في نيّته أن يفعل؟ متى يستولي على مدينتنا؟ لماذا لم يطالب هذا الأمير الساساني بعدُ باستسلامنا وعساكره قريبة جداً منّا؟ إن الله تعالى لم يحفل بعدُ بجلاء هذه الأسئلة لنا. ومن هنا هذا الهلع الذي يستحوذ علينا جميعاً، حتى أشدّنا إيماناً، حتى أكثرنا ثقة بحكمته. هل زرتم أسواق المدينة؟

أجاب «پاتيغ»:

ـ لا، فما إن وطأت إحدى قَدَمَيْنا رصيف الميناء حتى سلكت الأخرى طريق هذا المكان المقدّس!

قال الكاهن بحميّة وقد هدأ روعه:

ـ ليبارك الله فيكم! وليملأ الربّ الأرض بأناس على شاكلتكم!

وذلك قبل أن يضيف «بر ـ توما»:

ـ لسوف تفهمون حين تتجوّلون في المدينة. لقد فرغت أماكن عرض البضائع واختفى الذهب والأقمشة الفاخرة والتوابل النادرة والأحجار الكريمة.

والفنادق التي يملكها أشخاص من (كانتون) مُقفرة، وكل خيزرانيّة ترسو تعود مُثقلة بالبضائع والتجّار. والفقراء في الأحياء الوضيعة هم أيضاً خائفون. حتى إن الرجال استعادوا نساءهم.

وإذ خشي ألا يفهم مستمعوه قصده فقد أسرع يُضيف:

- إنها العادة هنا. في كل شهر، عندما تكون المرأة غير طاهرة، يطردها زوجها من البيت ليبرهن للجميع أنه لم يَقْرَبْها؛ وتذهب للإقامة في الشارع تحت ظُلّة مدّة أسبوع. وأما الآن فسواء كنّ دَنِسات أو لا فقد أُعِدنَ إلى البيوت خوفاً من أن يأسرهنّ الجنود لدى وصولهم.

وتدخّل «مالكوس» قائلاً:

- يبدو لي هذا الخوف مُبالَغاً فيه. فلا يمكن أن يدخل الجيش مدينة استولى عليها من غير بعض النهب، ينبغي الاستسلام لهذا؛ غير أنه في الوسع تجنّب أسوأ الأمور. لا تَدَعوا أماكن عرض البضائع خالية، وإلّا انتقم الجنود من السكّان بفعل الحرمان. دعوا لهم شيئاً ينهبونه من غير أن يُفقروكم، وتظاهروا بأنكم مُصابون من غير أن تعترضوا. وإذا كانت المدينة قد صمّمت على التسليم بلا قتال، وإذا هي قدّمت إلى الأمير هدايا نفيسة، قلّت الأسلاب، وسرعان ما يكون بالإمكان إعادة البضائع المخبّأة إلى الواجهات. فأنا نفسي تاجر في (المدائن)، عاصمة «أردشير» بالذات، وفي مقدوري ممارسة تجارتي بلا كبير عناء. ولقد احتلّ «الساسانيون» خلال الأعوام الأخيرة عدّة ثغور مثل (شاراكس) التي قدِمنا منها؛ ولم تُعانِ هذه المدينة كثيراً من سيطرتهم. إنهم رجال نظام، وسوف يجعلونكم تدفعون مُكوساً، غير أنهم سيَدَعونكم تعملون ويحمونكم من القراصنة.

كان من حسنات أقوال «مالكوس» هذه أن شدّدت من عزيمة مخاطَبيْه، فأخذا، بدلاً من الاكتفاء بندب حظّهما وبالشكوى، يُواجهان أمر إرسال وفد لاستباق الغازي. واقترح الكاهن أن يضمّ أكثر التجّار وجاهةً محمَّلين بالهدايا، وأن ينطق باسم أهل المدينة أحد رجالها الموقَّرين.

وتدخّل «بر توما» بتهذيب قائلاً:

ـ بمقدورنا التفكير في حلول أفضل من هذا. أفلا يُشكّل رهط من التجّار المُلْجِمين الملتفّين في الطيالس وآذانُهم مثقلةٌ باللآلىء والزمرّد استفزازاً ودعوة إلى النهب والقتل؟

أطرق الكاهن مفكّراً. لقد كان بودّه الذهاب بنفسه مع الذين يُرشدون الطوائف الأخرى. بيد أنه إذا كان هؤلاء «الساسانيون» مُعادين حقّاً لمختلف الديانات فإنه يخشى أن يزيد حضوره من سُعارهم.

ظلّ «ماني» صامتاً طَوال تلك المناقشات، محتبِساً داخل ذاته وغائباً بحيث كان الآخَران قد نسياه تقريباً. وربما كانا يقدِّران أنّه غريب جدّاً عن هذه المشاغل الدنيوية. وعليه فقد دهشا تماماً لرؤيته فجأة يأخذ في الكلام بأبسط نبرة:

ـ أنا هو الذي سيذهب للقاء الأمير.

وأجفل «مالكوس»:

ـ آه، لا، لا، وعلى الأخصّ أنت!

وأخذ يبحث عن حجّة مقبولة تحجب ردّ فعله العفويّ جدّاً.

ـ أنت أيضاً رجل دين، وقد وصلتَ لتوّك فوق ذلك إلى هذه المدينة، فكيف تستطيع الكلام باسمها؟

استأنف «ماني» وكأنه لم يسمع ما قيل:

ـ أنا من (بابل)، أفليس من الحكمة أن يكون المتكلّم باسم هذه المدينة من رعايا «الساسانيين»؟ وأن يخاطبهم بلغة يفهمونها؟

وألحف «مالكوس» في التوسّل، فما زالت ماثلة لعينيه صورة ذلك الضابط الذي كان يطوف بمنزله.

ـ لقد غادرنا (المدائن) هرباً من جنود «أردشير» وتريد أن تهرع للقائهم!

قال «ماني» بسذاجة:

ـ ولكن لم يكن في نيّتي قطّ أن أهرب! لقد جئت بمهمّة.

ـ إلى الجيش الساساني؟

لم يردَّ ابن (بابل) على الفور. وبدا من جديد غائباً، غير أن وجهه كان يطفح بالبشر والإشراق. قال في نهاية الأمر:

ـ كنتُ لا أزال قبل هذا اليوم أجهل من أجل أية مهمّة سيق بي إلى (الهند). وأما الآن فإني أعرف!

ـ ٥ ـ

كـان «هرمـز»، حفيد سيّـد الإمبراطـورية، متـربّعاً فـوق أريكة من الخشب المحفور، تحت خيمة فسيحة هي قصر حقيقي من القماش رُفعت أذياله للسماح بدخول الهـواء والضوء. وكـان الضبّاط والكَتَبَـة مجتمعين حـوله ولكن بـرؤوس محنيّة وأذرع ممدودة إلى جانبي الجسم، ولم يكن هناك من لفظة في غير محلّها.

وكان أمين سرّه قد أعلمه بوجود الزائر قبل أن يوافق عـلى مثولـه بين يـديه. «رجل بساق ملتوية، جاء من مدينة (بابل). لقد رست سفينته قبل ثـلاثة أيـام في ميناء (دَبْ).

وسأل الأميرُ «ماني»:

ـ أية حمولة جلبتَ؟

ـ أقوالي، ولا شيء غير ذلك.

ـ إنها لبضاعة عجيبة!

عندما انفجر «هرمز» ضاحكاً أخذت الحلقة الفضيّة التي كـانت تجمع لحيتـه تتقافز، وأخذت حاشيته تتمايل من غير إغراق لأنه كان عليهم أن يحاكـوه ما إن يستعيد وقاره، خوفاً من الـظهور بمـظهر المتحـرّرين والوقحـين. ولم يكن الأمير

نفسه يضحك إلا بقَدْر وعيْنُه متربّصة باستمرار.

واستأنف قائلاً وكأن العبارة قد أعجبته حقاً:

ـ ما أروع الكلام من بضاعة. فهو لا يزن شيئاً في عنابر السفينة ويمكن أن يُغنيك إذا أحسنتَ مقايضته بالمال.

وإذ خشي أن يلتبس أمر تلميحاته على أخصّائه فقد شرح قائلاً:

ـ هذا الرجل راوية! وسوف أستدعيه من أجل أمسيات القُوّاد. هل تعرف الملاحم القديمة «قورش» و«دارا»، ومآثر «الأخمينيين» وبطولات سُلالتنا؟

ـ أعرف جيداً حكايات أخرى لم يسمع بها أحدٌ قطّ.

ـ حكاياتك الأخرى لستُ راغباً فيها. إن رجالي لا يحبّون الاستماع إلاّ إلى الملاحم التي يعرفونها. وإلاّ فإلى قصص الصيد. وإذا كنت تعرف شيئاً منها وعرفت كيف تجعلنا نعيشها من جديد فلن تعود خاليَ الوفاض.

ـ أقوالي لا أبيعها، بل أوزّعها.

ـ لستَ، على هذا، تاجراً ولا راوية.

غضب الأمير غضباً شديداً لإساءته فهم زائره إلى هذا الحدّ، وغضّ رجال الحاشية من أبصارهم عندما دنا أحد الرجال، وكانت تزين وجهه الخالي من الغضون لحيةٌ شقراء مُسرّحة بعناية وهو يرتدي عباءة صفراء لامعة تجرجر أذيالها على الأرض وياقتُها مطرّزة بخيوط سوداء. وانحنى بثقة كاملة على «هرمز» فأسرّ ببضع كلمات في أذُنه وعاد إلى مكانه.

ـ إن مستشاري الأمين، المُوبَذان «كردير» يقدِّر أنك أحد أتباع «الناصريّ» الذين أخذوا يتضاعفون في نواحي بلاد (ما بين النهرين). وأنك جئت إلى (دَبْ) لنشر هرطقتك فيها.

ـ لم آتِ إلى الأمير للكلام على الدين. فالأمر يتعلّق بمدينة. . .

وقاطعه «هرمز»:

ـ أريد أوّلاً أن أعرف إذا كانت نبوءة «كردير» صحيحة.

ـ لم يخطىء المُوبَذان الأجلّ إلاّ نصف خطأ. فأنا أُجِلّ «يسوع»، بيد أني أُجِلّ كذلك «بوذا» وسيِّدنا «زرادشت».

وأجفل «كردير» وكأنه قد صُفِع. وخطا خطوة نحو «ماني».

ـ يا للوقاحة التي يسمح هذا «الناصريّ» لنفسه أن يخلط بها اسم نبيّنا المقدَّس باسم الدجّالين!

استأنف «هرمز» كلامه قائلاً:

ـ ليعْد مُوبَذاننا الجليل إلى مكانه فلم يسعَ زائرنا بالتأكيد إلى إهانة أيّ كان. وعلى كل حالٍ فقد انتهى النقاش، والمناظرات في الأديان تجلب لي النعاس والحزن. لقد مرّ بي يوم رائع، وأنا في أفضل حالاتي، وأظنّ أنه ما من شخص في حاشيتي يودّ أن يتعكّر مزاجي.

وإذ بادر جميع أفراد حاشيته إلى التأمين على كلامه فقد اندفع في سرد دقيق وملتهب لما جرى في صيد اليوم.

ـ .... قلتُ للحرس ابتعدوا واتركوا لي هذا الأسد فلا أريد أن يكون في جسده آثار غير آثار رمحي. وتبعته، وحدي. لم يكن يسرع في ركضه، وفجأة وقف وتحرّك نحوي. وخافت فرسي فقفزتُ عنها إلى الأرض لتتمكّن من الفرار.

«كنا وحدنا الآن، وجهاً لوجه، أنا والسَّبُع. وتقدّم أحدنا من الآخر، بوداعة، ولم يكن أيّ منا يرغب في الإفلات من موت يمثل هذا القدْر من النُبْل. أقلّ من ستين خطوة كانت تفصل بيننا. وعندها أقبل رفاقي، متجاهلين أوامري. يحيطونني برماحهم. وتوقّف السَّبُع، ثم استدار وابتعد من غير أن يركض محتفظاً بجلاله. كانوا جميعهم يريدون الآن اللحاق به، غير أنني زعقت

بقوة فتسمّروا في أمكنتهم: «أمنعكم من مطاردته، لقد كان يسير نحوي سيْرَ الباسل المِقدام، ولم يبتعد إلاّ لأنكم أفسَدْتُم مبارزتنا. دعوه يَعِشْ!».

لم يكن «ماني» يتوقّع مثل هذه النهاية للصيد الأميري. وكان ردّ فعله عفوياً.

ـ ها هي ذي حكاية سوف أرويها لأهل (دَبْ)! وسيعلمون على هذا أن في وسعهم أن يرجوا من الغازي شهامة ورحمة، وأنه سوف يستحوذ على مدينتهم من غير ذبح ولا تدمير.

وإذ كان «هرمز» لا يزال مستغرقاً في ذكرياته فإنه لم يَصْدُرْ عنه أيّ ردّ. وكان المُوبَذان «كردير» هو الذي أجاب «ماني».

ـ لقد كان الأسد راغباً في القتال، ولهذا استحقّ عفو الأمير. وأهل (دَبْ) لا يرغبون في القتال، إنهم ليسوا سوى أغنام، وكالأغنام مصيرهم أن يُجزّوا ويُذبحوا.

ـ إنهم تجّار يُحظّر عليهم قانون «الإمبراطورية» حمل السلاح!

بهذا صاح «مالكوس» الذي كان يقف مع «پاتيغ» على باب الخيمة، والذي قلق بغتة من جرّاء مُنقلَب المناظرة.

وسأل المُوبَذان:

ـ ألم يكن للمدينة حامية؟

قال «مالكوس»:

ـ لقد رحل الجنود مع الحاكم!

ـ كان على الأهالي أن يستبقوهم، ألا يملكون ما يكفي من الذهب لدفع أجورهم؟ لماذا ينبغي أن يُظهر الأمير الشهامة لهؤلاء التجّار المُدهِنين البكّائين؟

وسأل «ماني»:

ـ ورأفة الأمير بالأسد، آلأسد هو الذي خرج منها مجيداً أم الأمير؟

وإذ طفا «هرمز» في نهاية الأمر على سطح أحلامه فقد أراد حقّاً أن يوافق بهزّة من رأسه على أن المجد قد كلّله هو. بيد أن «كردير» استأنف كلامه قائلاً:

ـ الأمير محارب، مثله مثل جميع أفراد السلالة الإلهية. وكلّ معركة هي بالنسبة إليه فرصة لإظهار قيمته. ولقد خيّب أهل (دَبْ) رجاءه. فلم يستحقّوا غير احتقاره.

واستُقبل هذا التصريح في القاعة بعاصفة حقيقية من التهليل. ولم يفقه «ماني» شيئاً من ذلك الاندفاع.

ـ ها هي ذي مدينة تتقبّل سلطة الأمير وتفتح له أبوابها وتستعدّ لاستقباله بالخضوع والطاعة وتقديم الهدايا إليه. ويُراد لها العقاب!

بيد أن الحقيقة أفلتت صافية ساذجة من فم «هرمز».

ـ مُذ سار جنودنا وهم لا يفكّرون في غير خيرات (دَبْ) وأسواقها ومستودعاتها ونسائها. وكنّا في كل مرّة كان عليهم فيها أن يقطعوا جبلاً أو صحراء من الملح نحدّثهم عن (دَبْ).

ـ ولكنْ إذا فتحت المدينة أبوابها فإنّ قانون «الإمبراطورية» يقضي بألاّ تُنهب!

بالضبط. لقد بدأ «ماني» يفهم في اللحظة التي كان يتحدّث فيها بالذات. فلم يكن يؤخذ على تجّار (دَبْ) جُبنهم، بل حكمتهم. وبرفضهم القتال كانوا يحرمون النهّابين من الأسلاب! وما كان من شأن هذا إلاّ أن يزيده شعوراً بأهمية ما كان يقوم به من مفاوضة باسم المدينة. ورفع صوته بالكلام:

ـ أبواب (دبْ) مفتوحة، ولوسف تبقى كذلك. لقد رحلت الحامية، وما من حامية أخرى ستحلّ محلّها. ليس في المدينة قطعة سلاح واحدة، فحتى سكاكين المطبخ كُسرت! في وسع الجنود أن يدخلوا، وبإمكانهم أن يقتلوا وينهبوا وينتهكوا الأعراض ويحرقوا، إلا أن ذلك سيكون خيانة تَبَعاً لقوانين «الإمبراطورية» ولقوانين «السماء». ولا يسعني أن أتصوّر لحظة أن يسمح بذلك أحد أبناء السلالة العظيمة الأبرار.

بدا التأثّر على «هرمز». وتابع «ماني»:

ـ كل ما يرغب فيه أهل (دَبْ) هو أن تُحترم حرّياتهم وتقاليدهم وأن تُحفظ أرواحهم وممتلكاتهم. ولا يَنْشُدون إلا العيش بسلام في كَنَف أمير مستقيم ومستنير. وهذه هي مصلحتهم، غير أنها مصلحة الأمير أيضاً. إن هذه المدينة هي جوهرة البلاد التي مهمّته غزوها وحكمها، فلماذا يريد هدمها؟.

وإذ شعر «كردير» بتردّد سيّده فقد أجاب:

ـ ليس من حقّ تجّار (الهند) مساءلة أنفسهم عن استقامة أمرائنا، وأقلّ من ذلك عن مصالح «الإمبراطورية». لقد حارب الجيش ووُعد بأن يُكافأ، ومن العدل أن يحظى بالمكافأة.

وترامت من صفّ القوّاد صيحات بالمساندة. فأضاف المُوبَذان:

ـ مهما يكن من أمر فتح (دَبْ) أبوابها وإخفاء أسلحتها فإنها تظلّ مدينة من مدن الكُفْر. لقد قامت جيوشنا المظفَّرة بالحملات لإخضاع المناطق الجاحدة ومعاقبتها وفرض «الدين الصحيح» عليها. وهذا حقّ وترغب فيه «السماء». سوف تُبْذَل (دَبْ) للجنود ثلاثة أيام، وتُهْدَم أمكنة العبادة جميعاً، ثم يُنَظَّم احتفال بوقائع العفو عند المرفأ، كما أمر «أردشير» الأعظم، ملك الملوك، سيّدنا جميعاً.

كان «هرمز» يعرف أن جدّه، ملك الملوك، يرغب في هذا الاحتفال، كما كان يعلم بتمنّيات قُوّاده. ولكنّه هو نفسه لم يكن عديم التأثّر بحجج «ماني» الذي كان يَنْشُد دعمه بشكل خفيّ:

ـ تبدو لي أقوال المُوبَذان «كردير» معقولة، فما هو جوابك عليها أيها «البابليّ»؟

ـ ينبغي أن أكون وقحاً جداً لكي أجرؤ على الإجابة، فلستُ إلا زائراً عابر سبيل، في حين أن المُوبَذان هو، بالطبع، شخص مرموق لأنه يسمح لنفسه بأن يبيّن للأمير أين يُوَجِّه جيوشه وكيف يتصرّف في المدن المَغْزُوّة؟.

وَوثب «كردير» ويده على قلبه:

ـ إذا كان جُرماً أن يَمْحَض المرء ملكَه النصيحةَ فلْأُعاقبْ! إنه لم يسبقْ لي يوماً أن تكلّمتُ أو عملتُ إلا لخير السلالة الإلّهية، وإلا لكي تمتدّ «الإمبراطورية» وديانتها تحت كل السموات وتسحقا جميع الأعداء بالأقدام وكأنّهم حيّات وعقارب ومخلوقات مؤذية. ولن يدع سيّدي، حفيد «أردشير» الأعظم، أحداً يُحرِّضه عليّ، ولا يكون أن كون قد نسي تعاليمَ «الأفستا» الحكيمةَ. أليس مكتوباً في «الكتاب» بأنه يجب إبادة الذئاب ذوات القدمينْ قبل إبادة الذئاب ذوات الأربع بكثير.

وسأل «هرمز» بسذاجة فائقة:

ـ أيّ ذئاب تعني؟

ـ إن الذئب ذا القوائم الأربع يثب على خروف لكي يلتهمه، ويستخدم الذئب ذو القدمينْ الكلام لإنامةِ حرص الراعي وسَوْقِ القطيع بأكمله على درب الضياع.

وصحّح «ماني» بقوله:

ـ الذئاب ذوات القدمينْ هي الناس الذين يعتبرون الآخرين فرائس، الذين يَسْعَوْن باستمرار إلى الإخضاع والحدّ والمعاقبة والإذلال. لقد ارتفع اليومَ صوت يقول إن سكّان (دَبْ) ليسوا سوى خِرفان وأنهم يستحقّون أن يُذبحوا. أليس هذا بالذات كلامَ ذئب ذي قدمينْ؟ ألم يُعَبِّر الراعي الحكيم المقدّس «زرادشت» عمّا عبّر عنه في «الأفستا» وهو يفكّر فيمن يَدْعون إلى مثل هذه المذابح؟

ـ بالإجمال فإن كلاًّ يفسِّر «الأفستا» على طريقته.

كان «هرمز» يسعى بهذه الملاحظة إلى أن يخفّف بعض الشيء من حدّة الهجوم الذي شُنَّ مباشرة على «كردير». إلاّ أن هذا انفجر بالغضب:

ـ عن أي تفسير يُحكى؟ إنه سيكـون من حقّ كلّ إنسـان على هـذا أن يفسّر النصـوص المقدّسـة عـلى هـواه؟ وعـلى هـذا يُقـارن تفسـير «نـاصـريّ» خـائن بتفسيري؟ ألستُ أنا مَنْ درس مدّة ستّة عشر عاماً «ديننا الصحيح»؟ ألستُ أنـا هنا من استُودِع ديانة «زرادشت»؟

ـ يحدث أن يظنّ امرؤ نفسه مُسْتَوْدَعاً رسالةً في حين أنه ليس سوى نعشها.

لم يُرِد «كردير» أن يُصدِّق أنّ مثل هذه الأقوال يمكن أن تكون موجَّهة إليه. فجعـل أقرب المـوجودين إليـه يردّدهـا لـه في أُذُنـه قبـل أن يتقـدّم من العمـود المركزي. وكان قد أعقب الصخب الـذي أحدثتـه عبارة «مـاني» صمت ثقيل. وقرأ ابن (بابل) في جميع العيون الإهانة والاستنكار. ربّما باستثناء عينيْ «هرمـز» اللتين لم تكونا تَخْلُوان من وَمْض ماكر. ومضٍ لا بدّ أن يكون المُوبَذان قد لمحه لأنه ابتدأ بنبرة عتاب:

ـ هل يعلم السيّد أيّة حُثالة هم هؤلاء «الناصريّون»؟.

لن يملك الوقت للمتابعة. فقد شاءت العناية الإلّهية أن يغـطّي على مقـاطعه الأولى عويل امرأة يافعة اقتحمت المكان وشقّت دائرة رجال الحاشية لترتمي عند قَدَمَي الأمير.

ـ أيها السيد! ابنتك! ابنتك!

ـ تكلّمي يا «ديناغ»!.

وأخذ يهزّ المرأة من كتفيها وقـد خارت قـواه بغتة وكـأنه صبيّ متعلّق بثـوب أمّه.

ـ كانت تركض قرب الساقية فوقعت، بلا حراك.

ـ جُرحت؟

ـ لا، ليس هناك من دم!

ـ هل تتنفّس؟.

أكّدت المرأة الفتيّة مُفزّعة:

ـ أجل. إنها تتنفّس، إلا أني لا أُفلح في إعادتها إلى رشدها.

ظلّ «هرمز» متهالكاً على أريكته ناسياً كل جلال، وعقله في دوّامة من كوابيس. ولاح لـ «كردير» أن اللحظة مؤاتية لمدّ إصبع يحمل اتّهاماً:

ـ الكفر الذي اخترق هذا المكان يجتذب إلينا المصائب. لقد نُطِق بكلماتٍ فيها تجديف. وإذا حدث مكروه لابنة الأمير فسيكون الذنب ذنب هذا «الناصريّ» اللعين الأعرج.

كان «هرمز» قد فقد كلّ تمييز وكلّ إرادة. وكان كل أحد في حاشيته يعرف ما يكنّ من تعلّق بابنته. فقد ماتت زوجة الأمير الأثيرة وهي تضعها فمحض «هرمز» الطفلةَ كلَّ ما كان يشعر به من حبّ لأمّها. وعليه فقد كان يكفي أن يُعينَ له «كردير» المسؤول المُفْتَرَض عن شقائه لكي ينظر صوب «ماني» بحنق بالغ. بيد أنّ هذا لم يفقد ثقته بنفسه:

ـ أنا طبيب. وبدلاً من استخدام مرض الطفلة في مناظرة دنيئة دعونا نحاول بالحري شفاءها. ليقُدْني أحدكم إليها!.

وإذ لم يرغب «هرمز» في إهمال أي رجاء فقد صحب «ماني» إلى سرير الطفلة.

كانت ممدّدة وشعرها مضفور بعناية فائقة وثوبها محتفظ بأمانةٍ بطيّاته حتى ليُقال إنها ميْتة. وكان صندوق أُسيء إقفاله فبرزت منه دُمية مكسورة هو الوحيد الذي يُضفي على الغرفة لمسة من فوضى وحياة. تلك الغرفة التي لم تكن مع ذلك غير مقطع من الخيمة الأميرية جُعل لها بمثابة باب صفٌّ من الحبال الدقيقة مثقلةً بالأصداف الملوّنة المرتفعة نحو ذراع عن الأرض. لكي تكون الأميرة وحدها القادرة على الدخول من غير أن تجعلها تُصَلْصِل.

وضع «ماني» خدّه على جبين الطفلة وجسّ نبضها، ورفع أحد أجفانها ثم طلب إلى المرأة الفتيّة التي دعاها الأمير «ديناغ» أن تقطع خمس قطع من القماش الأبيض النظيف، عَرْضُ كلٍ منها قَدْرُ راحة اليد، وتُحضر بضع قُبَصٍ(*) من الكافور. وغاب هو ليقطف من خلال الأشجار والآجام سُوقاً وأزهاراً ونباتات طبّية وعِنبات اختارها واحدة واحدة متمهّلاً في دعكها بين أصابعه للتحقّق من طبيعتها.

وإذ عاد إلى الغرفة بهذا الحِمْل المختلف الأشكال والأنواع فقد أخذ يعجن الأعشاب حتى صنع منها عجينة بلون التراب ذرّ عليها الكافور بسخاء قبل أن يفرشها لزقات سميكة فوق الخِرَق التي طواها ومهدها وسطّحها ووضع واحدة منها على جبين الطفلة مُغطّياً بها أُذُنَيْها أيضاً، ولفّ اثنتين أخريين حول المِعْصَمَيْنْ والأخيرتَيْنْ حول نهاية القدمينْ لشدّ الإبهامينْ. ثم تناول إبريقاً وأسال منه خيطاً نحيلاً من الماء لتبليل الكمادات.

لم يكن أحد حوله ليجسر على إصدار أدنى صوت. وكان «ماني» كلّما جفّت قطعة من القماش بلّلها بقليل من الماء، وعندما فرغ الإبريق بعد ساعة مدّ به يده إلى الأمير قائلاً:

ـ يجب ملؤه من ماء السَّيْل.

تناول «هرمز» الوعاء وناوله بحركة آمرة طبيعية إلى ضابط الخدمة الذي كان واقفاً خلفه.

قال «ماني» الذي تكلّم من غير أن يرفع عينيه:

ـ كلاّ، من يد الأميرا.

وإذ أخذت الساسانيَ الدهشةُ هنيهة فقد استعاد الإبريق وذهب يملأُه بنفسه تحت عيون الجنود ورجال الحاشية المشدوهين. ولا بدّ أن يكون قد افترض أن

(*) القُبَص جمع قَبصة وقُبصة، وهي ما يتناوله الإنسان بأطراف أصابعه (المترجم).

الماء سيكتسب فضائل شِفائية إذا جمعته يداه الأميريّتان. وكان ذلك هو ما يُتهامس به أيضاً في صفوف الحشد؛ وكان «مالكوس» واحداً من نفر كانوا الوحيدين الذين شكّوا في إمكان أن يكون التفسيرُ غيرَ ذلك. لقد سبق أن راقب صديقه في المدن التي زاراها بما يكفي لكي يعرف أنه حين كانت امرأة متواضعة تقدّم له طاسة من الحساء وبَصَلَة كان يقبلها بعِرفان، وحين كانت زوجة تاجر موسر تقدِّم له أطعمة باذخة كان يُبدي القدر نفسه من العِرفان وإن لم يذق سوى لقمة واحدة، ولكنْ في كلّ مرّة كانت فيها خادمة تمثُل حاملة صينية كان «ماني» يُعيدها قائلاً: «اذهبي إلى أسيادك وقولي لهم أن يحملوا إليّ الصَدَقة بأنفسهم لأتمكّن من مباركتهم وشكرهم!».

وعلى ذلك فقد كان الماء الذي طلبه من الأمير يريد أن يحصل عليه من الأمير لا من خادمه!.

وعاد «هرمز» حاملاً الإبريق بكلتا يديه. بِخَرَقٍ اصطدمتْ معه قدمه بأحد أعمدة الخيمة وتحرّك أقرب رجال الحاشية منه لكي يسندوه محوِّلين أنظارهم ما إن استعاد وضعه كيلا يلاحظ أنهم رأوه يتعثّر.

كان الوقت قد دخل الغَسَق، و«ماني» الجالس على ساقه المطوية إلى يسار الطفلة مستمرٌ في مراقبة الكمادات وتبليلها ما إن تجفّ. وإذ كانت «ديناغ» جاثية بقربه فقد بدت قَلِقة ومستعدّة على الدوام للنهوض إذا طلب منها ذلك. وكان «هرمز»، أشدّ الجميع تململاً، جالساً بجانب الطفلة من الناحية الأخرى.

وفجأة، وفيما كان كلّ واحد محتبساً داخل الصمت، قال الأمير:

- نذراً عليّ إذا شُفيت ابنتي ألاّ أُسْلِم (دَبْ) للنهب. وسوف يُصان الأهالي والمنازل والأسواق وأمكنة العبادة وكلّ شيء. ولكنْ فلتسْلَم ابنتي.

لم يتحرّك «ماني». وقال فقط بنبرة الدعاء نفسها:

- لِتَسْمَعِ «السماء» هذه الأقوال الحكيمة السخيّة!

ثم ران الصمت من جديد. وكانت الساعات تمضي، وعلى الرغم من

القلق فقد غلب النعاس حفيد ملك الملوك. واقترحت عليه «ديناغ» بصوت خافت أن ينال قسطاً من الراحة واعدة إيّاه بإيقاظه إذا اقتضت الحاجة. وتمدّد في مكانه متّخذاً من مِرفقه وسادة.

كان ضوء النهار قد أخذ ينفُذ من حاشية قماشية مرفوعة عندما اعتدل «هرمز». وكانت ست ساعات قد مرّت و«ديناغ» جالسة في الوضع نفسه و«ماني» يفرغ آخر قطرة ماء على جبين الطفلة. وهمس الأمير:

ـ أتريد أن أملأ الإبريق من جديد؟.

قال «ماني» بصوت مرتفع:

ـ لا داعي. لقد استجابت «السماء» لك. وشُفيت طفلتك.

وكأنما كانت البُنيّة تستجيب لندائه، فقد فتحت عينيها وابتسمت.

وسأل «هرمز» وهو ما يزال غير مصدِّق:

ـ هل أيقظتها؟

ـ لقد أمْتُّ مَرَضَها.

ومن غير أن يبدو «ماني» منفعلاً بنجاحه رفع ظهر الطفلة لُيريحه فوق وسادة ضخمة، ثم رفع الكمادات واحدة واحدة وأعطاها إلى الأمير.

ـ يجب رميها في السيْل، في المكان الذي مُلئ منه الإبريق.

أخذها «هرمز» فوق راحتيه المفتوحتين وكأنها قُربان نفيس. كانت عيناه مغرورقتين بالدمع ولسانه معقوداً.

ـ احملها بيد واحدة يا هذا وخُذْ بالأخرى يد ابنتك الراغبة في مرافقتك.

لقد كانت الطفلة تقف من جديد ضاحكة مرِحة متقافزة.

كانت تتعالى في الخارج تهليلة موجّهة إلى الأب وابنته، وكان «ماني» الذي لا يزال جالساً في المكان نفسه يُصغي إلى رَجْعها بحبورٍ وادعٍ. وبقربه كانت «ديناغ» قد أغفت منهوكة القوى. ولأول مرّة استطاع تأمُّلها. وكانا قد أمضيا ليلة بأكملها جنباً إلى جنب، وكان حضورها المتفاني اليقِظ مُطْمَئناً جداً، وكانا قد تشاطرا القلقَ نفسه والأملَ عينه. بيد أنه لم يكن بعدُ قد نظر إليها. بل إنه لم يلاحظ تلك الضفيرة الوحيدة، تلك الضفيرة الطويلة السوداء التي كانت الآن قد رمت بها إلى الأمام وكان طرفها يلامس رُكبته. ودهش «ماني» بعض الشيء إذ اكتشف أنها فتيّة جدّاً. فلم يكن يصدر عنها طَوال سهرتها غير حركات خاصّة بالبالغين. وأمّا الآن فكان أنفها وذقنها وشفتاها وكلّ ما في وجهها طفوليّاً ومُنَمْنَماً. ومرسوماً بعناية ودقّة. والشيء الوحيد الذي كان يُخرجها من الطفولة هو صدرها الذي بدا أنه كبر بسرعة فائقة على القماش الذي كان يشدّه. تُرى كم تبلغ من العمر؟ قال «ماني» في نفسه، ثلاثة عشر عاماً، وربما اثنا عشر.

وعلى مهل، ومن غير حركة خشنة قد توقظها، رفع لها رأسها وأراحه على وسادة مسطّحة.

- ٦ -

انتظر «ماني» أن تخفّ هتافات الجنود ورجال الحاشية ليغادر غرفة الطفلة ويذهب لوداع الأمير، يتبعه بزهو «مالكوس» و«پاتيغ».

- ليتبارك اليوم الذي ألقى بك في طريقي أيها الطبيب البابلي.

كانت عينا «هرمز» لا تزالان حمراوين من الانفعال، ولم يكن صوته قد استعاد طمأنينته.

- سأعطيك ما يكفي من الذهب لقضاء حياتك برمّتها بعيداً عن العوز.

- لا أريد أي ذهب. وما دمت قد اكتسبت هذه القدرة على الشفاء فكيف كان في مقدوري أن أترك تلك الطفلة تنطفىء من غير أن أحاول شيئاً؟ وإذا قبلتُ مكافأة على مثل هذا العمل فسأشعر بأني غير جدير بعلمي.

- أنا من سيكون غير جدير بثروته لو تركتك تذهب بلا مكافأة!

- لا أريد شيئاً من خيراتك ولا من الأمجاد التي في وسعك إغداقها. ومع ذلك. . .

توقّف بغتة وكأنّ نداء مُلِحّاً كان قد ترامى إليه فأخذ يتكلّم بما يُمليه عليه من بعيد.

ـ عندي مع ذلك طلب أتوجّه به إليك.

ـ تكلّم، إنه مُستجاب سلفاً!.

ـ أريد ألطف بنات بيتك.

ـ «ديناغ»؟

ـ هي بعينها.

لقد دهش «هرمز» بالتأكيد ويبدا جليّاً أنه انزعج. ولكن كيف السبيل إلى وصف ردّ الفعل الصادر عن «مالكوس» و«پاتيغ»؟ نظر كلّ منهما إلى «ماني» وكأنما حلّ محلّه مُشَعْوِذ يُشبهه تمام الشبه.

ـ قلت لك إني لن أرفض لك شيئاً، غير أن هذه الفتاة ليست من ممتلكاتي. إنها ابنة قائد كان عزيزاً عليّ ومات منذ أربع سنوات وهو يحارب إلى جانبي. وكنت قد دخلت برعونة قلب خطوط الأعداء فهرع لإنقاذي. وتمكّنت من النجاة بجرح سطحي، وأمّا هو فقد لقي حتفه من جرّاء غلطتي. وعليه فقد قرّرت كفالة ابنته الوحيدة التي كانت في التاسعة من عمرها وجعلتها في كنفي وعاملتها بحنان. وإذا كانت تهتمّ بابنتي أحياناً فلأنهما متعلّقتان الواحدة بالأخرى. بيد أن «ديناغ» ليست خادمة ولا أَمَة. وهي تنتمي إلى عشيرة «كارن» إحدى أكرم عشائر عِرقنا. وفي أسرتها، كما في أسرتي، لا تُعطى فتاة ضدّ إرادتها. تُراها توافق على أن تتبعك؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ هل قالته لك؟

ـ لم أطلب منها ذلك.

ـ ليُؤتَ بها فسأسألها بنفسي.

بدا أن كل هنيهة انتظار كانت تزيد في حَرَج «هرمز» الذي أخذ يفكّر بصوت مرتفع:

ـ لقد زارني أخي الأكبر «بهرام» منذ عام. ورأى «ديناغ» التي أعجبته فحدّثني بأمرها. وإذ كنت أدّخر لها في ذلك الحين مشاريع أخرى فقد أجبته بأنها لم تبلغ الحُلُم. وهذا صحيح، فلم تكن قد بلغته! ولكن عندما سيعلم «بهرام» أني تركت هذه الفتاة تذهب مع غيره فسوف يجِد عليّ إلى درجة الموت. هو الذي ينظر من قِبْل هذا نظرة حسد إلى كل ما أملكُ. . .

ومع ذلك فقد بدا الأمير، في نهاية حواره مع نفسه، مستسلماً:

ـ لقد أعدت إليّ طفلتي التي من لحمي ودمي أيها الطبيب البابلي ودَيْني لك لا حدود له. ولو أني كنت استطعت تسديده بكلمة بسيطة لخازن أموالي، أفكنتُ أشعر بأني برّأت ذمّتي؟.

ما إن اجتازوا محيط المعسكر حتى انحنى «مالكوس» على «ماني». وكانت الأسئلة ملء خدّيه، بيد أنها كانت تُختصر في واحد:

ـ ما الذي سنفعله بها؟.

وأشار بحركة من رأسه إلى «ديناغ» التي كانت مطيّتها خلف مطيّته مباشرة. وأ جاب «ماني» بصوت جليّ لتتمكّن من سماعه:

ـ سوف تذهب أنّى أذهب. وسيستضيفها هي أيضاً مَنْ يستضيفونني.

ـ امرأة! سوف يطرح الناس ألف سؤال.

ـ الناس يطرحون دائماً ألف سؤال.

ـ ذلك لأنهم بحاجة إلى أن يفهموا!.

يفهمون؟ إنّ «ماني» لم يكن قد سعى إلى أن يفهم. وذلك «الصوت» الداخلي أو السماوي الذي كان يتكلّم أحياناً على لسانه هو الذي جعله يطلب هذه الفتاة. ولقد أطاع. وجاءت «ديناغ» تنضمّ إلى قافلته.

ابتعد «مالكوس» في ذلك اليوم. ليعطي مكانه لـ «پاتيغ». الـذي كـان يجترّ وساوسه الخاصة.

ـ أتكون يا بنيّ قد عزمت على اتّخاذ زوجة؟.

اربدّ للحال وجه «ماني».

ـ لماذا يتّخذ الرجل زوجة إذا كان عليه أن يتخلّى عنها فيما بعدُ؟.

لم يكن للعبارة من جواب ولا جرؤ الأب على الدفاع عن نفسه. فهل سيبرّر تصرّفه مع «مريم» ورحيله عن (ماردين) بعـد لقائـه «سيتايي» في معبـد «نّبو»، ويُذكّر بالتنور المقطوعة في بستان النخيل؟ لقد كان يعرف جيداً ما سوف يكون ردّ فعل ابنه. وعليه فقد فضّل أن يتنحّى بدوره.

عندها أقبلت مـطيّة «ديناغ» تخبّ إلى جانب مـطيّة «مـاني». وكانـا كلاهمـا يتـطلّعان إلى البعيـد. بدهشـة وفرح. وبنـوع من الزّهْـو أيضـاً. وبـدا أن ابن (بابل) يستعيد فوق الحصان أصولـه «الپارتيّـة»، ربّما بسبب سـاقه الملتـوية التي كانت تجعله، على الأرض، يـظلع، ولكن تُمِدُّه بـاليُسر ما إنْ يكـونُ على ظهـر مطيّة. وكانت «ديناغ» تبدو أيضاً أكـثر جمالاً وهي عـلى الجواد؛ كـان جِذعهـا، وهـو في العادة محنيّ بفعـل خَفَـر المراهقـة، ينتصب ويتفتّـح. وكـانت بشرتهـا الملفوحة وضفيرتها الملقاة على كتفهـا وصفحة خـدّها المشـدودة إلى الأفق تضفي عليها هيئة مسافرةٍ في السهوب. ووجّه «ماني» بصره إليها وزادت مطيّته اقتراباً. حتى لقد اصطدم مهمازاهما.

لم يكونا قد تبادلا بعدُ كلمة واحدة. وطال صمتهـا. إلّا أنه كـان يعكّره من حين إلى آخر صيحات جنود المواكبة، أو بعض الصهيل.

وكان غبار المدينة قد بدأ يدوّم في البعيد.

لم يكن من النادر مُذ غادرت الحامية القديمـة القلعة وأبـراج السور أن يُـرى أولاد (دَبْ) مُصعّـدين حتى درب الحراسـة مدفـوعين بلذّة الـركض على طـول

الطريق الدائـري الذي كـان قبلاً محـظوراً، كما بـالتحديق عـلى مدى الأفق إلى ذلك الطريق الشماليّ الذي كان مُفْتَرَضاً أن يُقبل منـه المجتاحـون. والحقّ أنه في ذلك اليوم أخذ غلام بالصراخ وهرع أهل المدينة وتسلّقوا أعلى المباني متـدافعين وبأعداد كبيرة أنذرت السقوف معها بالانخساف. كـما تدافـع الناس إلى الأزقّـة المجاورة لباب «باشكييور» الذي تُرك مفتوحاً على مصراعيه للتدليل عـلى أن أية مقاومة لم تكن لتُتَوَقَّع.

سرت الشائعة بأسرع ممّا كان يركض الفـرسان الـذين كانـوا لا يزالـون على مسافة كبـيرة. حتى إن ابنة الإسكـافي العجوز الكـبرى الشهيرة بحـدّة بصرها، وكانت قد سيقت إلى البرج المُشْرِف، لم تلمح خوذة ولا بَيْرقاً. واكتفت بالتقدير بـأن الأمر لا يتعلّق بعـدُ بالجيش السـاساني، وإنمـا بمجرّد فصيلة قـد تكون من الكشّافين أو حاملة أمراً عسكرياً.

والـذي لم يكن في مقدورهـا تخمينه هـو أن تلك العجاجـة كـانت الثُلّة التي كلفها «هرمـز» إعادة «مـاني» إلى (دَبْ). وكانت تضمّ قـائداً وعشرة رجـال هم الجنود الساسانيون الأوائل الذين كان أهالي المدينة يلمحونهم منذ كانوا يعتبرون أنفسهم محاصَرين ومجتاحين سلفاً وهم يـرتعدون. وعـلى كل حـالٍ فقد تـوقّف الفرسان على بُعد ثلاث مراحل من الأسوار وترجّل القائد لتحيّة «ماني»، وبمزيد من العجلةفعل رفاقه، قبل أن يعود إلى صهوة جـواده ويستدير ويبتعد من غـير أن يتوقّف نظره لرؤية الناس أو المتاريس أو الباب المرحِّب. الباب الذي اجتازه «مالكوس» و«باتيغ» و«ديناغ» على مهـل راكبين قبـل أن يفسحوا الـطريق لعبور بطل اليوم.

كان وصول العسكـر القليل الصخب وتصرّفهم المـوقّر تجاه «مـاني» ورحيلهم المُقتَضَب آخر الأمر قد أثارت في الحشد مَرَحاً ساخراً نامّـاً عن عدم التصـديق. فقـد اقتُلع الخوف لـبرهة كـما تُقتلع شوكـة من الجلد. وعانق كـل منهم أقـرب شخص منه واغرورقت العيـون بالـدمع، وأخـذ كل فـرد يسبّح بحمـد الربّ الـذي كـان يعتقـد أنـه سبب المعجـزة ويبـاركـون جميعـاً مَنْ بـدا أنـه الـوسيلة لتحقُّقها.

دخل «ماني» المدينة منتصب الهامة وادعاً وكأنّه أمضى حياته جميعها في التخييل منتصراً وتجميع الغزوات المُظَفَّرة. أفيكون ذلك يقظة متأخّرة للدم الأميري الذه كان هو وأبوه قد أنكراه باستمرار؟ وإنه كثيراً ما حمل المغرقون في التديّن إلى الأنبياء أصولاً مَلَكِيّة كما لو أن لطف «السماء» لم يكن يؤكّد وحده على «الأرض» شرعيّةً كافية. أفلم يُنْسَب «يسوع» إلى سُلالة الملك «داود» و«بوذا» إلى سُلالة أمراء «الساقيا»؟ وسواء كان النبي ربّاً مُجسَّداً، أو، أفضل من ذلك، سليلَ حاكم لا يُعرف عنه شيء كثير، فينبغي الافتراض بأن بعض المريدين بحاجة إلى هذه الإضافات الهزيلة! وعلى الغِرار نفسه، وإذا كان ينبغي تصديق المؤرّخين، فإن «ماني» كان يحمل في ذاته منذ طفولته، وحتى في تقشّف بستان النخيل الخاصّ بـ «أصحاب الملابس البيضاء»، ذلك النعت الملكي الجليل الذي يُضفي الوقار، تُراثاً بارزاً للملوك «الپارتيين» الذين امتدّت إمبراطوريتهم قديماً إلى (دَبْ). وإلاّ فكيف تجرّأ على مخاطبة حفيد «أردشير»، والرؤوس المتوّجة فيما بعد؟ وكيف كان في مكنته التبختر بمثل هذا اليُسر في تلك المدينة المُحْتَضَرة؟.

لقد تقاطر إليه أهل المدينة من جميع أحيائها نافدي الصبر لمساءلته من غير أن يسمح أي منهم لنفسه مع ذلك بمواجهته، ولا حتى الذين اعترفوا به، ولا حتى الذين كانوا قد استمعوا إلى عظته في الكنيسة. وافترض «مالكوس» أن صديقه كان يتوجّه ببساطة إلى منزل الوجيه المسيحي «بر ـ توما» الذي كان قد آواهم في الليلة الوحيدة التي قَضَوْها في المدينة. بيد أنه سلك طريقاً آخر، الطريق الموصل إلى مقرّ الحاكم السابق الذي عبر سياجه من غير أن تفكّر الميليشيا البلدية التي كانت تحرسه باعتراض سبيله. وهناك أيضاً، وفيما كان كل أحد يستعدّ لرؤيته صاعداً درجات القصر، ابتعد فجأة عن الممشى المبلّط ليتقدّم خلال الحديقة باتّجاه شجرة توت أبيض، توتة ربّما كانت، حسب زعم المُسِنّين، أقدم شجرة في الناحية، وكانت تنتصب متوحّدةً فوق تربة جافّة جرداء، باسطةً في تلك الساعة نحو الشرق ظلّها الجائر.

ترجّل «ماني» ورفع ذراعيه كي يتوقّف الموكب ويتمكّن هو من المشي وحده

نحـو شجرة التـوت التي انحنى أمامهـا مُلْصِقاً راحتيـه بجذعهـا. ولقد قـال إنه سيقضي هنا أيامه ولياليه ما بقي في هذه المدينة.

اقترب أهالي المدينة عند ذلك راسمين هالة حوله وتجرّأت أقلّ الشفاه خجـلاً على طرح الأسئلة المنتظَرة: هل تحدّث إلى الغازي؟ أي صنف من الرجال كـان «هرمز» ذاك؟ متى سيستحـوذ على المـدينة؟ مـا المصير الـذي يخبّئه لهم؟ هـل في الوسع استئناف التجارة؟ هل ستُحْتَرم العبادات؟

وأجاب:

ـ إن الأمـير الذي استقبلني لا يخلو من حكمـة ولا من تمييز. وهنـاك في كل إنسان شرارة مختبئة تحت الخوذات ومظاهر الزينة ودروع الزرد.

وإذا لم يكن «مـاني» قـد رغب في الـوعـد بشيء فقـد أدخلت هـذه الكلمات القليلة الطمأنينـة على القلوب، وازدادت الإحـاطة بـه. وما كـان أغرب رؤيـة مدينة التجّار الموقّرة هذه تتعـزّى على هـذا النحو بجـوار متسوِّل نـزل في أرضها حـديثاً! والحقّ أن أهـالي (دَبْ) كانـوا على يقـين مشبوب بـأنه، مـا دام «ماني» هناك، مُسنِداً ظهره إلى شجرتـه، وما دام يتحـدّث ويصلّي ويسمـح بأن تخـدمه أشدّ النساء تواضعاً، فلن يُهاجم مدينتهم أي جيش من جيوش الدنيـا. وهكذا أخذت الحياة تعود شيئاً فشيئاً إلى أرصفة الميناء. وأخذ الناس يحمِّلون ويُفْرِغون من جـديد، ومن جـديد راحـوا يغامـرون في الأسواق بـزخرفـة أمـاكن عـرض البضائع.

أخذ أهالي المدينة يجتمعـون مذّاك تحت شجـرة التوت مختلطةً جميعُ طبقاتهم ومعتقداتهم. وهناك كانوا يتّخذون قراراتهم ويحلّون خلافاتهم، وكانت أصواتهم تحتدّ أحياناً، ولكنّ كلمة من فم «ماني» كانت كافية لكي يرين الصمت وتُصيخ الآذان. وكان ذلك في الحقّ جمهور المستمعين المتعطِّش إلى الحقيقة الـذي طالما تهيّـأ ابن (بـابـل) لخـطب ودِّه. وقـــد انبغى أن يحضر إلى (الهنـد) ليلتقي بـــه ويكتشف في هذه المرآة المتعدِّدة السطوح صورته الخاصّة «رسولاً»:

ـ ليتبارك جميع حكماء الأزمنة الماضية والحاضرة والآتية، ليتبارك «يسوع» و«ساقيا ـ موني» و«زرادشت»، فقد أضاء أقوالهم «نور» واحد، وهو «النور» الذي يُشِعّ اليومَ على (دَبْ). ولن يكون من يتّبع منكم تعليمي مُلْزَماً بهجر المعبد الذي صلّى فيه على الدوام، ولا المذبح الذي يمجّد عليه أرواح أجداده.

كانت أقوال «ماني» عذبة في آذان الناس المتسامحين في (دَبْ) التي كانت كثيرٌ من المعتقدات تزدهر فيها. وكان مَنْ تعلّقوا بأهداب دينه السمْح في أوقات المحنة هذه كُثُراً. بيد أنه ظهر بين الحضور في الوقت نفسه مُعارِضون صعقتهم أقوال «ماني» وأضاعت صوابهم:

ـ إذا كنت تقول ما قال «المسيح» أو «بوذا» فلماذا تسعى إلى إنشاء دين جديد؟

ـ إن الذي ارتفع في «الغرب» لم يُزهر أمله قطّ في «الشرق»؛ والذي ارتفع في «الشرق» لم يبلغ صوته «الغرب». أفينبغي أن تكتسي كلّ حقيقة ثوبَ مَنْ تَلقّوْها ونَبْرَتَهم؟

ـ أوافق أيها «المعلّم» على أن بعض المعتقدات تستحقّ أن تُحترم. ولكنْ ماذا عن الوثنيين، وعن عَبَدة الشمس؟

ـ أتعتقد بأنْ يشعر ملك بالحسد إذا أنتَ قبّلتَ حاشية ثوبه؟ وليست الشمس سوى وَشْيٍ على رداء «الله تعالى»، بيد أنّه من خلال هذا الوَشْيِ المتألّق يستطيع الناس أن يتأمّلوا «نوره» بشكل أفضل.

«ويظنّ الناس أنهم يعبدون الربوبية في حين لم يعرفوا قطّ منها غير التجلّيات، تجلّيات من خشب أو ذهب أو جصّ أو رسم أو كلمات أو أفكار.

ـ والذين لا يعترفون بأيّ إله؟

ـ إن من يرفض رؤية «الله» في الصُّوَر التي تُقدَّم إليه هو أقرب أحياناً من غيره إلى صورة «الله» الحقيقية.

سئل يوماً:

ـ ما اسم الذي أنت «رسوله»؟

ـ أدعوه «مَلِك حدائق النور».

ـ أليس «الأب»، «القدير»، «الرؤوف»، «خالق» كل شيء؟

ـ كيف يمكن أن يكون رؤوفاً وقديراً في الوقت نفسه؟ أهو الذي خلق الجُذام والحرب؟ أهو الذي يَدَع الأطفال يموتون والأبرياء يُعذَّبون؟ أهو الذي خلق «الظُلُماتِ» و«سيّدَها»؟ وهل سمح بأن يوجد هذا الأخير؟ وإذا كان في وسعه أن يُلاشيه فلماذا لا يفعل؟ وإذا لم يكن يريد مُلاشاة «الظُلُمات» فلأنه ليس رؤوفاً؛ وإذا كان يريد مُلاشاتها ولا يتمكّن فمعنى ذلك أنه ليس قديراً.

وأضاف بعد سكتة قصيرة:

ـ لقد عُهِد بـ «الخَلْق» إلى الإنسان. وإليه يرجع قبل أيّ كان أن يجعل «الظُلُمات» تتقهقر.

كانت قد انقضت عشرة أيام على وجود ابن (بابل) قرب شجرة التوت عندما استولى الجيش الساساني على (دَبْ). ولقد انتشر على أبوابها وفي أبراج السور وعلى أرصفة الميناء وفي شوارع الأسواق. من غير قتل ولا نهب. ثم أتى «هرمز» يُقيم مع حاشيته في مقرّ الحاكم السابق.

ولقد استدعاه «هرمز» في الواقع على عجل ذات ليلة. وكان «ماني» لا يزال ساهراً مستنداً بظهره إلى الشجرة؛ وأعانه ضابط الخدمة على النهوض بجذبة من يده؛ وكان يحمل بالأخرى مِشعلاً.

كان مع الأمير كاتب رفيع المقام.

ـ إنه «نَمْ ـ فه» رَجُلي الثقة. لقد وصل من (المدائن).

وابتدر الكاتب:

ـ لقد حلّت بالعالم طامّة كبرى. إن سيّدنا جميعاً، «أردشير» العظيم، ملك الملوك، الإلّه بين الناس، والإنسان بين الآلهة، قد رحل للقاء الملوك الأماجد...

وقاطعه «هرمز»:

ـ مات جدّي.

كان هلعٌ قد خبا في عينيه. وارتسم في عينيْ «ماني» طريق العودة.

* * *

لم يكن لقاء هذا الأمير الساساني بلا غدٍ. بل كانت علاقةٌ قد وُلِدت بين «ماني» وأقوى أسرة حاكمة في زمانها، علاقة سوف تتّسم بالاضطراب والحدّة، والقسوة في بعض الأحيان. وستكون على الدوام مُلْتَبِسة، كما ينبغي أن تكون العلاقات بين حَمَلة الأفكار وحَمَلة الصولجانات.

ولسوف يرتبك بفعلها وجودُ ابن (بابل). ولكنْ وجود «الإمبراطورية» أيضاً.

القسم الثالث

بجوار الملوك

قدِمتُ من بلاد (بابل)
لأجعل صيحةً تُجلجل
عَبْرَ الدنيا.

«ماني»

- ١ -

بينما كان «ماني» بانتظار دوره لدخول قاعة «العرش» لم يكن قادراً على انتزاع عينيه عن الباب الضخم الذي اصطفّت أمامه اللبدات القانية الحُمرة التي كان يعتمرها رجال الحرس. ألم يكن ذلك الباب هو الذي ذكره «تَوْأَمُه» عندما كان يتحدّث عن غزو (المدائن)؟ وعليه فقد انبغى أن يذهب إلى ضفاف «السند» ويلتقي ذلك الأمير الساساني ويشفي ابنته ليحصل على كتاب التقديم هذا الموجَّهِ من «هرمز» إلى أبيه «شاهبور» سيِّدِ «الإمبراطورية» الجديد...

وفي المدخل ترك لهم أن يصِفوا له مرّة ثانية مراسم الاحتفال. وكانت تتردّد على شَفَتَيَ المكلّف بالمراسم كلمةٌ وكأنها تعزيمة، وهي «پادهام». هكذا كانوا يسمّون فيَ أيام «الساسانيين» المنديل الأبيض الذي كان على أي شخص يقترب من الأشياء المقدّسة أن يضعه على فمه خوفاً من أن تتلوّث بنَفَس إنسانٍ غير مخلَّد؛ نَفَسِ كاهن وهو يُقيم احتفالاً دينياً أمام هيكل النار، أو نَفَسِ كلّ إنسان يتحدّث في الملأ إلى شخص ملك الملوك.

وعليه فقد كان رجال البلاط يحتفظون على الدوام بـ«پادهام» في أرداتهم، ويجد الزوّار أنفسهم يُزوَّدون بواحد يقدّمه إليهم وجهاء القصر وينهمكون في الوقت نفسه في تعليمهم إشارة الإجلال، سبّابةُ اليد اليمنى ممدودةٌ إلى الأمام، نحو الأعلى، ومحنيّة قليلاً. ويُلقّنونهم العبارات المُتقبَّلة. ففي (المدائن)، كما في

(مصر) أيام الأسر الحاكمة، وكما في (روما) على كل حال، وإن بنمط أكثر إفراطاً في الدّقّة، كان العاهل معظّماً. ولم يكن في وسع المرء وهو يخاطبه أن يستخدم اسماً ولا لقباً. وكان هناك عبارات مخصَّصة له ولا يُفترض أن يحيد عنها إنسان، «أنتم، أيها الأشخاص الربّانيون!»، أو «أنتم، أيها الآلهة الخالدون!»، أو على الأقلّ «أيها الإله!».

كانت كل رتبة في تسلسل رجال البلاط تهدف إلى توسيع الهوّة بين الملك وسائر الأحياء. وكان كل شيء يُسهم في صنع هذه الصورة للقدرة غير البشرية، وللمظهر السماوي، وللخلود. وكانت القبّة في قاعة العرش من الارتفاع بحيث يُخيَّل أنها بُنيت لمَجْمَع من العمالقة. ومهما سما البصر على امتداد الجدران فإنه لم يكن يلتقي سوى ستائر الزينة، فلا قَدْر إبهام واحد يشي بعُري السطوح الأصلي.

ولم يكن في صدر الحجرة الفسيحة سوى منصّة يحجزها ستار توزّعت حوله جماعة رجال البلاط. فعلى بُعد عشر أذرع الأشخاصُ ذوو الدم الملكي؛ وأبعد منهم بعشر أذرع أخصّاء «شاهبور»، ملك الملوك، مُؤاكلوه ومستشاروه المقرَّبون، والأعيان الدينيّون من شارحي «الأفستا» وقارئيها، وكذلك بعض العلماء والمنجّمين والأطباء الذائعي الصيت؛ وعلى بُعد عشر أذرع أخرى كان مُؤْنِسو الملك من مُهَرِّجين وحواة وبهلوانات وراقصين، وجميعهم أشخاص معتبرون في البلاط الساساني أكثر من المعماريين والرسّامين والشعراء؛ ولم يكونوا يُقاسُون مع ذلك بالموسيقيّين. فقد كان مؤلّفو الموسيقى وسادة الآلات المُعْتَرَف بفضلهم يُعامَلون، تبعاً لرغبات مؤسس السُّلالة التي اتّخذت صفة القوانين، على قدم المساواة مع الأمراء الملكيين، وعليه فقد كانوا يجلسون على بعد عشر أذرع من الستار، ولكن إلى اليسار. وخلفهم كان يجلس الموسيقيّون والمغنّون من الدرجة الثانية، ثم، على بُعد عشر أذرع أخرى، جماعة العازفين على العود والزند والطُّنبور.

ولبعث النشاط في الحضور المسترخين كان قرع طبول يسبق الصيحة

التقليدية: «أيها الناس، ليحرص لسانكم على حفظ رأسكم، فـ «سيّدكم» وسطكم.» ثم تمتدّ أيدٍ خفيّة لإزاحة الستار فيما يعزف موسيقيّو الصف الأول النغم المخصَّص لليوم وهو لن يُسمع قبل اليوم نفسه من العام المُقبل.

وخرّ كل إنسان ساجداً وجبينه إلى الأرض بانتظار أمر جديد يسمح له برفع عينيه: لقد كان الملك هنا وثناً بلا حراك، كتلة مُفرطة مُغْشِية من ذهب؛ ذهب منسوج مع الثوب والوسادة والستائر، وذهب خالص في العرش، وذهب مجدول عقوداً وخواتم ومشابك؛ وكانت اللحية نفسها مرشوشة بنثار الذهب الباهر الذي كان يتلألأ أيضاً على الشفتيْن والأهداب والحاجبيْن.

وكان بالإمكان أن يُرى فوق الملك التاجُ الأسطوري الذي يزن أكثر من زنة رجل وما كان أي رأس قادراً على حمله، حتى وإن كان رأساً إمبراطورياً. غير أنه كان ينبغي الاقتراب منه لاكتشاف أنه مربوط بسلسلة دقيقة تُثبِّت حلقتها في القُبّة. حتى إذا انسحب الملك ظلّ التاج معلّقاً وكأنما بمعجزة فوق العرش الخاوي؛ فالبشر المؤلّهون يشيخون ويمضون وتبقى الجلالة.

كان الوهم من بعيد كاملاً، فلم يكن يُشاهَد غير كائن خرافي غير معقول ومولود من جميع ما يُفَزِّع البشر ويُثير حسدهم المَرَضيّ، ظهور فخم يبعث على التحجُّر ويخلب اللبّ ويفرض الخضوع والامتثال.

وكان ذلك الوحش الخرافي هو الذي أتى «ماني» يروّضه!.

لم يكن ابن (بابل) يكفّ في هذا الوقت عن أن ينسخ في ذهنه كل خطوة أو حركة، وكان يحفظ عن ظهر قلب الكلمات التي عزم على النطق بها، ولا سيّما الأولى، كلمات لحظات الطيش، تلك التي يُهَمْهَم بها في العادة تحت أنظار المحقّقين، وهذه، من بين جميع أهمِّ الكلمات، كان يمضغها ويُعيد بلا توقُّف وبنَزَق.

ثم صاح صوتٌ باسمه. والتفت ليتأكّد من أنه كان قد أحسن السَمْع. وكان الوقت قد فات، إذ فُتح الباب وكانت يدٌ قد دفعته، فالويل لمن يجعل «شاهبور» الإلهي ينتظر! وتقدّم «ماني» فوق البساط المطرَّز الجانبين الذي يقود

إلى درجات العرش، ولكنه كان يشعر بأنه قد ضلّ لفرط فَقْده كلَّ مفهوم من مفاهيم المسافات. وخُيِّل إليه أن الملك كان قريباً. القُربَ الذي يمكن أن تكون عليه شمس (ماردين) قريبة إلى حدّ الانبهار، إلى حدّ اللفح، ومع ذلك فقد كان الطريق الناعم الملمس الذي يقود إليه يبدو بلا نهاية ووَعْراً ومُنْحَدِراً، وكان يُطوى بانطباع من البطء الشديد واللُّهاث والضِّيق. وأصبح الوقت وقت ريب وندم. ندم على أنه لم يُصغِ إلى نصائح «مالكوس» الرشيدة وهو لا يزال يتوسّل إليه حتى مدخل القصر أن يعدِل عمّا هو بسبيله. ندم على أنّه لم يبقَ مختبئاً في بستان نخيله «مثل عرق بخور مريم بين الحجارة» كما كان سيقول «سيتابي». وكان قد مرّ على ذلك عامان. عامان، إنهما الأبد! وتذكّر «ماني» ذلك، بيد أن ذكرياته كانت مُثْقَلة بالضّباب وكأنها كانت تنتمي إلى حياة سابقة.

واستحضر «تَوْأَمَة»، «صِنوَه»، فليظهرْ! بحقّ الرحمة! لقد كان بحاجة إلى التأكّد من أنه هنا، معه، وأنه يسير إلى جانبه على طريق الامتحان هذا، وأنه سيأخذ الكلام عنه إذا خانه فمه هو. «احتفظ بدَعَتك يا «ماني»، وأنسَ الذهب وعدِّ عن البذخ، لا تَدَعْ أبداً إنساناً يَبْهرك، مِلِكاً كان أو نبيّاً. لقد استودعه القَدَر ما استودعك وما استودع كلّ أحد. والمهمّ هو إدراك ذلك. فبعد ألف عام لن يتحدَّث أحد عن «شاهبور» إلا لأن دريك كان قد اجتاز ببلاطه».

وصل آخر الأمر إلى محاذاة الحاجب. وأشار إليه هذا أن يخِرّ إلى الأرض، ثم همس إليه أنه قد سُمح له بالنهوض. وسحب «ماني» من رُدنه الـ «پادهام» النظيف قبل أن يتكلّم.

ـ المجد لأقوى الناس! ولتُستَجب أكرمُ أمانيه!.

لم تكن العبارة مستعملة فقطّب صاحب الرفعة حاجبيه وارتعد وجه الملك السامي بدهشة خاصّة ببني البشر. بيد أن شيئاً ممّا قيل لم يكن خارجاً على التبجيل. ودُعي «ماني» آخر الأمر بحركة إلى تقديم نفسه.

ـ إني طبيب من بلاد (بابل).

ـ لقد أرسل إليّ ابني الحبيب كتاباً مجيداً بحقّك. يبدو أنك عرفت كيف تروق في عينه.

ـ شاعت «العناية» أن أشفي ابنته التي كان يظنّ أنه فقدها.

ـ كيف تطبِّب؟

ـ بالكلمة وبالنباتات.

ـ والسكين؟ والنار؟ والعَلَق؟

ـ سواي أمهر مني فيها.

لم يكن «ماني» ليدري أن كلمة «عَلَق» كانت شَرَكاً نظراً لكُره «شاهبور» الشديد لهذه الطريقة في العِلاج ولمن يستخدمونها. وإذ اطمأنّ العاهل إلى هذه النقطة فقد تابع قائلاً:

ـ لوَّح ابني كذلك ببعض الأفكار التي ترغب في نشرها.

ـ لقد أُوحي إليّ برسالة.

تعالت غمغمات في صفوف رجال الحاشية، غير أن أحداً لم يجرؤ على استباق ردّ فعل الملك الذي كان بانتظار أن يُكمل «ماني» كلامه. وإذ طال انتظار بقية القول فقد سأل زائره ببادرة انزعاج:

ـ أية رسالة؟ إننا مُصغون إليك.

ـ لقد بدأ عصر جديد، وهو يستلزم ديناً جديداً، ديناً لا يكون لشعب واحد ولا لعِرق واحد ولا يقتصر على إرشاد واحد.

لم يكن «ماني» بحاجة قطّ إلى تحديد الشعب أو العرق أو الإرشاد المشار إليها تلميحاً في حديثه. ولوَّح منديل بين وجهاء الصفّ الثاني.

ـ لقد سبق أن قابلت هذا الرجل!.

كفى «ماني» أن يلتفت ليلمح في حشد الكهنة لحية «كردير» الشقراء.

ـ إنه «ناصريّ» وألدّ أعداء ديانتنا. ولقد اعترض سبيلي عندما كنت في (الهند) بقرب جيشنا المظفّر. ولقد أمرني سيّدنا الإلهيّ «أردشير» بإشعال نار كبيرة مقدّسة في تلك البلاد للاحتفال بنصر الأسرة المجيدة وخنق أصوات الكَفَرَة. بيد أن هذا «الناصريّ» قد ضاعف الإساءات لمنعي من إنجاز ذلك العمل التَّقَوِيّ.

لقد فاز «كردير». فقد كان في وسع الحضور بعد الآن أن يُبدوا ما لحق بهم من إهانة بسبب موقف هذا الطبيب البابلي من المرحوم ملك الملوك. ومن بين جميع الذين كانت عيونهم مُسَلَّطة الآن على «ماني»، بدا «شاهبور» أقلّهم عداوة، وواحداً من الندرة التي لا تزال مستعدّة لسماع دفاعه عن نفسه. وتابع «ماني»:

ـ لست هنا إلا لإبلاغ أوّل الناس رسالة. لقد أضفت «السماء» على حكمه من الثقل أكثر ممّا منحت جميع آرائنا. وحبّذا لو تلقّى كلماتي بَدَعَةٍ من غير أن يدع مجالاً للعداوة التي يريد بعضهم إحاطتي بها كي تلهيه عن ذلك!

ـ إذا كنتُ قد وافقتُ على استقبالك فذلك للإصغاء بالطبع إلى بلاغك. لك أن تتكلّم.

ـ لقد اتّسعت «إمبراطويتكم» في الغرب فشملت بلاد (آرام) والـ (أديابين) والـ (أسروان) [يعرفها العرب باسم (الحيرة)]، حيث «الناصريّون» كُثُر؛ وفي الشرق (الباكتريان) [تقع شمالي أفغانستان وعاصمتها (بَلْخ) وهي موطن «زرادشت»] و(الهند) و(طوران) حيث يُعبد «بوذا». وغداً يمتدّ حكم الأسرة فيشمل نواحيَ ليس من عادة أهلها عبادة «أهورا ـ مازدا»، وسيكون فيها ما لا يُحصى من الرعايا الذين يَدْعُون إلى جميع أنواع المعتقدات، فهل من الحكمة إذلالُهم إلى حدّ تحويلهم إلى خَوَنَة؟ فمَنْ يكون أفضل حليف إذن للأسرة، الذي يسعى إلى أن يضمّ الناس إليها أم الذي يجلب لها حقد رعاياها أنفسهم؟.

كان بالإمكان أن يُرتاب من خلال قَسَمات الملك في إرهاص بـالموافقـة فبادر «كردير» إلى تبديده متهكِّماً:

ـ خـير حليف للأسرة! إني في حضرة سيِّدنا الإلَهيّ، وأراني مضـطراً إلى أن أشرح كيف يكون عابدُ «أهوار ـ مازدا» حليفاً للأسرة خيراً من «ناصريّ»! وإذ كانت القلوب لا تسمع قطّ كلمات التورية فهل أُمنح حرية الكلام بلا مواربة؟ لقـد وقـع في يـدي بعض النصـوص التي يـروّجهـا «النـاصـريّـون» في مـدن «الإمــبراطــوريــة»؛ ونُقلت إليّ أيضـاً بعض الأحـاديث التي يتنـاقـلونها في اجتماعاتهم. فهل يرغب سيّدي الإلهي في معرفة الصيغ التي يتحـدّثون بهـا عن ديننا وقوانيننا وتقاليدنا وسلالتنا؟ إن هؤلاء الناس يزعمون أن اللعنة نـازلة بكل نَسْل «الساسانيّين».

لم يكن «شـاهبور» ليـوافق عـلى التلفّظ بمثـل هـذه الأقـوال حتى وإن كـانت منسوبة إلى «الناصريّين» فشدّت يده على مقبض صولجانـه. ولم يُظهـر «كرديـر» أي هلع وتابع بصوت أكثر جهورية وأشدّ حنقاً، ولكنه حنق مُتحكّم به.

ـ ألم يجئ في «الأفستـا» أن البهـاء الإلَهي يصـاحب الـ «خفيـدوداه»، زواج الأخ من الأخت الذي يمحو الخطايا المميتة ويطرد الشياطين؟ أليس مكتوباً فيهـا أيضـاً أنه مـا من عمل وَرِع أحب إلى «السماء» من ذلك؟ ألم نتعلّم أنـه اقتداءً بـ «دارا» العظيم، كان على جميع ملوكنا الإلَهيين، كما على الكهنـة والمحاربـين، أن يـتزوجوا بـأقرب النـاس إليهم، أختهم أو بنتهم أو أمّهم حـين تتـرمّـل؟ ألم يجعل سيِّدنا الإلَهيّ من أخته الملكة الإلَهية «أزور ـ أنـاهيت» زوجة يُؤْثـرها عـلى جميع أزواجـه؟ ليُعلمْ إذن أننـا جميعـاً هنـا منـذرون في نـظر «النـاصـريّـين» لـ «جهنّـم»، وسيّـدنا الإلَهي نفسـه، وكذلـك الملكة الإلَهيـة أخته، لأن مـا هو عندنا تقوى رفيعة هو عندهم فظاعة ما بعدها فظاعة.

كان «كرديـر» يجازف بـرأسه وهـو يتلفّظ بعبارات بمثـل هذا القـدر من عدم الليـاقة. غـير أن جسارتـه أثمرت. فقـد خمّـن كل أحـد معنى الغضب الـذي انتفخ به الآن وجه الملك وقدّر مَنْ سيكون ضحيّته.

- أيها الطبيب البابلي الحقير، أهذا هو الشعور الذي تكنّه للإلهيين من أسرتنا؟ لسوف تلقى المصير الذي تُعِدُّه شريعتنا للمُجَدِّفين!.

هرع الحرس للإمساك بالمذنب. وعندما شعر «ماني» بأيديهم الفظّة تحطّ فوق ذراعيه وكتفيه خُيِّل إليه أن جميع الصور تختلط من حوله. وإذ كان بلا حَوْل وقد أخرسه الرعب فقد أحسّ أنه على وشك أن يُغمى عليه. فكرة واحدة أبقته واقفاً على قدميه: إن «التَّوْأم»، رفيقه السماوي لا يمكن أن يتخلّى عنه في هذا اليوم! وأغمض عينيه باحثاً عن مَلْمَح وجهه المُطَمْئِن.

انتشرت فجأة جلبة تخالطها ضحكات شبه مخنوقة. لقد كان التوتّر الشديد الذي ناء بكلكله على القصر قد بدأ يتلاشى وكأنما بمعجزة. فقد أخذ «بادهام» يتحرّك، وبدا أن منظره وحده كان كافياً لفرج أسارير «شاهبور».

- ليقترب «جوڤانويه» الأبديّ الشباب!.

انعكس مرح الملك المفاجئ للتوّ على جميع الوجوه. باستثناء وجه مَنْ كان يعنيه الأمر وما كان قطّ ليستسيغ ضحكات الهزء التي كانت تثيرها كل مداخلة من مداخلاته. وإذ كان مؤدّب الملك منذ طفولته فقد شغل منصب عميد كهنة البلاط حيث لم يكن أحد ليفكر في التشكيك بسعة علمه ولا بتماسك وعيه المُقيم. وما كان ليسيء إليه غير هذا الاسم، «جوڤانويه»، «الفتى»، الشديد الانتشار في صفوف النبلاء والكهنة، بيد أنه شديد الإرباك فوق كتفيْ رجل في التسعين من العمر. وعليه فقد اتّخذ مهرّج الملك من الكاهن الشيخ غرضه الأثير محاكياً بشكل رائع صوته الأجشّ ومشيته المخروطيّة والحركة الرقّاصة التي ترسمها لحيته الشبيهة بالقطن وفوضى أصابعه المعروقة. ولم يكن في وسع أي من رجال البلاط قُدِّر له خلال السنوات العشرين المنصرمة أن يقاسم «شاهبور» أمسية واحدة من أمسياته إلاّ أن يستدعي في ذهنه إلى جانب صورة المؤدّب الجليل صورة المهرِّج الذي لم يكن أحد على كل حال يتذكّر اسمه لفرط ما اعتاد الناس على أن يُلصقوا به اسم ضحيّته.

ابتسم التلميذ الأجلّ كما فعل كل الناس، ولكنه ما كاد «جوڤانويه» يتكلّم

حتى قطّب حاجبيه ليُفهم الجميع بأن فاصل المزاح كان قد انتهى.

ـ لقد حظيت على مدى حياتي الطويلة بامتياز تذكير سيّدي الإلهيّ بالصفات التي ستجعل منه ملكاً عظيماً على شاكلة أمجد أجداده، حُسْن التديّن وسلامة الحسّ وقوّة العفو وحبّ الرعيّة والحبور والسخاء والعدل. . .

ونفد صبر «جلالته الإلهية» ـ وما كان ليجهل شيئاً من القائمة التي لا تنتهي ـ فقال:

ـ لم أنسَ.

ـ لقد اتُّهم هذا الرجل البابليّ بأمور خطيرة تستحقّ العقاب. بيد أنه إذا رفض سيّدي أن يُعتبَر طاغية في عين الأجيال القادمة فمن واجبه أن يُصغي إلى دفاعه. تلك هي شريعتنا!.

غمر «شاهبور» مؤدِّبه بنظرة فيها حنان وبُنُوَّة. ثم استدعى بهزّة كتفيْن مَرِحة أحد أمناء السرّ:

ـ اكتب أني قرّرت في هذا اليوم خلع خلعة سنيّة على الكاهن «جوڤانويه» المبجّل الذي جنّبني اقتراف ظُلم لا يليق بسُلالتنا!.

وفيما كان المؤدِّب العجوز المشرق الوجه يطّلع القهقرى للعودة إلى مجلسه، التفت العاهل إلى «ماني» قائلاً له إنه جاهز الآن لسماعه على الرغم من أن الجلّاد لا يزال في متناول الصوت.

أفلتت كلمات ابن (بابل) وكأنها أنفاس من نجا من حادثة.

ـ لم يفعل الكاهن المحترم «كردير» وهو يسعى إلى معارضتي سوى أن دعم أقوالي بأدْمَغ الأمثلة. إن كلًّا منّا يشعر بالتقلقل والتهديد والمهانة، ويحسّ كل واحد الآن إلى أيّ حدّ يمكن أن تُقَيِّد الأحقاد الدينية وجوده ووجود «الإمبراطورية». وأنا نفسي ينبغي أن أكون في مثل اضطرابكم كلّكم، فأنا من

نسل «الپارتيين»، وطالما مارس أجدادي الزواج بين الأخ والأخت إخلاصاً للتقاليد ورغبة في إتيان عمل محبَّب إلى «السماء».

»نعم، إن «الناصريّين» يأنفون من هذه الزيجات التي يسمّونها زيجات من المَحارِم. ومع ذلك فإنه مكتوب في «توراتهم» أن الله قد خلق الرجل الأول والمرأة الأولى، وأنه منهما وحدهما عمرت «الأرض». فلقد انبغى إذن أن يتزاوج أبناء هذين الزوجين الأوّلين! والبشرية كلها مستمدّة من زيجات من المَحارِم. وعليه فإن في وسع حملة «الأفستا» أن يسخروا بدورهم من حملة «التوراة». ولكنْ لِمَ هذه المشاجرات، وهذه اللعنات، وهذه السخريات؟ إن لكل شعب تقاليد دُوِّنت في شرائعه وينسبها إلى المشيئة الربّانية. أفتكون هذه المشيئة مختلفة بالنسبة إلى كل شعب؟ الحقيقة أننا لا نعلم شيئاً عن المشيئة الربّانية، ولا نعرف شيئاً عن الربوبيّة، لا اسمها ولا ظاهرها ولا صفاتها. ويطلق البشر على «الله» ما لا يُحصى من الأسماء، وكلّها صحيحة، وكلّها أيضاً باطلة. فلو كان «له» اسم لما أمكن أن يُكتب بكلماتنا، ولا أن تتلفّظ به أفواهنا. يُقال إنه غنيّ وقويّ. والغنى والقوة ليسا صفتينْ إلا على مستوى الناس، ولا يعنيان شيئاً على مستوى «الله». وتنسب «إليه» أيضاً رغبات ومخاوف وحالات سُخط وغضب، ويقول بعضهم «إنه» يغار من صنم وتسوءه حركة ويهتمّ بطريقة كلامنا وعُطاسنا ولُبسنا وعُرينا. وأنا، «ماني»، جئت أحمل رسالة جديدة لجميع الشعوب. وكان أن توجّهتُ أول ما توجّهتُ إلى «الناصريّين» الذين قضيت بين ظهرانيِّهم طفولتي وشبابي. وقلت لهم: أصغوا إلى كلام «يسوع» فهو حكيم وطاهر، ولكن أصغوا أيضاً إلى إرشاد «زرادشت»، واعرفوا كيف تجدون «النور» الذي أضاء داخل نفسه قبل جميع الناس عندما كان العالم بأسره سابحاً في الجهل والوسوسة. وإذا قُدِّر لأملي أن ينتصر يوماً فستكون نهاية الأحقاد.

«وعليه فإني ألتفتُ إلى الكاهن «كردير» وأقول له بالاحترام الذي هو أهله، لقد أجدتَ وصف الداء الذي يهدِّد «الإمبراطورية»، وأنا وصفتُ الدواء. لقد تحدّثتَ حديث مريض وتحدّثتُ حديث طبيب.

قال الكاهن:

ـ إن هذا الرجل ماهر في إنامة شكوكونا. بيد أنه لم يعترف بعدُ إلى أيّ دين ينتمي.

ـ أنتمي إلى جميع الأديان ولا أنتمي إلى أيّ منها. لقد لُقِّن الناس أن عليهم أن ينتسبوا إلى عقيدة كما ينتسبون إلى عِرق أو قبيلة. وأنا أقول لهم إنهم كَذَبوا عليكم. اعرفوا أن تجدوا في كل عقيدة، في كل فكرة، المادةَ المنيرة وأزيحوا القشور. ومَنْ يتّبعْ سبيلي يستطعْ أن يبتهل إلى «أهوار ـ مازدا» وإلى «ميترا» وإلى «المسيح» وإلى «بوذا». وسوف يأتي كل إنسان بصلواته إلى المعابد التي سأشيدها.

«إني أُجِلّ جميع المعتقدات وتلك هي جريمتي بالتأكيد في عيون الجميع. فالمسيحيون لا يسمعون ما أقول من خيرٍ عن «الناصريّ» ويأخذون عليّ عدم الكلام بالسوء عن اليهود و«زرادشت». ولا يسمعني المجوس حين أمجّد نبيَّهم، ويريدون أن يسمعوني ألعن «المسيح» و«بوذا». ذلك أنهم عندما يجمعون القطيع فإنهم لا يجمعونه على الحبّ بل على الحقد، ويجدون أنفسهم متضامنينْ فقط في مواجهة الآخرين. ولا يعترف بعضهم بأُخوّة بعض إلّا في المحظورات وأعمال الحُرْم. وبدلاً من أن أكون أنا، «ماني» صديق الجميع لا ألبث أن أرى نفسي عدوّ الجميع. وجريمتي هي رغبتي في مصالحتهم فيما بينهم. ولسوف أدفع ثمنها. ذلك أنهم سيتّحدون لِلَعْني. ومع ذلك فإنه عندما يملّ الناس الطقوس والأساطير والنمائم جميعاً فسوف يتذكّرون أنه في يوم من الأيام، في العهد الذي كان يحكم فيه «شاهبور» العظيم، رجّع كائن بشري متواضع صرخة في أرجاء العالم.

لقد سُقط في يد الملك.

ـ هل سيكون للديانة التي تريد نشرها هياكل وكهنة؟

ـ سيكون لها أماكن عبادة و«مختارون». وسوف ينصرفون إلى الصلاة

والتعليم، إلى الفن والكتابة، إلى ممارسة العدالة، كما يفعل كهنة اليوم. شرط أن يستنكفوا مع ذلك عن الصبوة إلى الغنى أو المجد أو النفود.

لقد أثار هذا التحفّظ لدى العاهل رضى مؤكّداً. ولوّح «كردير» مجدّداً بـ «پادهامِيهِ»، بيد أن «شاهبور» كان قد التفت إلى «خُرّم - باشِيهِ»، المكلّف بالستار، الذي كان يقف على الدوام بجانبه، وبارتعاشة من أصابعه أصدر إليه أمراً. وفي اللحظات التي تلت رُؤي كاتبان يهرعان ويتّخذان مجلسهما عند قَدَمَيِ العاهل. وكانت تلك إشارة إلى أن النقاش قد انتهى وأن الملك كان يتهيّأ للتشريع، وهو إجراء عُمل به منذ أيام «الپارتيين»: يُملي ملك الملوك في لغةبسيطة رغباته فيردّدها أحد أمينَي السرّ بصوت مرتفع، لا كلمةً بكلمة، وإنما بإخضاعها، كما بطريقة الترجمة الفورية، لمصطلح القرارات الرسمية الفخيم الذي كان الكاتب الثاني منهمكاً بتدوينه بخطّ جميل في السجلّ المخصّص لهذا الغرض.

قال العاهل: «لقد قرّرنا هذا اليوم...» فضخّم أمين السرّ «نحن، «شاهبور» الإلهيّ، ملك ملوك إيران وما «ليس من إيران»، الإله بين الناس والإنسان بين الآلهة...».

وفسح «شاهبور» في المجال للتدوين قبل أن يتابع: «... أن نجيز لأحد رعايانا، المخلص «ماني»، أن ينشر بكلّ حرية في جميع مدن «الإمبراطورية» وقراها رسالته السماوية التي حازت قبولنا السامي. ونأمر جميع الملوك والولاة والحكّام والموظّفين بأن يؤازروه وكأنّه في كل الأمكنة رسولنا الخاصّ».

- ٢ -

لم يَسَعْ «ماني» وهو يغادر القصر أن يفعـل غير المشي، المشي بخطّ مستقيم إلى الأمام، قارعاً طريق (المدائن) غير الممهّدة بعقبه الـوحيد السليم. وكـان الناس يلتفتون إليه وهو يمرّ ويشيرون بالأصابع إلى الغلمان أن ينظروا إلى هذا الغـريب الـرَّجيم المتوحِّش، تلك الجـرادة اللئيمة التي هبـطت من الغيـوم، فـأيّ فكـرة أخرى كان من الممكن أن يكوّنوها عنه اليوم؟.

بيد أن جميع هؤلاء النـاس سوف يفهمـون في الغداة، ولن يـطول بهم الأمر أكثر من الغداة. وسيأتي الرسل منذ الفجر يقرعون الطبول في الساحات العامـة قـارئين النـداء الذي ذُكـر فيه هـذا الاسم، «ماني»، طبيب من بـلاد (بابـل). وستحمل العاصمـة بأسرهـا عندئـذٍ روايات مـزوَّقة إلى القصر عن المـلأ الذين يستمعون إليه، ويروق للناس أن يصفوا ما يتزيّا به، ويزعـم كل أحد أنه تعرّف في شارعه على المشية المُلْهَمة والعباءة المـائلة إلى زرقة السـماء. وقبل عشرة أيـام سيكون البُرُد قد انطلقوا إلى المناطق الساسـانية النائية حاملين أوامـر ملك الملوك المنسوخة جيّداً والمختومة بالشمع والملح.

كان «ماني» في السادسة والعشرين، ولم تكن هذه الشوارع وتلك الأرض من بلاد (ما بين النهرين) وهاتيك «الإمـبراطوريـة» والكون بـأسره لتتّسع بمـا يكفي

لخطواته. فهل يمكن تخيّل «يسوع»، «يسوع» الذي كان يحبّه كثيراً منطلقاً، بعد أن بشّر في بلدات (الجليل)، إلى (روما)، وداخلاً على «تيبريوس قيصر» وتاركاً جبل «پالاتان» مزوّداً بمرسوم يُجيز له نشر تعاليمه في «المدينة» وفي الأقاليم، وبأمر مطلق إلى جميع من هم في مصافّ «هيرودوت» وجميع من هم في مصافّ «بيلاطس البنطي» بأن يُسهّلوا مهمّته؟.

كانت تلك المقارنة هي التي دارت في خَلَد «ماني» ذلك اليوم. وكانت ظواهر الأمور تدعم أشدّ آماله منافاة للمعقول. وإذ كان عاجزاً عن تهدئة خواطره أو خُطاه فقد أخذ يمشي ثم يمشي نشوان مُتقمّصاً.

كان أصدقاؤه ينتظرونه عند سياج القصر، وقد خرج من غير أن يراهم. كان هناك «ديناغ» و«پاتيغ» و«مالكوس» و«كْلُوويه»، وقد نادوه غير أنه كان أصمّ. واندفعوا نحوه، بيد أنه كان هو نفسه شبيهاً في سيره بقطعة من الصخر أفلتت من منجنيق. ولم يَسَعِ المرأتان المنهكتان إلا التوقّف، وكذلك الأب. ولحق به «مالكوس» وحده. فقد احتفظ منذ عهد «أصحاب الملابس البيضاء» بذلك العِناد باللحاق به على الدوام.

وإذ وصل «مالكوس» إلى محاذاته، بل تخطّاه ببضع خطوات ليحاول أن يقرأ فيما وراء عينيه المذعورتين، ما إذا كان يركض على هذا النحو من السعادة أو من الحنق، فقد تضرّع إليه على الرغم من لهاثه أن يخفّف من خطوه ويلتفت إليه وأن يجيبه آخِر الأمر. بيد أن «ماني» لم يحدّثه لا عن «شاهبور» ولا عن «قاعة» العرش. واكتفى بأن أعلن له عن نيّته بالرحيل.

ـ الرحيل؟ لقد قطعنا أرجاء «الإمبراطورية» من (المدائن) إلى (دَبْ)، ومن (دَبْ) إلى (المدائن) على جميع الطرقات وفوق كل الأنهار وفي (البحر الكبير). فإلى أين نرحل بعدُ؟

ـ في أربعة أرجاء المعمورة، وإلى أقصى أفق السهول، وإلى أبعد من ذلك وأبعد، إلى عتبة كل مخلوق! فهل تتبعني؟.

وتـابع حتى قبـل أن يجيبه صـديقه، وكـأنه لم يكن يستـطيع التـوقّف، وكأن كلماته كانت قد اندفعت:

ـ لن أقـول للذين سيُقبِلون إليّ بعـد اليـوم أن ينتـظروا، ولن أدعـوهم إلى الانضمام إلى موكبي. لسوف نكون مئات وألوفـاً، ونثير من الغبـار أكثر ممـا يثير جيش، ونحفر على جِلد الدنيا ثَلْماً لن يمّحي أبداً.

وإذ قال ذلك فقـد حثّ الخَطْو. وعليـه فإن «مـالكوس» لم يَسْعَ إلى اللحاق به. وجلس على صخرة كبيرة في حين كان صديقه يبتعد.

وقـد تساءل «الصُّـورِيّ» قائـلاً: «كيف أستـطيـع بعـدُ أن أتبعـه؟» ولم يكن يتحدّث عن هذا السباق اللامعقول خلال شوارع العاصمة، بل كـان قد أخـذ يفكّـر في تلك المرحلة الأكـثر لامعقـولية أيضاً، تلك السيـاحة في أربعـة أرجاء المعمورة التي كان «ماني» قد دعاه قبل قليل إليها.

«دعـاه. . . أتكون هـذه الكلمة هي المنـاسِبة حقـاً؟»، هذا مـا تساءل عنـه «مـالكوس»، وتنكّـرت الابتسامةم التي كـان قـد رسمهـا في تكشيرة ألمٍ بفعـل التعب. إنه منذ ذلك اللقاء الأوّل في مقصف بستان النخيل لم يكن قـد رفض قطّ شيئاً لِـ «ماني». وكـان يحدث لـه أن ينـاقش، أن يشـاكس، أن يشتم، أن يُؤالِيَ أن. . . ولكن ما الجدوى، لقد كان الأمر ينتهي به إلى أن يفعـل بالضبط ما كان صـديقه يـريد. وإذا حـدث أن سعى في بعض الأيام إلى المقـاومة فقـد كانت «كْلُوويه»، زوجته، هي التي تتدخّل لمصلحة الآخَر.

ومع ذلك فإنه لن يقدّر أبداً له ولا لها أن يشاطرا «الرسول» اهتماماته. وربما كان ذلك هو الأمر الفريد في صداقتهم. فالعيش إلى جـانب مؤسِّس عقيدة من غير أن يسعى إلى فرض قناعاته، إن مثل هذا لم يكن ليُعقل إلاّ لأن «ماني» كان ما كان، رسول دين سَمْح. ولأن ربّه لم يكن يبحث عن عَبَدَة.

لم يكن لِـ «الصُّورِيّ» ما يفعله بـالأفكار الـدينية، فقـد التقى ببساطـة رجلاً حكيماً، حكيماً مفتوناً بالجمال، شخصاً يودّ كل كائن بشريّ أن يصبح صـديقه.

ولم يكن في وسعه، هو بالذات، أن يستخفّ بمثل هذا الامتياز. ولسوف يتبعه ما دامت ساقاه قادرتيْن على حمله.

بينما كان «مالكوس» غارقاً على هذا النحو في أفكاره كان «ماني» مستغرِقاً فيما يدور بخلده هو. كان قد سار إلى ضفاف «دجلة». وهناك، في مكان يغشاه الناس أقلّ مّما يَغْشَوْن غيره، هبطت حماسته ليَحُلَّ الحَصَرُ محلَّها.

وعندما لم يكن يحظى بالحماية ولا بمقابلة الملوك كان يحلم بأن يُمسك بالعالم بيديه العاريتيْن. ولكن ها هو ذا وقد مُنِحَ العالم، وعُبِّدت له الدروب، وغدا من الواجب أن يبدأ الفتح! الفتح من غير أسلحة! أن يجرّ ساقه المعطوبة من بلد إلى بلد، ويواجه المَرازِبة والأمم والطوائف والشِّيَع والأُخَوِيَّات، ويزعج القُطعان المُحزَّبة والطقوس المُحوَّلة إلى عِظام وكلَّ أنواع الكُمْدَة في كلّ إنسان؟ أن يعلِّم ويكتب ويرسم وينقاش بلا هوادة ثم ينطلق إلى مرحلة اليوم التالي فيجمع حشوداً أخرى ويتبدع لكل جمهور من المستمعين النبرةَالتي تخلب وتُربِك وتؤاسي وتُلهب في آن، إلى أن تغدو البشرية جمعاء مُشَكَّلة من جديد؟.

وكما كان يحدث له في بعض الأحيان فإن تأمّلاته التي تبدأ بشكل مناجاة مع النفس قد اتّخذت في لحظة من اللحظات شكل حوار مع «أناه الآخر»، مع «تَوْأمه».

ـ ما هو الوقت الممنوح لي لكل ما عليّ عمله؟.

وقال له «الآخر»: «لن تعلم شيئاً من هذا»

ـ هل لي أن أعرف على الأقلّ ما إذا كنت أملك بعدُ سبع سنوات، ما إذا كنت سأبلغ ما بلغ «المسيح» و«الإسكندر» من العمر؟.

«تملك الأبدية واللحظة، فما همّ؟ الزمن شصّ «الظُلُمات» فلا تنخدعْ، ولا يكنّ لك من همٍّ سوى رسالتك، في كلّ يوم!».

ـ أأستطيع أن أعرف على الأقل ما إذا كنت سأرى نهاية عملي؟.

«اعهـدْ إليَّ بالمستقبـل، سِرْ، إنّ مصيرك قـد أخذ يَخِبّ بعيـداً أمـامـك، إنّ الناس ينتظرون بفارغ الصبر في (بيت ـ لاپات!).

لم يعُـدْ من مـدينـة لم يكن «مـاني» مُنْتَـظراً فيهـا منـذ أن نُشر المرسـوم الإمبراطوري. غير أنه لم يتريّث لحظة في التردّد. وسلك الطريق بـاتّجاه (بيت ـ لاپات).

لم تكن سوى قرية كبيرة من قـرى (سوزيـانا) [هي اليـوم «خوزستـان»] بلا ماضٍ ولا هيبة؛ إلّا أنه كان يُحكى أنّ «شاهبور» الذي كان قد أقام فيها أحياناً سرّه هواؤها ومياهها، وكلّف معماريّيه أن يقوموا فيها بأعمال التوسيـع؛ وحسب بعض الشائعات فإنّ الملك كان يدغدغ خـاطرة بـأن يجعل منهـا ذات يوم مقـرّه الصيفيّ. ولا ريب في أنّه كان يرجو أن يستفيد من موقعها الممتاز بين (بلاد مـا بين النهرين) و(پـرسيـديـا)، ومن هـذا الـواقـع بـين شقّيِ «الإمـبراطـوريـة» الساسانيـة، (الغرب) السـاميّ و(الشرق) ذي اللغة الآريّـة. أفيكون هـذا هو السبب في أنّ «ماني» كان يرى نفسه مُلْزَماً ببدء رحلته بِـ (بيت ـ لاپات)؟.

وعـلى الرغم من أنّـه لم يكن قد زار قطّ تلك الـدسكـرة فقـد كـان يعلم أن طائفة مسيحية نشيطة قد نَمَتْ فيها، وإليها كان ينـوي أن يتوجّـه أوّلاً. بيد أنّـه سرعان ما توجّب عليه أن يقبل حقيقة الأمـر: لم يكن في زمن الحِجّات المُغْفَلَة، ولا كان يملك، كما في (دَبْ)، حرّية تـوجيه خُـطاه نحو المبنى الـذي يقع عليـه اختياره.

ما إن علم وجهاء الموضع بوصول الزائر وحاشيته حتى هـرعوا وعـلى رأسهم المُلَيْك المحلّي الذي طالب منتفخَ الصدر بـامتياز إيـواء مَحْمِيّ «شاهبـور» الإلهيّ تحت سقف بيته. إلى حدّ أن الرجل غضب عندما أجاب «ماني» بـأنه اعتـاد أن يختار لإقامتـه جذع أَجَـلِّ الأشجار في أحـدى الحدائق، وأعلن بـأبّهة عن نَسَبِهِ الذي يعود به إلى أعرق السلائل، وسمح لنفسه، بمؤازرة الكَتَبة المحيطين بـه، بـأن يُصِرّ ويُلحِف. فـإن رُفضت دعـوتـه فمعنى ذلـك احتقـار أسـلافـه، وإلا

فـالتشكيك في طهـارة بيته. ولم يستسلم «مـاني» على الـرغـم من حَرَج «دينـاغ» وإعياء «پاتيغ». فلسوف يأتي الناس للاستماع إلى تعاليمه عنـد جذع الشجـرة، وهناك لا في أيّ مكان آخر سوف يقضي الليل.

كان السلوك في الحقّ قليل التـوفيق، بل ربمـا كان جـارحاً من غـير جدوى، ومع ذلك فقد كان السلوك الوحيد الحكيم. إذ كان على ابن (بـابل) أن يـواجه على امتداد أسفاره هذا النوع من الهجمات التي كانت تُمليها أحيـاناً أشـدّ غرائـز الضيافة نقاءً، وفي أغلب الأحيان اعتبارات أقلّ قابلية للتقدير كمثل رغبة أحـد الوجهاء في تسجيل رِفعته بـاستضافـة أحد مَحْمِيّي «شـاهبور»، هـذا إذا لم تكن لديه رغبة في التجسّس على «ماني» ورفاقه والذين يَبْـدُون متأثّـرين بشكل خـطِر بتعليماته من أهل البلد.

ولقد ظهر التباس بالفعل منذ بَدء الرحلة. فإذا لم يكن بمقدور أعيان الأقاليم سوى إبداء الخضوع المطلق ما إن يتعلّق الأمر بـإطاعـة أوامر ملك الملوك، وإذا كان عليهم بالتالي أن يخصّوا بـأحسن الترحـاب الأشخاص الـذين عرفـوا كيف يفوزون برعايته السامية، فإنهم لم يكونوا يجهلون أن أزمنة الحُـظْوَة عابـرة، عند العاهل أكثر ممّا عنـد غيره، وإذا كـانوا ينـظرون إلى الزائـر بحسد فـإنهم كانـوا يحتفظون في أذهانهم على الدوام بإمكان زوال حُظْوَته؛ وعليهم إذا حـان الوقت أن يكونوا متأهّبين لأن يُثبتوا أنهم لم يفقدوا قطّ حَذَرَهم.

وإذ كان الأمر يتعلّق بِـ «ماني» فإنه كان أجلى أيضاً وأصرح. وكـانت الأخبار تسري بسرعةفي «الإمبراطورية». وكـان يكفي أن يهمس أحد رجـال البلاط في أُذُن أحد «المُرَوِّجين»، وأن يُلقي هذا بكلمة في مأدبة خاصة بنبلاء الريف لكي تُناقش القضية بعد ثلاثة أسابيـع في ساحـات القرى. وعـلى هذا النحـو عُرفت المناقشات التي دارت في قاعة العرش ونُقلت أقوال «كـردير» التي أثـارت أعظم الظنون بالطبيب البابليّ.

لقد استُقبل «ماني» إذن في (بيت ـ لاپات) بقواعد الآداب الـلائقة، غـير أنّ كل شخص ظلّ آخذاً حِذْره. وعنـدما استقـرّ في أصيل ذلـك اليوم عنـد جذع

شجرة، شجرة زعرور، وقف فوق التلِّ الأعيانُ، وبالتالي الكهنة بالطبع، في الصفوف الأولى من الحشد. في حين كان بعض الجنود يطوفون. حُلَماء مع ذلك وموقِّرين للحدث الذي كانوا بمحاذاته.

أُوجب الزائر على نفسه أن يقول في الاستهلال إلى أيّ مدى يرى أنّه شُرِّف بالثقة التي أولاه إيّاها ملك الملوك، وإلى أيّ حدّ تأثّر بالاستقبال الذي خصّته به (بيت ـ لاپات). وإذ قدّم على هذا النحو أوراق اعتماده في بضع عبارات فقد أبدى أمله في أن يرى ـ كما قال ـ جميع رعايا «الإمبراطورية» مُنْضَوين حول حكمة مُشْتَركة. «إن الشرارة الإلهيّة موجودة فينا جميعاً، لا تنتمي إلى أي عِرق، ولا إلى أيّة طائفة، إنها ليست ذكراً ولا أنثى، وعلى كل أحد أن يغذوها بالجمال والمعرفة، وبهذا تتمكّن من التألّق، ولا يكون الإنسان عظيماً إلاّ بـ «النور» الذي فيه وحسبُ».

تبادل المستمعون الذين كانوا هناك نظراتٍ مستنكِرةً مَغِيظة. فهم الفخورون بعِرْقهم، هم الذين كلّفهم «أردشير» بفرض احترام تراتبيّة الطبقات لكي ينظر كلّ إنسان بتبجيل إلى من ولدتهم «العناية» فوقه، وبتعاطف إلى من وضعتهم دونه، هم الذين لقنوا أن هذا هو أساس النظام الساساني وكل نظام أرضي أو سماوي، ها هو ذا إذن هذا الطبيب البابلي وقد جاء يعلن أمامهم، بل أسوأ من ذلك أمام جمهور الرعايا، أمام عامّة الناس من نحّاسين أو أصحاب دكاكين أو حمّالين أو حابكي بُسُط أنه ينبغي تجاهل الطبقات بَلْهَ احتقارَ الانتماء إلى عِرق! إن هذا الرجل كان، في أوقات غير هذا الوقت، يُقبض عليه مُذْ كلماته الأولى ويُكبّل وتُكال له الضربات، وربّما مُزِّق إرْباً. غير أن الذي كان يتكلّم على هذا النحو هو المبعوث المَحْمِيّ من ملك الملوك! وإذ استنكف بعض الأعيان عن التفهّم فقد آثروا الاحتجاب بصمت، بيد أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى الكهنة الشباب الذين انسحب بعضهم بصخب وحنق.

انتهى الأمر بـ «ماني» على مرّ الأسفار إلى أن يُلصق بنفسه سمعة زارع

قلاقل لا سبيل إلى مَحْوِها. وفي كل مرّة كان يبدأ فيها الكـلام كان يـظهر بعض المستفـزّين بـاحثـين عن المتـاعب، مُتَفَنِّنـين في جعله يتلفّظ بـأشـدّ العبـارات تحريضاً. ولم يكن هو نفسه يكـره الاستفزاز، فقـد كان جـزءاً من الأدوات التي كـان يستخدمهـا، وعلى الـرغم من أنه كـان يُحسِن إبقاءه في بعض الأحيـان في حالة خَـدَر، ويلطّف من انتقاداتـه، ويُغضي عن بعض الكلمات التي قد تـزرع الفُرقة، فإنه ما إن كان يُسـأل بشيء من الإلحاح حتى يجيب مهـما تكن مقاصـد السـائل. وسـواء تعلّق الأمر بـذهنيّة العِـرق، أو بالفـوارق بين الـطبقـات، أو بطقوس الكهنة، أو بالربوبيّات التي اعتراها الحسد، فإنه كـان يتكلّم باستقـامة ومن غـير مَلَق! وإذا حدث أن أخـذ الاجتماع بـالانحلال فـإنه كـان يكتفي بهزّ كتفيه وهو يقول:

ـ إنها تفسُّخات بَشَرة العالم القديمة! ولسوف أبدأ بالقلق عندمـا تغدو أقـوالي في آذان الناس أنْعَمَ من ريش وسادة.

كانت مثل هذه التفسيرات تـوجّه في العـادة إلى «ديناغ». فقـد غدت مـلاك الكائن المقرَّب. وعندما كان «ماني» يتمدّد عند جذع الشجرة لدى زوال النهار، أو تحت سقف أحد المؤمنين حين ترغمه رداءة الأحوال الجـويّة عـلى ذلك، فـإن «ديناغ» لم تكن قطّ بعيدة. وكان في وسع كل شخص من أشخاص المـوكب أن يلاحظ الرعاية المتّقدة التي كانت رفيقته تحيطه بها، وكان كل أحد يخمّن المكـانة الخاصة التي تحتلّها، على الرغم من أن أحداً لم يعلم علم اليقـين ماذا غـدا كلٌّ منهـما بالنسبـة إلى الآخر، ولا بـأية كلمات أو بـأيّ عينينْ أو بـأية صـداقة كـانـا يتلفّعان عندما يكونان وحدهما.

وعلى أي حال فمن ذا الـذي يجسر على السؤال عن ذلـك؟ وحاول «پـاتيغ» ذات يوم أن يطرق الموضوع. بمواربة وحيطة.

ـ ليُباركْك الله يـا بنيّ، ليُباركِ اليـوم الذي دفعتني فيـه «العنايـة» إلى اقتفاء أثرك. إن قلبي ليملأه الفرح في كلّ مرة اسمع النـاس يذكـرون فيها فضـائلك وحياتك الزاهدة وما تفرضه من حرمان على جسدك الفتيّ.

وقاطعه «ماني» قائلاً:

ـ أيّ فضيلة في أن يحرم المرءُ نفسَه من لذّة لم يسبق له قطّ أن ذاقها؟.

وآثر «پاتيغ» أن يبتعد مكتفياً لاستعادة رباطة جأشه بغمغمة عبارة مباركة. ولم يكن «ماني» قد نظر إليه وهو يلقي بردّه، بيد أنه لم يلبث، بعد أن تركه يخطو بضع خطوات، أن ناداه كأشدّ ما يكون النداء من احترام:

ـ يا «مار پاتيغ»!.

وهرع أبوه من جديد على عجل. ولكن ليسمع قوله له:

ـ أما آن لك يا «مار پاتيغ» أن تتوقّف عن أن تكون من «أصحاب الملابس البيضاء»؟

جعلت النبرةُ الساخرةُ والنداءُ الوقورُ السؤالَ أشدّ إيلاماً في عين الأب الذي أراد الدفاع عن نفسه:

ـ لقد غادرت «الجماعة» وجميع إخوتي للحاق بك، وجثوت أمامك، أنا أبوك، وأصغيت بخضوع إلى كل موعظة من مواعظك...

ـ لقد أصغيت إليّ كل يوم يا «مار پايتغ»، غير أنك ما تزال تتحدّث حديث واحد من «أصحاب الملابس البيضاء». وأقوالك تُهينني.

ـ لم يكن لي من أقوال إلا في امتداح فضائلك!

ـ إن من يفرض على نفسه الحرمان لكي يجني المديح لا يستحقّ أيّ مديح، لأنّه أشدّ ادّعاء من أحقر الماجنين. والحكيم لا يصوم إلاّ لكي يكون أكثر قُرباً من ذاته، وهو وحده الحَكَم، ووحده الشاهد. وإذا ما حرمتَ نفسك فلا تفعل ذلك امتثالاً لمتطلّبات جماعةٍ ما، ولا خوفاً من العقاب، ولا حتى رجاءَ تكديس فضائل تُباهي بها في عالم آخَر. إن مثل هذه الحسابات تثير في نظري الاشمئزاز.

حمل «پاتيغ» نفسَه على الابتسام.

ـ إذا كنت تقول لي يا ولدي إنه يجب عمل الخير لأجل الخير ومن غير انتظار الجزاء فإن فضيلتك تزداد عِظَماً.

نظر إليه «ماني» آخر الأمر، ولكنْ نظرة قنوط.

ـ هل سمعتني يوماً أتحدّث عن الخير أو عن الشر؟ إنّ هاتين الكلمتين لا تنتميان إلى قاموسي!.

» لقد حذّرني «تَوْأمي» السماوي. فسوف أقول شيئاً ويفهم الناس، حتى أقربهم مني، شيئاً آخر. لقد قلت إنّه في كل كائن يختلط «النور» و«الظُلُمات»، وينبغي للفصل بينها مهارة حكيم بأكملها...

ثم تنفّس طويلاً وكأنّه ينتظر استعادة هدوئه.

ـ الحقّ أنك جئت تسألني ما تكون «ديناغ» بالنسبةِ إليّ.

وإذ بوغت «پاتيغ» فقد رفع كلتا يديه وكأنما يقوم بحركة دفاع عن نفسه. وتابع ابنه قائلاً:

ـ إن ملابسها ترسم حدود مملكتي المتشرِّدة.

وفي هذه المرة كان «ماني» هو الذي نهض وابتعد بخطى أشدّ تواثباً من أيّ وقت مضى تاركاً أباه يُجيل في ذهنه إلى ما لا نهاية هذا الاعتراف ذا الوجهينْ.

لم يجسر أحد على سؤال ابن (بابل) بشأن رفيقته. ولا سيما «كُلُوويه» التي كان يعتصرها الفضول. ولقد بقيت في (المدائن) للاهتمام بأسرتها وبأعمال «مالكوس» حين يكون مرتحلاً، ولكنّ «ماني» كان يقيم عندها إذا مرّ بعاصمة «الإمبراطورية» ولم تكن تستطيع منع نفسها عن مراقبته وهي ساهمة متفكِّرة. لماذا كان قد أكّد لها فيما مضى أنه ما من امرأة ستتّخذ أبداً مكاناً إلى جانبه؟ أتكون هي قد ظهرت في وقت مبكِّر جداً من حياته؟ أيكون قد كذب عليها لمجرّد صداقته لِـ «مالكوس»؟ كثير من الأسئلة لم تكن ابنة «الإغريقيّ» لتستطيع مفاتحة أحد بها، بل كانت تكاد تفاتح بها نفسَها، أسئلة كانت تظنّ أنها تطردها

من ذهنها وهي تزداد تودُّداً إلى «ديناغ»، ولكنّها كانت تعاودها في كـل مرة تـرى فيها المرأة الأخرى جالسة بالقرب من «ماني» وعيناها مسدّدتان إلى شفتيه.

«ديناغ». لقد كانت ضفيرتهـا الملقاة إلى الأمـام تحجب سُمرةَ عُنقِها المائـلِ الورديةَ. وكانت تفوح شباباً بغير صلف، وجمالاً بـلا تطريـة ولا مرآة، غـير أنّه جمال نهائي كالحجّة الأخيرة في نقاش. وكانت تربط حول خصرها زنّاراً سميكـاً من الصوف ملفوفاً ومعقوداً. وذات عصر، بينما كانت السماء تربّـد وتهبّ ريح بـاردة، ارتعشت «ديـناغ» وفكّت الـزنّـار وحلّتــه وكشفت عن كتفيهـا. ورؤي مرسوماً على القماش بلمسات دقيقة وجهٌ، وجهـه هو مؤطّـراً بالأزهـار. وعرف كل أحد في الـرسم ريشة «مـاني»، وغدا القـماش في نظر الأتبـاع بمثابـة تذكـار مقـدَّس. وكان من يقـتربون للمسـه يستنشقون العـطر الذي يفـوح منه، وهـو مـزيج من خشب الصـبر والعنبر والنيلوفـر والمسك التيبتيّ كـان «ماني» قـد ركّبه بنفسه.

أفلم يقل ذات يوم إن كل شيء في «حدائق النور» سوف يكون عطراً ولوناً، وأنه ما من شيء سيظلّ مادّة؟

إذا كان القوم في موكب «ماني» يطرقون على الدوام موضوعات متقشّفة فـإنه كان يسودهم مع ذلك جوّ وادع من أجواء العيـد. وكان كـل واحد يعتـبر نفسه مُلْزَمـاً بتعهّد فنّ من الفنـون، الموسيقى في أغلب الأحيـان والغناء، لأنهما كـانا مشرَّفيْن في البلاد الساسانيـة، وكذلـك الشعر، وبـالطبـع الرسم والخطّ اقتـداءً بـالمعلّم،.المعلّم الذي كـان يرخّص لهم بـالتجمّع حـوله حـين يشدّ النسيـج أو يـرقّش الرّق، وحـين يحضّر الأصباغ والألـوان، وحتى حين يخطّ حـدود اللوحة ويبدأ بالرسم. ولم يكن يسمح لوجود التلاميذ بإلهائه، ولا كانت نظراتهم لتلقي بثقلها فوق يده؛ وكثيراً مـا كان يتكلّم وهـو منهمك في الـرسم، وكانت كلماتـه تتحدّد بلمسات ريشته. وكانت تلك اللحظات أشدَّها كثافة، ولودّ التلاميذ لـو تـطول إلى ما لا نهايـة، وكانـوا يقضون السـاعـات في المكـان نفسـه حـابسـين أنفاسهم خوفاً من انقطاع الروعة والسحر.

على الرغم من الإجلال الصامت الذي كان رفاق «ماني» جميعاً يحيطونه به فإن وجوده لم يكن قطّ مُثقِلاً. وإذا كان ابن (بابل) يطلب من تلاميذه الأقربين، من «مختاريه»، من أولئك الذين سيُدْعَون يوماً «الكاملين»، أن ينصرفوا إلى الفن، إلى التعليم، إلى التأمّل، وأن يتخلّصوا من كلّ ملكيّة، فإنّه كان لا يني يردّد أن بالإمكان المجيء إليه من دون التخلّي عن العمل والممتلكات، ومن دون التحوُّل عن العادات ونمط العيش. شريطة عدم إيذاء الكائنات وعدم ترك الحكماء يموتون.

وذات يوم أبدى أحد المعارضين جزعه بقوله:

ـ على هذا فإنه سيكون في ديانتك أخلاقيّتان؟.

لم يفكر «ماني» في إنكار ذلك.

ـ هناك طريق وعْر يسلكه الذين يَصْبون إلى الكمال. وطريق ممهَّد للبشر كافّة.

ـ ولكن إذا كان الطريقان يؤدّيان إلى الخلاص فما هي الامتيازات التي أحصل عليها باختياري الطريق الأصعب؟

ـ إذا لفظتَ كلمة «امتيازات» فمعنى ذلك أنك اخترت سلفاً.

كان الأتباع يتضاعفون على مرّ المراحل، ولا سيّما في المدن بين الحِرَفيينْ والتجّار والغرباء والمُهجَّنين. ولا ريب في أن «ماني» كان يجلب الذين يعيشون في عزلة داخل نظام الأديان والطوائف الصارم، والذين يعانون من كونهم مُتَجاذَبين بين مختلف الانتماءات، والذين لم يكونوا يَرَوْن أنفسهم جالسين منذ الأزل وإلى الأبد على طنفسة وثيرة من الامتيازات.

ومع ذلك فإن انتشار تعاليمه كان أبطأ ما يكون في أقلّ الطبقات ثراء. وعندما كان يقول: «لا تقتلوا الشجرة، لا تجرحوا الأرض!» فكيف كان من الممكن أن يحصل على انخراط الفلاحين بحماسة؟ وربح إلى جانبه على العكس من ذلك بعضاً من أبرز ممثّلي طبقة المحاربين. مثل «فيروز» و«مهرشاه»، وهما

أخَوان من إخوة «شاهبور». وعلى الأخص بالطبع، أسبقهم جميعاً، الابن الأصغر لملك الملوك، «هرمز» الذي أخذ يعلن جهاراً منذ الآن أنه تلميذ «ماني»، والذي سكّ في (دبْ) نقوداً تحمل على وجهها الثاني صورة «بوذا»، مع أنه ظلّ يتعبّد لِـ «أهورا ـ مازدا». والحقّ أن أقرانه كانوا في معظمهم يُنْكِرون عليه تصرّفه، وكذلك الكهنة. وكانت تعقد اجتماعات صاخبة في بيوت النار المقدّسة في (المدائن) و(پرسيديا) و(أتروپاتين). وكان يُسمع فيها أن «بوذا» على نقود ساسانية! ولِمَ لا يكون غداً صليب «الناصريّ»؟.

احتجاجات وتساؤلات لم تكن موجّهة بالطبع إلى «ماني». وإذا كان يريد أن يقلب على هذا النحو نظام «الإمبراطورية»، ويقلقل الأسس التي بُنيت عليها السُلالة الساسانية و«الدين الصحيح»، فذلك يؤكّد في نظرهم حكم «كردير» الدائم بأنه «ناصريّ من أبشع الأنواع، وذئب بقَدَمينْ». وأمّا «شاهبور»؟ فلماذا يريد ملك الملوك الإلهيّ وسيّد «الإمبراطورية» أن يهدم بيديه ما يؤلّف دعامة نفوذه؟.

كان النبلاء والكهنة يُؤْثرون القول في أحاديثهم بأنّه قد خُدع. وما إن يُنبَّأ كما ينبغي بالأضرار التي أنزلها الهرطيق حتى يسحب بالتأكيد حمايته ويُنزل به العقاب الذي نصّت عليه الشريعة. وشُكّل وفدٌ ضمّ أمراء عريقين وكهنة رفيعي المقام ومثّل أمام «العرش» مُثْقَلاً بالشكاوى.

ـ إن هذا الـ «ماني» يقود جحفلاً من المتسوّلين المنقضّين على كل ناحية من نواحي «الإمبراطورية» انقضاض الجراد على واحة، ويتحدّى التعاليم السماوية ويحرّض عامّة الناس على احتقار الذين وضعهم مولدُهم فوق رؤوسهم. إن الحِرَفيّ يريد أن يصبح كاتباً، والكاتب فارساً، وقد فُقدت الهيبة والسلطان وتداعى نظام السُلالة، ويُشاع في أرجاء «الإمبراطورية» أن سيّدنا الإلهي شخصياً هو الذي شاء أن يكون الأمر كذلك...

وأصغى «شاهبور». وغرق في تفكّر طويل. ثم نهض بطريقة غير متوقّعة. ولم يملك رجال البلاط إلاّ ما يلزم من وقت للغوص ووجوههم إلى الأرض.

وحين جسروا على النظر من جديد إلى العرش كان الستار قد أُسدل.

أيكون ملك الملوك قد تقلقل بفعل ما نُمي إليه؟ أتكون النبرة التي استعملها الأمراء والكهنة قد أزعجته؟ على كل حال فإنّ أيّ حكم لم يصدر بحقّ أعضاء الوفد. ولكن أيّ تدبير لم يُتّخذ كذلك بحقّ «ماني».

مضت بضعة أسابيع ولم يحدث شيء. واستؤنفت الاجتماعات والمناقشات. ومرّ بخلد «كردير» أنه ما دام «شاهبور» لم يستجب فمعنى ذلك أنه أساء تقدير فداحة الأخطار، أو أنه متردِّد. فَلْيحدثْ أَمْرٌ جَلَلَ وسيكون العاهل مُكْرَهاً على اتّخاذ موقف حاسم.

- ٣ -

والحادثة الجُلّى لم يكن «كردير» في حاجـة قطّ إلى إثارتها، فـ «ماني» هـو الذي أوجد جميع ظروفها بعزمه المفاجئ على زيارة (أيكبتان)، المـدينة التي كـان أبوه من مواليدها، بيد أنها على الأخصّ عاصمة (ميديا) وإقطاعـة الكهنة منـذ أقدم الأزمنة. وكانت للزيارة بحدّ ذاتها سِيما التحدّي إذ عُني ابن (بابل) بإعلانها قبل عدّة أسابيع في عِظة على الملأ في السـاحة الكـبرى بـ (سلوقيا) إحـدى ضواحي (المدائن)، وهو يؤكّد بأن هذه الرحلة ستكون شاقّة، وأنه لن يشجّع أتباعه على اللحاق به فيها. غير أنهم تبعوه بالمئات.

وفي صفوف الخصوم كان «كردير» هو الذي عقد العـزم على الـذهاب إليهـا شخصيـاً، ولم يُغفِل التحـوّط باصـطحاب «بهـرام»، ابن «شاهبـور» البكر. ولم يكن في عداد طبقة الكهنـة ولا طبقة المحـاربين أشرس منهـما عدوّاً لِـ «مـاني». فقد كان «كردير» يرى في ابن (بابل) تهديداً للنـظام الديني الجـديد الـذي كان الكهنة يَسْعَوْن إلى فرضه على «الإمبراطـورية»، في حـين كان «بهـرام» يرى فيـه بشكل خاصّ حليفـاً لأخيه الأصغـر «هرمـز» الذي كـانت تُحْفِظُه عليه منافسـة مُقيمة. ولم يزد مآل «ديناغ» بالطبع على أن فاقم الأمور: فَـلأَنْ تفضّل فتـاة من النبلاء يطمع فيها «بهرام» أن تتبع الطبيب البابلي في تشرّده بموافقـة من «هرمـز» فتلك لعمري إهانة لا تُنسى! ولن تكون أحداث (أيكبتان) سوى فاتـح للشهيّة

على ما سيكون من انتقام في قابل الأيام!

كان البلاء الأول الذي على موكب «ماني» مواجهته هـو القُرّ. وكـان الزمـان آخر الخريف. وقد ظلّت الأيام ناعمة ما دام المرء في سهول (ما بـين النهرين)، ولكن مـا إن يـأخـذ في طـريق الجبـل حتى تمسّ الحـاجـة إلى ارتـداء المـلابس السميكة. وعلى بُعد ستة فراسخ من (أيكبتان) صودفت رقاع الأرض المفروشة بالثلج الذي أقبل سكان الأراضي السبخة يجسّونه جَذِلين.

لم يكن المـوكب لحسن الحظّ يشبه قطّ «جحفـل المتسوّلـين» الذي كـان يحلو للكهنة الهزء به. فقد كان بين الأتبـاع في الواقـع بعض التجّار المـوسرين الذين أوجبوا على أنفسهم كسـوة المُعْدِمـين وإنعالهم وإطعـامهم. ولم يكن أحد هؤلاء الموسرين غير «مالكوس» الذي كان ما إنْ يحتدمُ النقاش في الدين حتى يجد على الدوام ما يشغل به نفسه في مكان آخر، صوب المطايا بـوجه عـام، إذ كان قـد ألزم نفسه بتجنيب «ماني» جميع الهموم الدنيوية. ولمّا كان خبيـراً بالقـوافل فقـد تكشّف عن واحد من أفعل مُنَـظّميها. حتى لقـد كان بـالإمكان رؤيـة معاطف وأغطية صوفية مكوّمة على ظهور البغال ومحفوظة لأوقاتٍ أشدّ وطأةً. ومـا كانت لتكون فائضة عن الحاجة، وهذا ما كان يشير إليه عنـد مدخـل (أيكبتان) أسـد ضخم في أعـلى لبـدتـه خصلة بيضـاء منمنمـة ولكنّهـا مُـذِلّـة لأشهـر تمثال في «الإمبراطورية»، وقد نُحت بالضبط ليكون بمثابة طلسم لحماية المـدينة من انهيار الثلج.

كانت شوارع (أيكبتان) خاليـة عند وصـول «ماني». أو هي بـدت كذلـك. فقـد كانت ريـح الصباح قـد هدأت؛ وكـادت الشمس في كبـد السـماء تكـون محجوبة، وكانت أشعّتها الفتيّة منهمكة في تعديل الجو وتدفئتـه. واجتاز المـوكب شارعاً محفوفاً بالدكـاكين التي كـانت جميعها مقفلة. مـع أن الوقت لم يكن وقت غـداء ولا وقت قيلولة. فـأية لحـظة غير هـذه يمكن أن يختارهـا الأهالي للعمـل ...نزّه والقيام بمشترى ما يحتاجون إليه؟.

وتمتمت «ديناغ» بسذاجة:

ـ أين هم الناس يا تُرى؟

ـ خلف قضبان النوافذ للتلصُّص علينا، فالظاهر أنهم تلقَّوْا أمراً بالبقاء في منازلهم.

بهذا أجاب «ماني» وهو يربّت على مطيِّته، ثم نظر إلى «ديناغ» نظرة حبور شعرت معها بأنه ينبغي عليها أن تقلق. بيد أنه تابع بنبرة تشي بتحدٍّ متوهِّج:

ـ لقد تركونا نمرّ عند أبواب المدينة من غير أدنى سؤال. وها هم أولاء يراقبوننا الآن عن بُعْدٍ من غير أن يعترضوا طريقنا. ولست أعرف بعدُ أي مكان اختاروا لانتظارنا. قد يكون قُبالة القلعة.

كانت «ديناغ» قد لمحت، مثلما لمح جميع أفراد الموكب، خلف البيوت الواطئة، الطيف الداكن لما كان فيما مضى ملاذ «دارا» الأخير. فبينما كان «الإسكندر» يجتاح «فارس» ابتنى ملك الملوك في (أيكبتان) قصراً من ألف حجرة بسعة مدينة كاملة، نوعاً من خزانة عملاقة يحبس فيها خلف ثمانية أبواب من الحديد نساءه وأولاده اليافعين وكذلك ما يملك من مال. وكان جميع ذلك أطلالاً في الوقت الحاضر باستثناء جناح واحد أعيد بناؤه وكان يأتي للإقامة فيه من حين إلى آخر أحد أفراد الأسرة الحاكمة.

وعلى مقربة من القلعة كان الجنود يقومون بدوريات من عشرة أشخاص على الأقدام أو فوق الجياد منهمكين وكأنّهم في عمل دائب في إحدى الورش، ومن غير أية نظرة إلى القافلة التي كانت تقترب. وسألت «ديناغ» «ماني» عمّا إذا لم يكن من الحكمة الرجوع على الأعقاب، غير أنه لم يُرِد أن يسمع أيّ شيء. فحتى لو كان مهدَّداً بالمصادرة والموت فإنه سيقضي الليل في المدينة، لأنه لم يكن في وسع أحد أن يتجاهل أنه مزوَّد بأسمى الأذون. ولكي يؤكِّد أقواله بأفضل الوسائل فقد ترجّل وترك العِنان. وحاكاه رفاقه. حتى لقد أصبح الجنود الآن بينهم، وحولهم، وكأنهم يَفُورون وسطهم حتى وإن لم يكونوا يلمسون أحداً.

توقّف «ماني» ورفع يديه كما كان يفعل إذا رغب في أن يكفّ موكبه عن الحركة. واستأنف هو السير وحده على الأرض المنبسطة المُفْضِية إلى القلعة. وعندها اندفعت خمس ثُلَلٍ من جنود المشاة وكأنهم ينصاعون لإشارة مُتَّفَق عليها وأحاطوا به من كل صوب مشكِّلين من أجسادهم حاجزاً ثابتاً. وسعى بعض الأتباع، ولا سيما من النساء، باستماتة يُرثى لها، إلى إزاحة الجنود لتخليص «ماني»، إلّا أن هذا طلب إليهم أن يبتعدوا. وعاندت «ديناغ» وحدها في اختراق خطّ العسكر الذين أفسحوا لها الطريق علانية في لحظة من اللحظات وكأنّه كانت لديهم تعليمات استثنائية فيما يتعقّ بالفتاة ذات الضفيرة التي ركضت تلحق بـ «الرسول».

كان «بهرام» وقد صعد مع «كردير» إلى أعلى برج من أبراج الرصد يراقب المشهد بحبور: فمن غير أن يكون أحد قد ضايق «ماني» أو وجّه إليه أدنى وعيد فقد وجد نفسه ورفيقته في ذلك السجن الغريب الذي لم تلبث جدرانه أن غَلُظَت بصفّ ثانٍ من العسكر. ولسوف يقضيان الليلة، ثم اليوم التالي، وبعده الليلة مجدَّداً، في المكان نفسه بلا نار ولا ماء ولا قوت، ولا أغطية أيضاً، ولن يكون من دفء لأيّ منهما سوى وجود الآخر المُعَزّي والمُنَشِّط، في حين سيُبَدَّل جنود الحراسة بالتناوب كل ساعتين.

لم يوقف ابن «شاهبور» البكر عملية التعذيب إلا في اليوم الثالث عندما أُخبر بأنّ «الهرطيق» قد وقع مغشيّاً عليه بين ذراعيْ «ديناغ». وبينما اندفع الأتباع لإسعاف المحجور عليهما والاستعجال في أخذ «ماني» إلى خارج (أيكبتان) خوفاً من أن يقرِّر حين يثوب إليه رشده أن يُمدِّد إقامته فيها، كان «بهرام» قد أمر بإقامة مأدبة وضحكته تُجلجل في أرجاء المدينة. فلو حدث أن اشتكى «ماني» إلى ملك الملوك فسيكون في مقدور الأمير الاحتجاج على الدوام بأنه لم يَبْدُر منه غير الحفاظ على سلامة الزائر عن كَثَب وأنّه ما من يد امتدّت إليه.

بيد أن «شاهبور» لم ينظر إلى الأمر على هذا النحو. فما إن انتشر الخبر حتى استدعى ابنه إلى (المدائن) حيث اتّهمه أمام حشد من رجال البلاط بالعصيان

ونعته بالماجن والعاجز، ثم أمر بحبسه في أحد الأجنحة المخصّصة لرحلات الصيد.

وبينما كان فرسان الحرس الإمبراطوري في طريقهم لجلب «بهرام» في ذلك اليوم، كانت مفرزة أخرى تسلك طريق «كنغفار» حيث كان «ماني» لإعادته على جناح السرعة إلى العاصمة. على جناح السرعة، وبمفرده. وإذ لم يسبق أن تسامح «شاهبور» في أشدّ حالات التطاول على كرامة منصبه براءةً فإن أحداً لم يغامر، منذ أن أُهين ابنه بالذات على رؤوس الأشهاد، في تخيُّل المعاملة التي سيلقاها مَنْ كان في رأي جميع الناس زارع القلاقل.

وقبل أن يغادر ابن (بابل) رفاقه ترك لهم وصايا لمتابعة العمل الذي كانوا قد بدأوه. ولقد ودّ لو يقول كلمة لكل واحد من المقرّبين إليه، غير أن الضابط ألحّ عليه بأن يقتضب مواقف الوداع.

- ٤ -

عندما مَثَل «ماني» في القصر اقتيد إلى مكتب «الدهقان» الذي يدبّر شؤون البيت الإمبراطوري. واستمهله هذا بضع دقائق وغاب، ثم رجاه لدى عودته أن يتبعه. وعلى كل حال فإنه لم يَقْتَدْه إلى قاعة العرش، وإنما قاده عبر الدهاليز والحدائق إلى باب منقوش وواطئ سرعان ما أغلقه خلفه.

لقي «ماني» مشقّة في التعرّف على «شاهبور» في شخص الرجل الذي كان جالساً في هذه الحجرة الخالية من كلّ أبّهة. فلم يكن هناك أي أثر لبذخ الذّهب في هذه المرّة. وكانت الثياب مفصّلة بالطبع من أكرم القماش وفائحة بتناغم الزوائد التزيينية المضمومة إليها، بيد أنها ما كانت لتبهر قطّ فوق كتفيْ أحد رجال الحاشية، ولا حتى الشعر الطويل المعقوص والمضمّخ بعطر الصندل. وكانت الحركات قد عدِمت الاستدارة الحذِرة الخاصة بالاحتفالات الرسمية، وبدا أن الأصابع المتعوِّدة إصدار الأوامر بالإشارة المقتضَبة كانت تتعزّى عن عدم جدواها بمداعبة الأُكَر المائلة إلى اللون الوردي في جهاز لتزجية الوقت.

وإذ اكتشف ابن (بابل) في بارقة متأخّرة أنه كان في حضرة العاهل الإلَهيّ فقد وضع ركبته على الأرض وهو يبحث في رُدْنه لاستخراج المنديل الاحتفالي.

ـ دعْ عنك هذا الـ «پادهام». «ماني»، هناك نفحات أقلّ نقاوة من نفحتك. ثم انهض وتعالَ فاجلس إلى يميني على هذه الطنفسة.

كان الصوت قد هدأ وصاحَبَتْه ارتعاشة على الرغم من أنه ظلّ يلجأ إلى إصدار الأوامر المتلاحقة. ولا ريب أن ذلك لم يكن غير انزعاج الممثِّل الذي خرج للحال من أداء دوره.

ـ تؤكّد التقارير الواردة من الأقاليم أنّ تعاليمك أخذت تنتشر، وأنّ جماعات بأسرها في المدن الكبرى بدأت تُعلن انتماءها إليك. وبعض الأشخاص في هذا القصر فرحون بما تحرزه من نجاح، وآخرون يثور جنونهم أو يستنكرون بسبب الحوادث التي أخذت تتضاعف.

لم يفكّر «ماني» في الدفاع عن نفسه. فلم يكن يبدو أن العاهل ينتظر ردّاً، وإنما كان يروز بقية حديثه:

ـ إنّ ما حدث حتى الآن لا يقلقني كثيراً، فقد كنت أخشى حدوث أعمالِ مقاومةٍ أشدَّ عنفاً بما لا يقاس بتصرُّفات ولدي الصبيانية.

ـ إنّ هذه الحادثة قد طواها النسيان بالنسبة إليّ، وكل يوم يفصلني عنها هو عندي كمثل قرن من الزمان، ولن أحتفظ منها بأي غِلّ.

ـ أنت مخطئ في هذا فقد علّمتني الحياة عكسه. إن الوجود عِقْد من الديون وسلسلة من تصفية الحسابات، وفي إمكان المرء أن يُسدِّدها بحقارة أو بشهامة، غير أنّ عليه تسديدَها. والصفح عندي لا يُطاق حتى عندما أكون المستفيد منه. وليس من حقّي، بوصفي حارس «الإمبراطورية»، أن أتسامح فيه. وسوف يُكفِّر ولدي طويلاً عن ضعف نفسه وعصيانه.

وضعت نبرة العبارات الأخيرة «ماني» بحضرة «شاهبور» الذي عرفه في قاعة العرش.

ـ ألم يحدث قطّ أن صفحتَ؟

ـ فقط عمّن قد يُثقل عليهم صفحي إثقالاً أشدَّ إيلاماً، من العقاب. وليس ولدي البكر من هذه الجِبِلّة. وكذلك أنت، لي مآخذُ عليك.

كانت النَّقْلَة من المباغَتة، بحيث أجفل «ماني».

ـ كيف تسمح لـ «بهرام» بأن يُذِلَّـك على هـذا النحو؟ أتـراك نسيت أنك في حمايتي تسافر وتُرشِد في طول «الإمبراطوريـة» وعرضها، وأنّ ضماتي ونفـوذي هما اللذان تحملهما في ذاتك، وأنك بسماحك بأن يُسخر منهما تكون قد عملت عـلى الحطّ من قدري؟.

وإذ انقضت لحـظة المفاجـأة فقد اعتـدل ابن (بابـل) وحمـل صـوتُـه الفخـارَ والتحدّي.

ـ إنّ لي أيضاً حامياً آخر، حامياً سماوياً لا يخشى أن يُهان.

أطلق «شاهبور» ضحكة مُصطنعة ومُقتضَبة كان لها على وجهه قيمة الاعتذار.

ـ لم أطلب منك المجيء لكي أعِظك. ولقد خرجتُ عن طـوري كما أخـرج في كل مرّة أتحدّث فيها عن هذا الابن. وإني لأجِد عليه أن هزئ بالحمايـة التي كنت قد أوليتك إيّاها. وآسى عـلى الأخصّ لرؤيتـه وقد أصبـح دُمية في أيـدي كهّان (ميديا).

» افهم ما أقول، فأنا لا أشعر بالعِداء نحو الكهنة، ولقد كـان شخص مثل «جوڤانويه» أقرب إليّ من والدي، فقـد علّمني كل مـا أعرف، وليس، بكـامل كيانه، إلا نقاءً وإخلاصاً وحكمة. ولكنهم ليسوا جميعاً من هـذه الجِبِلّة. وهناك في مقـابل كـاهن مخلص واحد أربعـون كاهناً يحلمون بـالسلطة ولا يَحْيَـوْن إلاّ بـالدسـائس والمكائـد. وهـم يُملون على كـل أحـد كيف يلبس ويـأكـل ويشرب ويسعـل ويتجشّأ ويعـطس، وبأيـة عبارة يجب أن يُغمغم في كـل مناسبـة، وأية امرأة ينبغي أن يتزوّج، وفي أيـة لحظة يجب أن يتهـرّب منها أو يعـانقها، وبـأية طريقة. ويجعلون الكبار والصغار يعيشون في هَلَع الدَنَس والكُفر.

» لقد تملّكوا أفضـل الأراضي في كل منطقـة وجمعـوا الـثروات، وهيـاكلهم

طافحة بالذهب والعبيد والحبوب؛ وعندما تبرز المجاعة فإنهم الوحيدون الذين لا يقاسون قطّ منها. ولقد كدّسوا الامتيازات على مرّ العهود. وما من يافع يُحسِن خطّ حرفين في لوح من غير أن يُمسك بيده أحد الكهنة. ولا من صك بَيْعٍ يُعقَد من غير أن يقتطعوا نصيبهم منه. ولا من نزاع يمكن أن يُفضّ من غير حكومتهم. وفوق هذا فإن لهم أن يقرّروا ما إذا كان مرسومٌ ملكي متوافقاً مع الشريعة الإلهية، شريعة يفسّرونها بالطبع حسب ما يلائمهم. بيد أني أُذْعِن وأتحاشى معارضتهم ولا أسعى إلى حرمانهم من هذه الامتيازات المُفرِطة. فهل تتصّور أن ملك الملوك قادر على مثل هذا القَدْر من الصبر؟.

فوجئ «ماني» بأنه شرع في حركة إشفاق فيما واصل سيد «الإمبراطورية» تعداد اتّهاماته.

ـ أتظنّ أنه يكفيهم هذا كله؟ إن ذلك سيكون جهلاً مُطبِقاً بكهنة (ميديا)! إنه «العرش»، «عرشي» أنا، هو الذي يطمعون فيه، ولا شيء أقلّ منه، ولمّا كانوا عاجزين عن الاستحواذ عليه فإنهم يرغبون في تشويهه وإخضاعه لوصايتهم الجارفة.

» وإذ شعر أبي، «أردشير» الإلهيّ، بدنوّ أجله ذات يوم فقد حضر أعظمُ الكهنة إلى فراش مرضه يحملون بعناية فائقة بضع صفحات منسوخة من «الأفستا» وشرعوا يقرأونها بأبّهة كبرى وسط دخان خانق من البخور. ماذا كانوا يبتغون؟ تعزية سيّدهم وجعل ساعاته الأخيرة أقلّ مشقّة؟ أن يصفوا له عالماً أفضل تُنسى فيه آلامه ويكون في مكنته أن يتبوّأ فيه مكانه بين ملوك الماضي الأماجد؟ كلا، إن شيئاً من هذا لم يكن ليجعلهم يهرعون من مواقد النار الأربعة الكبرى في «الإمبراطورية». وإذا كانوا قد تحرّكوا من أمكنتهم فلغاية وحيدة هي حمل والدي الشائخ المتضائل على توقيع قرار يسمح للمُوبَذان بتسمية الخَلَف على «العرش»! وإنْ صُوِّر الأمر بالطبع بشكل آخر: إن ملائكة «السماء» هم وحدهم المفوّضون حسب «الأفستا» لتسمية ملك الملوك المقبل، إلا أن اختيار الملائكة ينبغي، حسب فقرة أخرى من «الكتاب»، أن يُنقَل إلى

المُوبَذان الذي يتعهَّد بأن يُنبئ به الناس.

» وإذ كان الأمر متعلِّقاً بي فإن المشكلة لم تكن مطروحة، فقـد أسهمت بقدر ما أسهم والدي في بناء هذه «الإمبراطوريـة»، وكان قـد أشركني أثناء حيـاته في «العـرش». ولكن الكهنة سـوف يُعيدون الاهتـمام بهذا الـوضع العجيب حـين أرحل. وقد بدأوا يهمسون على أيّ حال في آذان ولدَيّ وإخوتي بأنه ينبغي على من يصبو إلى الوصـول إلى سُدّة الحكم أن يخضـع لمشيئتهم. أفهمت الآن معنى حنقي عندمـا يخرج ابـني عن طوعي إرضاء لصانِعِي الملوك المـزعومـين أولاء؟ أفهمت معنى غضبي حين أرى واحداً من الـذين أحميهم يتعرَّض لـلإهانـة على مرأى من عيون الكهنة القريرة؟ إن لك ولا ريب يـا «ماني» حـامياً يحلّق بعيـداً فـوق المطامـع الأرضية، بعيـداً فوق الأحقـاد. ومع ذلـك فإن حمـايتي هي التي طلبْتها أيها الطبيب البابـلي. ولقد منحتُـك إياهـا. وقبلتَها. وقـد نوَّهتَ بهـا في جميع المناطق التي زرتَها. وليس لك الحقّ في الفرار! ولا في خيانتي!.

الفرار؟ الخيانة؟

ـ لقـد شاءت «السـماء» أن أُقبِل عـلى هذا القصر، وأن يتفتَّـح أملي في كنف هذه «الإمبراطورية» وتحت هذا الحكم المبارك. فلماذا أرغب في الخيانة؟

ـ إنك لا تنوي بلا شك خيانتي، بيد أنك تخونني.

إنّ الفهم ليزداد استغلاقاًعلى «ماني»حين تكون النبرة احتفاليةً، شبهَ ودِّيةٍ، من غير صلة، على كل حال، باتّهام في مثل هذه الخطورة.

ـ لقـد جئت تحدِّثني يـا «ماني» عن دين جـديد يحظِّر، مع احـترامه حكمـة «زرادشت» وعبـادة «أهـورا ـ مـازدا»، عـلى رجـال الـدين امتـلاك الأراضي والذهب، ويبقيهم في نطاق الصلاة والإرشاد والتـأمُّل. وإنـك لترغب في رؤيـة هذا الدين يسود لأن ذلك هو البلاغ الذي أُوحي به إليك، وإنّي لأرجو كـذلك أن أراه ينتشر لأن مصلحة السُلالـة تقضي بذلـك. وإنك لتبشّر بـالتساوق بـين الشعـوب والمعتقدات امتثـالاً لأوامر «العـليّ»، وإني لأَنْشُد في صلواتي التسـاوق

نفسه لأنه ضروري لتماسك «الإمبراطورية» ونمائها. وأنا و«السماء» نلاحق الطريدة نفسها، وهي «ماني»، وأنت من أفهمني ذلك. وسوف نعثر أنا و«السماء» على الأعداء أنفسهم يعترضون سبيلنا. وإنّي لأرغب في قتالهم وإفنائهم وأرجو أن أجد فيك الحليف المقدَّر من «السماء»، وأنت تعاند في خيانتي.

سُقط في يد «ماني». فما إنْ يظنُّ أنه فهم حتى يتكفّل «شاهبور» بالتَّعمية عليه. ولو كان أمام أي شخص غير ملك الملوك لانفجر. وأما والحالة هذه فإن عليه أن يعبّر عن غضبه بصورة مواربة.

ـ ما زلت لا أفقه الأمر الذي جرؤتُ على الخيانة فيه، ولكن إن كنت فعلت فعقابي هو الموت وأنا مستعدّ لمجابهته.

دفع العاهل برأسه إلى الوراء. ولكأنّه كان يُشْهِد شعاع الشمس الذي كان يتسلّل من الكوّة المنحوتة على شكل وردة. وشدّ سبحته اللؤلؤية [illegible] حول أصابعه. ثم باح بقوله:

ـ إن حبّي لك أشدّ من حبّي لولَدَيّ أنفسهما. وما دمتُ حيّاً فما من يد ستنال منك، لا يدي ولا أية يد غيرها. ولكن لماذا تصرّ على الحديث عن إلغاء الطبقات؟.

ذلك هو الأمر أذن، هذا ما ناجى به «ماني» نفسه شِبْهَ فرحٍ بإدراكه آخر الأمر الغاية التي كان «شاهبور» يريد بلوغها. وكان قد أخذ يستجمع أفكاره لتبرير نفسه. غير أن الملك أعفاه من ذلك.

ـ مِنْ غير المجدي أن تعرض لي عقيدتك بحذافيرها، ففي وسعي تماماً أن أكون من رأيك. إنّني ملك الملوك، ولست في حاجة إلى إعلان انتمائي إلى طبقة أو إلى عِرْق فهما اللذان يُعلنان انتماءهما إليّ. بيد أننا إذا ما حاربنا الكهنة عجزنا في الوقت نفسه عن تطويع طبقة المحاربين للوقوف في صفّنا. فالمحاربون هم كل حكّام الأقاليم، وكل قادة الجيش، وكل الأمراء! ولو انحاز جميع هؤلاء

الناس إلى الكهنة لَسُحقتَ وذهب أَمَلُك أدراج الرياح، ولن أَمْلِك، أنا نفسي، «شاهبور»، ملك الملوك وسيِّد «الإمبراطورية»، أن أفعل لك شيئاً. بل ربما جرفتني سقطتُك. إنّك في كل مرة تتحدّث فيها تكسب لقضيتك بعض المتعلّمين والحِرَفيين والبرجوازيين، وكذلك بعض العبيد، كما قيل لي، وكثيراً من النساء، وكثيراً من الغرباء. غير أن هؤلاء المريدين لن يساووا شيئاً في ساعة المواجهة الكبرى.

ثم تابع من غير أن يستعيد أنفاسه، ولكنْ بصوت كان قد لطُف فجأة وبدا فَزِعاً بعض الشيء:

ـ لقد أصدرتُ هذا الصباح أوامر بشأنك. ولسوف يُخَصَّص لك مقعد في كل قصر من قصوري. في قاعة الاجتماعات العامّة، وكذلك في مجلسي الخاص. وسوف ترافقني أنّى ذهبتُ.

ـ لديّ رسالة عليّ إيصالها إلى الأمم...

ـ سيقوم بذلك تلاميذك باسمك. وأمّا أنت فستكون من الآن فصاعداً أحد أخصّائي. وسوف تكون رحلتك مسيرة مظفّرة بلا حوادث مُذِلّة، بلا استفزاز ولا مشاجرات ولا اضطرابات. وإنّي أريد أن يلتفّ حولك أناس من جميع الطبقات وجميع الأعراق، ولا سيما من المحاربين والأمراء وحكّام الأقاليم. وحتى من بين الكهنة أريد أن تكسب بعض المريدين. وإذا نجحت...

توقّف «شاهبور» عن الكلام، وبدا أنه يتردّد للمرة الأخيرة، ثم إنّه، بنوع من الحياء، أو بشعورٍ قريب من ذلك، غضّ بصره فجأة وهو يختم كلامه:

ـ وإذا نجحتَ فسوف يصدر قرار ينصّ على أن مَلِك الملوك قد اعتزم أن يعتنق ديانة «ماني».

كان «ماني» قد خرج من زيارة القصر الأولى التي حصل فيها على حقّ بث الدعوة وحسبُ، مستبشرَ الوجه مُقْتَحِمَ الخَطْو. وخرج من مقابلته الثانية، وقد وعده مَلِك الملوك باعتناق دينه وناشده أن يجمع حوله وحول رسالته مجموع رعاياه، مغموماً وكأنّه يحمل في آنٍ صليب «المسيح» وتاج «الساسانيين»!.

ما الذي حدث؟ أَلم يكن ذاك أملَه الأخيرَ الذي يقترب أسرع مئة ضعف مما كان يتوقّع؟ غداً ملك الملوك، وبعد غد «الإمبراطورية»، ولن تلبث آراؤه أن تُحَرِّك البشرية جمعاء. ولم يكن الأمر حلماً من أحلام اليقظة وحسبُ، ولا وعداً من «تَوْأَمه» على حافّة ترعة من ترع «دجلة»، ولا كان هو ذلك المتسوِّلَ المتشرّدَ زارعَ الكلام، بل كان النصر في متناول اليد.

ومع ذلك فقد ذهب يحبس نفسه بين جدران الغرفة التي لا يزال يشغلها في بيت «مالكوس» في كل مرة يمرّ فيها بـ(المدائن). ولن يخرج منها اليوم ولا غداً وسيظلّ ساجداً ومُمْعِناً في الصوم والتأمُّل من غير أن يُوَجِّه كلمة مُطَمْئِنة إلى المريدين الذين احتشدوا حشوداً في كل ركن من المنزل والحديقة. «ديناغ» وحدها جسرت على الدخول لحظة لكي تضع بلا أدنى صوت كوز ماء على إفريز النافذة المُغْلَقَة.

إنّه لعجيب حقّاً ومحيّر هذا اللقاء بين صبيّ بستان النخيل الأعرج و«شاهبور» الذي كانت الكتابات والنقوش تدعوه «سليل الآلهة، وأخا القمر والشمس الأسمى، وسيّد الأقطار الأربعة...» فأيّة قُربى يمكن أن تكون بينهما، وأيّ توافق، وأيّة حميمية، وأيّ فكر مشترك؟ ومع ذلك فقد لوّح العاهل بحركات اعتذار. ومع ذلك فقد احمرّ وجهه وأشاح بنظره، ثم تهرّب لمداراة حيائه ما إن باح برغبته في اعتناق مذهبه.

اعتناق مذهب «ماني»؟ الارتداد عن دينه هو؟ هو، ملك الملوك، يضع ركبته على الأرض ويرجو «ماني» أن يباركه بوضع يديه عليه؟ ألا يكون ذلك خِداعاً عريضاً وجائراً؟.

ومرة أخرى انصبّ ارتباك ابن (بابل) في محادثة مع «تَوْأمه» الذي قال له بأوثق نبرة: .

«إن «شاهبور» يملك عنك من الطموح فوق ما تملك عن نفسك! إنّه في هذا اليوم أقوى رجل في الدنيا، وجيوشه قادرة على هزم جيوش (روما) و(الصين)، وها قد تسمّى عاهل «الشرق» و«الغرب» ويرى نفسه خليفة «الإسكندر». وقد أقبلت أنت يا «ماني» تُعلن له أنّ عصراً جديداً قد بدأ. وإنّه ليرغب كثيراً في أن يكون ذلك صحيحاً! ولأن يتوافق «الوحي» مع بداية حكمه، أفليس هذا آيةً وجّهتها «السماء» إليه، هو «شاهبور» لتؤكّد له أن مطامحه مشروعة ومتطابقة مع مقاصد «العناية الإلّهية»؟ وإنّه ليرغب في الإيمان بك، ويريد أن تكون أكرم خَلَفٍ لأعظم الأنبياء، أن تكون صِنواً لـ «زرادشت»، بل أن تكون أعظم من «زرادشت». وبعدُ فإنّ الأمراء الذين كانوا يحكمون زمن «زرادشت» لم يكونوا أعظم من «شاهبور»!.

ـ سوف أكون زينة عهد «شاهبور»!.

«لماذا لا يكون هو أداةَ حُكْمِك؟ ثم لماذا تتكلّم على الزينة؟ لماذا تظهر بمثل هذه المرارة وبمثل هذا الازدراء؟ إن هذا العاهل يريد أن تُعينه على تقليص شوكة الكهنة. ولكي يُقيم الانسجام بين الجماعات التي يحكمها فهو بحاجة إليك. وعندما يفتح جميع الأراضي التي يطمع فيها ويصبح تحت إمرته هذا العدد من الشعوب المختلفة فكيف يكون في مُكنته أن يحافظ على تماسك «الإمبراطورية»؟ أببناء هياكل للنار في كل مكان لكي يزيد أكثر فأكثر من رقاعة الكهنة؟ أم بترك شيعة الآلهة الأفذاذ يستشرون وتستشري جميع هذه الأديان المتعصّبة والمتناحرة التي تُهيّئ لـ «الإمبراطورية»، ولجميع الإمبراطوريات، آلاف السنين من النار والدم؟ أنت وحدك القادر يا «ماني» على تجنيب ضلال الناس هذا».

ـ إن هذا الملك يريد غزو العالم بالسلاح، وعليّ أن أشارك في هذا أنا الذي يشمئزّ من جرح لحاء شجرة تين؟

عندما خرج «ماني» آخر الأمر بعد ثلاثة أيام من عزلته لم يكن يحتفظ في كلماته ولا في صوته بأيّ أثر للشكوك التي كانت قد هزّته وأقبل يُعلن للأتباع الذين كانوا لا يزالون كثيرين بانتظاره أنّ النصر قريب وأنّ «الإمبراطورية» في سبيلها لأن تُكْسَب، وأنّه بسبب هذا الأمل بالذات ينبغي أن تصل الرسالة بلا رَيْث إلى أبعد الشعوب. وطلب من أفضل تلاميذه أن ينتشروا في أقاليم الإمبراطوريات الأربع، من (الصين) إلى (مصر(و(أكسوم) [إحدى مدن (الحبشة) المهمّة]، ومن (روما) إلى (تدمر). «كانت الديانات السابقة تتوجّه إلى منطقة واحدة، إلى لغة واحدة. وديانتي مصنوعة بحيث يجب أن تظهر في جميع المناطق وبجميع اللغات في آن».

وأمّا هو فإذ كان في الوقت الحاضر أقلّ حريّة في تنقّلاته فقد شرع في الكتابة بحميّة تُقارب الجنون. مئات الرسائل التبشيرية وأناشيد ومزامير وكتباً لم يكن يكتفي بخطّها بيده، بل كان يُزخرفها ويُزيّنها بالرسوم ويُذهّبها، وكان التذهيب الفرصةَ الوحيدة التي تتنازل فيها أصابعه لحسّ الذهب.

وإلى هذه الحَقبة يرجع أحد أعجب المؤلّفات في كل العصور، كتاب كان «ماني» قد عنونه ببساطة «الصورة»، وفيه شرح مجموع معتقداته في سلسلة من الرسوم من غير استعانة بالكلمات. وهل كانت لديه أفضل من هذه الوسيلة للتوجّه إلى جميع الناس من خلف حاجز اللغة؟

- ٥ -

غـدا طيف «ماني» مـذّاك مُلْكاً لمشهـد البلاط. ولـو حـدث أن احتجب من أجل بعض الاجتماعات بأتباعه فإنّ «شاهبور» كان يستدعيه، حتى لتبلغ مـرّات استدعائه ثلاثاً في اليوم نفسه، لاستشارته في كل مـا يشغل بـاله رجـلاً ومَلِكاً، سواء تعلّق الأمر بصحّته أو بالكواكب أو بحالات غضب أختـه ـ زوجته «أزور ـ أناهيت» أو بدسائس الكهنة اليومية أو بالعلاقات بين «الإمبراطوريـة» والقوى الأخرى التابعة أو المُعادية.

وكان في طليعة تلك القوى (روما)، منـافِسةُ «البـارتيين» ثم «السـاسانيـين» الأبدية. ولم يكن تاريخها مصنوعاً من انطلاقات سُلالية، بيد أن أعظم أباطرتهـا كانوا يَصْبُون، شأنهم شأن «شاهبور»، وشأن أبيـه «أردشير» من قبـل، إلى ضمّ شَطْرَيِ العالم تحت لواء نسورهم البرونزية.

«الرومان» و«الفرس»، موجتان عدوّتان حكم عليهما وسـواسٌ مشترك بـالكرّ إحداهما نحو الأخرى، بالتحطّم إحداهما على الأخرى.

ولقد أراد «الساسانيون» الذين تُوغِـل أراضيهم بعيداً في سهـوب (آسيا) أن تظلّ عاصمتهم قائمة في أقصى الغرب من أملاكهم في منطقة غريبة عن ثقافتهم كما هي غريبـة عن عباداتهم، بـلاد (ما بـين النهرين) السـامِيَّة هـذه، المسيحيّة

جزئياً منذ زمن؛ وكان حلمهم أن ينشروا راياتهم فوق مجموع الأراضي الممتدّة من «دجلة» إلى نهر «ستريمون» الذي وُلِد «الإسكندر» بالقرب منه. لكي لا تكون (المدائن) في يوم من الأيام مرحلة من مراحل «الإمبراطورية»، بل مركزها.

وفي هذا الوقت كانت (روما) متّجهة بأسرها نحو «الشرق»، «الشرق» الذي كانت تتّخذ منه وثناً وتؤلّهه وتتوقّع منه المجد والخلاص. وعلى هذا كانت ترفع إلى سدّة الحكم قادة عسكريين قادمين من (الشام) أو من (جزيرة العرب)، وكان فلاسفتها القليلون يتلقّون مبادئهم في (مصر)، وكانت المعتقدات التي تقبل بانتشارها هي معتقدات «أدونيس» و«هرميس المثلّث العظمة» [اسم أطلقه اليونانيون المقيمون في (مصر) على الإله «توت»] و«ميترا» (الهندي - الإيراني) و«شمس (أميز) التي لا تُغلب» [«أميز» هي اليوم مدينة «حِمص» السورية، وكانت مشهورة في ذلك الزمان بمعبد كبير تُقام فيه شعائر عبادة الشمس]، بل وأبعد المعتقدات عن التوقّع، معتقدٌ يهوديٌّ من أنصار العنف السياسي تمرّد قديماً على (روما)! وفوق ذلك كانت تداعب مخيّلة المسؤولين في (روما) منذ زمن فكرة إنشاء عاصمةٍ ثانية لِـ«الإمبراطورية» غير بعيد من (البحر الأسود)، عند ملتقى (أوروبا) بـ(آسيا)، في المكان الذي كانت تقوم عليه (بيزنطة)، عاصمةٍ يكون لها شأن في قابل الأيام، وقد تجرّأ بعضهم مسبّقاً على تسميتها - يا لَلغرور الدنِس! - (روما) الجديدة.

مَنْ من القُوَّتَيْن اللتين كانتا تتنازعان العالم كانت ستنتصر يا تُرى؟ لقد كان للموجة الساسانية حظوظها. فبينما كانت «السُلالة الإلهية» تتوطّد تحت شعار الملوك المؤسّسين، كانت (روما) تتحلّل في الفوضى. فطَوال عهديْ «أردشير» و«شاهبور» وحدهما توالى أربعة وعشرون «قيصراً» وكأنّهم يتناقلون مِقبض خنجر ليكون لهم بمثابة صولجان. ويبلغ الأمر بالمواطنين أن يجهلوا اسم عاهلهم لساعتهم، ولم تكن الفيالق تدري مَنْ تطيع؛ فما إن كانت «المدينة» تهتف لإمبراطور جديد حتى يكون محارب آخر قد ثار في بلاد (الغال) أو في (داسيا) أو حتى في (إيطاليا) نفسها. ولم تعُدْ مياه نهر «روبيكون» تَذْكُر أيامَ طُهْرها.

وإذا حدث أن هدّد البرابرة مثل «الهُون» أو «السرماتيين» أو «الألنيّين» بعض الأقاليم الساسانية فإن ملك الملوك كان يُرسل إليهم فارساً من أكـرم الفرسـان، «إسفيـداراً» مِقْداماً ما إن ينجـزُ مهمّته حتى يهـرع للسجود بفخـار عند قـدميْ عاهله لتلقّي بعض كلمات الثناء أو حُلّة زاهية. وبالمقابل فإنّه عندما كان يحاصر تراب «الإمبراطورية» أولئك البرابـرة أو «الفرُس» فـإن الأمبراطـور لا يلبث أن يشعر بانزلاق عرشه. ولم يكن من الصعب التنبُّؤ بأنّه ما إن تصدُّ الفيالق العـدوَّ حتى يزحف قائدها المتوَّج بهالة نصره الفتيّ على (روما) للاستيـلاء على الحكم. وإذا ما حدث بمعجزة أن كان لا يتوق إلى ذلك ولا يجسر عليه فإن قـادة المئة في جيـوشه سـوف يعلنونـه «إمبراطـوراً» عليهم وعلى سـائر أفـراد هـذه الجيـوش. وطريق الوصول لكل من يصبو إلى خلافة «الجليل»: أن يـرأس بنفسه جيـوشه على أمل أن يقطف بيديه غار النصر. ولكن ما إنْ يبتعدُ عن «المدينة» حتى يبدأ حَوْك المؤامرات.

وحتى على الجبهة لم يكن بمنجاة. ولا يـزال المؤرّخون يتسـاءلون عـمّا إذا كان الإمـبراطور «غـورديانـوس»، وهو ثـالث من حملوا هذا الاسم، قـد جُرح حتى الموت حين ذهب يُنـاوِش شمالي (مـا بين النهـرين) بيد أحـد المرتـزقة لحسـاب «السَاسانيّين» أو بطلب من رئيس حـرسه الخـاص «ماركـوس يوليـوس فيليبوس». وعـلى أيّ حال فقـد عَزَتِ الشـائعاتَ التي سرت في «المـدينة» الجـريمةَ إلى هـذا الأخـير. الأمر الـذي جعل منـه تبعاً للتقـاليد الـدستوريـة المعمول بهـا في تلك الحقبة أقرب ورثة الفقيد إلى منطق الأمور. وقد ظهر في قائمة الأباطرة الـرومان باسم «فيليبوس العربي» إذ كان قد وُلِد في كنف قبيلة كانت تترحّل على أطراف الصحراء في (جزيرة العرب).

قبيلة كانت قد اعتنقت في وقت مبكّر جداً دين «الناصريّ». ويُؤكّـد مطران «القيسارية»، «أوسيب» وهو من المؤرِّخين «للكنيسة» أن «فيليبوس» كـان، قبل «قسطنطين» بكثير، أول إمبراطور مسيحيّ، وأنّه كـان يذهب بـالسرّ إلى المغاور ويؤدّي شعـائر الاعـتراف مع عـامة المستغفـرين؛ وربما منعتـه هشـاشـة وضعـه

وحـدها عـلى رأس «الإمبراطـورية» من الجمهـر بما كـان يُتهامَسُ بـه في الأحيـاء الوضيعة خلف نهر «التيبر» كما في أروقة «الكابيتول».

ولقـد حكم خمسة أعـوام، من ٢٤٤ إلى ٢٤٩ م. وإذا ذُكرت هـذه الأرقـام على هذا النحو تبعاً للتأريخ المسيحي المتأخِّر فإنها تظلّ نَكِـرة. وينبغي نقلها إلى التقـويم الرومـاني لإدراك مرمـاها. إن عـام ٢٤٤ م يوافق عـام ٩٩٦ على بنـاء (روما)، ويوافق عام ٢٤٩ م ١٠٠١. وعليه يكـون قد احتُفـل برعـاية «فيليب العـربي»، في بذخ لا يُصـدَّق، بمرور ألف عـام عـلى «المـدينـة». وإنها لأفـراح ضخمـة امتـدّت أشهـراً، ألعـاب سِـيرك، استعـراضـات، عـروض تمجيـد بالانتصارات، أضاحٍ، ولائم لا تنتهي في الساحات العامـة، حول مـوضوع لا ينِي يُنَوَّه به، ربّما لإشهاد الحقيقة: خلود «الإمبراطورية» وشريعتها.

إنّه لزمنُ حكمٍ مقتضبٌ بالنسبة إلى هذا المحارب البدويّ المحاط بـالألغاز. ولكنْ أيّ زمن!

وإذ كان «فيليب العربي» راغباً كل الرغبة في تذوّق الاحتفال بتلك «الألفية» وتنظيمها بنفسه، ومهتمّاً كذلك بـإزاحة منـافسيه من طـريقه وفـرض الهيبة عـلى جحـافل القُـوط المُزْعِجـة، فقد كـان بحاجـة إلى هدنـة طـويلة في النـزاع مـع «الساسانيين». وقد أوفد إلى (المدائن) ابنه الذي كـان يومـذاك في العشرين من عمره.

ولّـا استقبل ملك الملوك المُـوقَدَ في الفخـامة الخـلاّبـة التي تضجّ بهـا قـاعـة «العرش» وأخذ يُصغي إليه متكلِّماً باليونانية في زَهْوٍ، ولكنْ بنوع من نفاد الصبر الفتيّ كذلك، عن مُنيته العارمة في الوصول إلى سِلْم غير محدود، فقد فكّـر قبل كل شيء في (أرمينيا). فلقد كانت منذ عهد «البارتيين» ساحة مـواجهة دائمـة بين (روما) و(المدائن)، إذ كان أمراؤها مرغَمين على المناورة بشكل يُثير الإشفاق بـين النـاهبـينْ الجبّـاريْن. وفي (أرمينيـا) كـانت تقـوم ذراع الميـزانِ الشـاطِـرةُ «إمبراطوريةَ الشرق» الكبرى عن «إمبراطورية الغرب». وعليـه فإنها كـانت هي

التي طالب بها «شاهبور» ثمناً للسلام.

وتنازل ابن «فيليب» عن كل شيء، بل عن أكثر من ذلك. ولسوف تنسحب الفيالق من (أرمينيا) ويُدعى النبلاء المحلّيون إلى القبول بعد اليوم بسلطة ملك الملوك، على أمل أن لا يستثني «القيصر» ـ كما كان يدعوه ـ «بشهامته التي لا تُضاهى» أيّاً كان من سخاء عهوده السابقة. ووافق «شاهبور» بإشارة متعالية. ثم وضع يديه، وقد تحرّك بكل البطء الذي تستوجبه عزّته، فوق كتفيه شابكاً مِرفقيه، وتلك أمارة عنده على الاستغراق في التفكير. وقال في نفسه إنه ما دام هذا «العربي من روما» قد عدل في ثوانٍ عن تطلُّعات عمرها عمر الزمن فذلك يعني أنه مستعدّ لأن يدفع غالياً، غالياً جداً، ثمن السلام الذي يستجديه! ولكي يسبر أغواره أعمق فأعمق فقد غامر بصوغ طلب مُغالى فيه. ولسوف يشعر معه ابن «قيصر» ولا ريب بالإهانة، إلا أن ذلك سيتيح فيما بعدُ رسم الحدود الدائرية لمعاهدةٍ ما.

وإذ لم يكن «شاهبور» يريد من البداية توريط شخصه الإلهي لأنه لن يكون من المناسب التنازل عن أدنى تفصيل من تفاصيل النزاع فقد أشار إلى أمينه بالاقتراب وأملى عليه في أُذنه الوضع الذي سيُكلِّفه التعبير عنه.

قال ما معناه إن (أرمينيا) لم تكن يوماً في نظرنا موضوع نزاع. وإذا انسحبت منها الفيالق فلن يكون الأمر كَرَماً منها بل مجرّد حكمة لأن جيوشنا الباسلة تتجهّز لكي تُعيد بحدّ السيف حقوقنا الأبدية في هذا الجزء غير المُدافَع من أراضينا. كلّا، إنّه إذا كان «قيصر روما» راغباً حقّاً في السلام بقلب خالص ومن دون رغبة في الخِداع، فإن عليه أن يختار الطريق الذي سلكه كثيرون من الملوك الآخرين الذين عرفوا كيف ينالون رضانا.

انتظر المُوفَد و«پادهامه» في يده أن يُعلِن الأمين إرادة سيّده.

ـ على «روما» أن تدفع إلى «شاهبور» الإلهيّ، ملك الملوك وشقيق «الشمس» و«القمر» وعاهل «الشرق» و«الغرب»، مئة ألف قطعة ذهبية في كل عام.

جزية! لسوف يدفع الإمبراطور الروماني إلى «الساسانيين» جزية سنوية! ويكون تابعاً له، كما هو حال خان «الساسيين» [قبائل بدوية من «تركستان» الغربية كانت قد أقامت لنفسها إمبراطورية بجوار (آسيا الغربية)] أو العرّاف الأكبر لـ «الفرتيين» [جماعات بدائية من سكان شمال (آسيا)] أو مُرْزُبان «الجدروزيين» [سكان منطقة قديمة من آسيا) تعادل اليوم «بلوشستان» تقريباً]! لقد غدا وجه المُوفَد الشابّ بلون الأرجوان وانغرزت أظفاره في راحتيه وضغطت قبضته في سخط المنديل الأبيض وساورته رغبة في رميه كرةً مدعوكة في وجه مَنْ قد أهانه. وحبس رجال الحاشية أنفاسهم وتوقّعوا أن يروا «الروماني» ينصرف راكضاً لإبلاغ أبيه بالإهانة التي أصابته. وعندها سوف يستأنف المحاربون نشاطهم كأقوى ما يكون النشاط. بيد أن ابن «فيليب» لم يُغادر مكانه وتراخت قبضته شيئاً فشيئاً وانبسطت وجنتاه حتى فقدتا كل لون من ألوان الدم. وعرف كيف يستعيد رباطة جأشه، بل جهد في اصطناع ابتسامة. وعندما سُمِعَتْ من فمه بعد ثوانٍ لا تنتهي بضعُ جُمَلٍ متماسكة فإنّه لم يَسْعَ إلى رفض مبدأ يتعلّق بجزية، وإنما اكتفى بالمفاوضة على المبلغ الذي سيُدفع وعلى طرائق دفعه.

لم يجرؤ «شاهبور» على تصديق ذلك، وعزا هذا الحدث الشاذّ برمّته إلى عدم خبرة المُوفَد. ولا ريب في أنه سيُوَبَّخ لدى عودته إلى أبيه ويُتَبرّأ منه.

ولم يحدث شيء من هذا مع ذلك، ولسوف يدفع «فيليب». كلَّ عام. المبلغ المتّفق عليه. وسيكون الاحتياط المتّبع هو أن تحمل الذهب قافلة من رجال قبيلته لكيلا يتعرّض اسم (روما) ولا ثياب عسكرها للإذلال. وإذ أُنقذت المظاهر على هذا النحو فقد أصدر منذ تسلُّمه العرش قراراً يُسنِد فيه إلى نفسه عِلاوة على لَقَبَيْ «إمبراطور» و«جليل» لقب «قاهر الفُرس الأعظم».

لم يدرِ «شاهبور» بالطبع بكلمة واحدة من كل هذه الادّعاءات الفارغة، وكان غداة المعاهدة يطفح بِشْراً. ولو أن أدنى ريب كان قد ساوره على مصيره

المجيد، فإن الريب كان قد تلاشى. ولم يكن هناك ما يمنعه من التفكير بأن «العناية» كانت قد عيّنته على الدوام لحُكم المخلوقات بأسرها. فكيف يُلام؟ وما الذي كان في وسعه أن يرجوه خيراً من وجدان نفسه سيّداً على منافسه الأوحد؟ وعندما كانت تصل كل عام شتاءً القافلة التي تحمل ذهب الخضوع الروماني، كانت تُقام الاحتفالات ثلاثة أيام وتُنْحَرُ الهياكلُ الأضاحيَ وتُوزَّع المؤن في جِرار كاملة على المُعْوِزين. وسريعاً ما كان ينتشر الخبر مجلجلاً في العاصمة، ثم في الأقاليم والممالك المشاركة، على يد الرُّسُل ليسمعه كل أحد، من أقوى حكّام المناطق إلى أوضع رئيس قرية.

وذلك ما أمّن لِـ «شاهبور» خضوع الجميع: فالرجل الذي كان يدفع له «قيصر روما» الجزية، منذا الذي يجسر يا تُرى على مقارعته؟

- ٦ -

كان ملك الملوك يبدو راضياً أشدّ الرضا. حتى وإن وشت من حين إلى آخر كلمة واهية بحرمانه المتنامي. فما دام «الرومان» مُبَلْبَلين وقابلين للطعْن إلى هذا الحدّ أفلا يكون خفّةً منه الاكتفاءُ بقبض جزية في حين أن بمقدوره صَرْعَ العدوّ المريض بضربة واحدة؟ ولماذا يُتيح لـ «الرومان» مجال تدارك أنفسهم مُضيعاً هو نفسه سنوات نفيسة؟ لقد جاوز الأربعين بكثير فهل ينتظر أن يشيخ قبل الانقضاض لغزو «الغرب»؟ بيد أن المعاهدة معاهدة، وليس «شاهبور» بالرجل الذي يحنث بكلمته أو يخون خاتمه. ولسوف يخطئ خطأً فادحاً، هو الذي تتألّف سلطته من آلاف أيمان الولاء، في أن يُقَدِّم المثال على الغَدْر.

وبدا أن صراعه مع نفسه قد حُلّ في اليوم الذي علم فيه بوفاة «فيليب» وقد ذبحه، كما جرت العادة، عسكره الثائرون وذبحوا في الوقت نفسه ابنه ومعظم مساعديه. ومعهم عدد كبير من المسيحيين المتّهمين بمساندته.

وإذ دعا «شاهبور» أعيان «الإمبراطورية» الساسانية الرئيسيّين وبعض النُّصَحاء فقد طلب منهم أن يُعَبِّروا بحرية عن السبيل الواجب اتّباعها. وكان «كردير» أوّل من حرّك «بادهامه» وقال:

ـ لقد أبدى «سيّدنا» كرماً متناهياً تجاه «الرومان». ولقد دلّل، هو الذي كان

في وسع جيوشه المظفَّرة تشويه الكَفَرَة وإبادة «إمبراطوريتهم»، على صبرٍ وطيبٍ ووازع خلقي تُشرِّفه، بيد أن أعداءنا لم يكونوا ليستحقّوها! ولقد قامت معاهدة بين سيّدنا و«القيصر فيليب». وإذا كان هذا الأخير قد وفى بها فما ذلك بواجب الشرف وإنما بالخِداع المحض بسبب الإرهاب الذي كانت توحي به إليه قوة السُلالة الإلهية. والآن وقد عاد «فيليب» إلى «ظُلُمات أهريمان» فسيكون في وسع (روما) أن تذوق غضبنا العادل كما ذاقت طويلاً شهامتنا.

لم يَخْفَ على أحد النقدُ الموجَّه إلى السياسة المتّبعة حتى الآن، على الرغم من كونه مغلَّفاً بالمدح. ولم يكن على كل حالٍ من صنع «كردير» وحده لأن كل الذين عقّبوا، كهنةً كانوا أو أمراء أو أمناء، أَوْصَوْا باللجوء إلى السلاح.

وعلى الرغم من الخطر المفروض بالنظر إلى شخصِ ملكِ الملوك فقد كانوا يرفعون أحياناً نظرة خاطفة محاولة منهم لرَوْز مشاعره ومزاجه. والذي لا شكّ فيه أن ما كان الوجهاء يقولونه كان يتلاقى وأخصّ اهتماماته. لقد أخّر شنَّ الحرب على (روما) طويلاً، طويلاً جداً. وها هي ذي تفرض نفسها بعد اليوم وقد عُثر على الداعي إليها. وكان العاهل على أهبة الكلام باحثاً فقط عن الكلمات المناسبة، إذ لم يُرِد أن يُقَدِّم الانطباع بالاستسلام إلى استفزازات الكاهن، عندما لوّح «ماني» الذي ظلّ متوارياً حتى الآن، بمنديله. وإذ اعتمد على ذراعه اليمنى للخروج من الطنفسة السميكة التي كان يجلس عليها فقد بدأ بتعداد الامتيازات التي كان ملك الملوك قد نالها «بفضل سياسة الصلح الماهرة التي انتهجها»، متوكئاً على سنوات الرخاء التي اجتازتها «الإمبراطورية» الساسانية، وعلى المكانة السامية التي اكتسبها في عيون جميع الأمم «أَوَّلُ الناس». وكان الاستهلال بارعاً في تلطيف ندم «شاهبور» ووضعه في موضع أفضل في مواجهة جميع مُلَقِّني الدروس. ثم حذّر:

- إذا انطلقت عساكر السُلالة لمحاصرة «الإمبراطورية» الرومانية فسيُكتب لهم النصر لا محالة، بيد أنّهم سيرغمون الفيالق على الاتحاد تحت قيادة واحدة. وبدلاً من الإجهاز على العدو، كما يُطالب بذلك بعضهم، يكون قد عولج بدواء

قويّ، مُؤلم ولكنّه ناجع، ومخلِّص بالنسبة إليه. أفيكون ذلك هو الهدف الذي صبا إليه من تحدّثوا قبلي؟ أفيكون هذا الجنون هو الذي يريدون أن يُبدلوا به السياسة الرشيدة التي ينتهجها سيّد «الإمبراطورية»؟.

بدا «شاهبور» مضطرباً، بل لقد كان التردّد يُقْرَأ بجلاء على ملامحه، وأخذت بعض المناديل تهتزّ حوله بفوضى. بيد أنه لن يسمح بالكلام، فقد آن الأوان لكي يستعيد سلطانه ويلفظ الكلمات الحاسمة: .

ـ إنه لم يتغيّر شيء بالنسبة إلينا فيما يتعلّق بالمعاهدة مع «الرومان». فعندما يحلّ «قيصر» محل آخر ينبغي عليه أن يحافظ على التعهّدات التي قطعها سلفه. وسنواصل «نحن» والحالة هذه احترام تعهّداتنا بإخلاص. ولكن إذا انقطع دفع الجزية «فإننا» سنُجيب بكل القوة التي نملك الحقّ باستعمالها تجاه الخونة. ولكي نحتاط لكل احتمال «فإننا» ننوي استدعاء جميع تابعينا والشعوب الخاضعة والجنود المرتزقين. وعند أول بادرة خيانة تزحف جيوشنا المظفَّرة إلى ساحل «الغرب» نحو (الأناضول) و(كاپادوسيا). وتستمرّ، أبعد من ذلك، في تخريب أقاليم «الرومان» حتى يأتوا «إلينا» لتجديد خضوعهم المُذِلّ.

ما إن انصرف الأعيان حتى أخذوا يمرحون في أروقة القصر متحدّثين عن خيانة العدوّ الفِطريّة، وعن جُبن عسكاره وزعمائه الذي يُضرب به المثل، وكذلك عن استعصاء ملك الملوك المؤكَّد على الهزيمة. وحده «ماني» ظلّ مُنْزَوِياً ساهماً، ولم يلبث أن نسيه الجميع. وما إن خلت قاعة المجلس حتى ذهب إلى كبير الأمناء لطلب لقاء خاص مع «شاهبور». ولقد استقبله بلا إبطاء.

ـ كان بودّي أن أُضيف كلمة، غير أن الكلام كان قد حقّ لمن له الكلمة الفصل.

أشار إليه العاهل أن يتابع.

ـ لقد حدّد سيّد «الإمبراطورية» أنه سيعاقب «الرومان» إذا توقّفوا فقط عن دفع الجزية. أتراني أدركت جيّداً؟.

ـ تعلم أن خصوم «فيليب» قد أخذوا عليه توقيع اتفاق غير لائق وبَخْس. بل ربّما كانوا قد قتلوه بسبب ذلك.

ـ ربّما. ولكن لو اختار «القيصر» الجديد لسبب من الأسباب الاستمرار في الدفع فهل تُشَنّ عليه الحرب على الرغم من كل شيء؟.

ـ كنت واضحاً جداً بهذا الشأن. إذا احترموا كلمتهم احترمتُ كلمتي!.

ـ لماذا إذن إرهاق الخزينة والتابعين والفرسان وجميع الرعايا بالمصاريف الباهظة التي تستتبعها عمليات الحشد حتى قبل معرفة وضع «الرومان»؟ فما إن يُجَمَّعُ الجيش وتُوَرَّطُ القبائل التابعة والعساكر المرتزقة حتى يرغب الجميع في القتال والعثور على الأسلاب، فلن يكون بالإمكان إعادتهم إلى بيوتهم خالِي الوفاض. لقد رؤي هذا في الزمن الغابر. فإنه يُدَقُّ النفير بسبب تهديد بالحرب، ثم ينتهي الأمر، حتى وإن انزاح التهديد، بشنّ الحرب لأن الجيش كان قد حُشِد.

ـ لن تُطرح المسألة. فكل أحدٍ يعرف ما سيكون سلوك «الرومان» ثم إني سبق أن أعلنت قراري ولا مجال للعودة عنه بالنسبة إليّ.

ـ ليس السيد بحاجة إلى العودة عن أيّ شيء. لقد قال إنه سيحشد عساكره، وفي وسعه أن يفعل، ولكنّ أحداً لا يمكن أن يُرغمه على استدعاء جميع حكّام الأقاليم وجميع القبائل وجميع التابعين في الوقت نفسه. وفي الإمكان اتّخاذ الاستعدادات على مهل. وإذا حدث أن اختار «الرومان» سبيل التحدّي أمكن أن تتسارع عملية الحشد.

ـ لم يكن هذا في نيّتي، غير أني أودّ كثيراً قبول حُججك واتّباع نصائحك. ولْتَشَأ «السماء» ألاّ أندم على ذلك. واعلم يا «ماني» أنه ما كان بمقدور أحد من الحاضرين في «المجلس» أن يجعلني أُبَدِّل رأيي. وإذا أصغيتُ إليك على هذا النحو، وإذا سلّمتُ برأيك، فلأن لك عند هذه السُلالة وفي مصيري الخاصّ مكاناً لا تعرف به أنت نفسك.

تحاشى «شاهبور» في الأسابيع التي تلت ذكر التحضيرات العسكرية؛ ومع ذلك فقد كانوا نُدرة أولئك الذين خمّنوا في أروقة البلاط أيّ تغيّر في السياسة؛ وكان الناس يفسِّرون سلوك ملك الملوك برغبته في الظهور مُطمئِنّاً ومُحتقِراً إزاء حرب كان يعتبرها كل شخص في (المدائن) مكسوبةً سلفاً. ولقد كان يُقال إنّ العاهل سوف يقود الجيش الكبير بنفسه يعاونه أحد ولديه. ولكن أيُّهما؟ البكر «بهرام» الذي جرى العفو عنه مُجَدَّداً، والذي كان يحبِّذه معظم الكهنة والمحاربين؟ أم «هرمز» المعروف بأنّه الأبسل والأحزم، ولكنّ مخالطته «ماني» وآراءه قد تكون رهّلته قليلاً كما يُقال؟.

لقد نضبت المراهنات عندما وصل على غير انتظار سفير روماني حاملاً بلاغاً من الإمبراطور الجديد «دسيوس» إلى «أخيه الإلّهيّ» «ملك الملوك»، يؤكِّد له فيه أن المعاهدة المعقودة مع «فيليب» سوف تحترم حتى في بنودها غير المُعْلَنة؛ وعلى أيّ حال فإن الذهب كان في طريقه لا بالمواكبة الخجولة من القوافل البدوية، وإنما بشكل أكثر علانية، بمواكبة مَفْرَزة من الحرس الإمبراطوري!.

كان على القوم في (المدائن) أن يغتبطوا. فحتى ذلك الحين كان الولاء الذي ارتضاه «فيليب» من صنع رجلٍ بمفرده، مُغْتَصِبٍ وصل بفضل نزوات الحظّ إلى قمة «الإمبراطورية»، وهو مستعدّ للتضحية بالخزينة والأقاليم لأجل الحفاظ على السلطة. وكانت (روما) بأسرها هي المعترفة في الوقت الحاضر بأوّليّة ملك الملوك!.

ومع ذلك فقد كان المزاج في البلاط الساساني مزاجَ حِداد. فلقد شعر الذين كانوا يتمنّوْن المواجهة بأنهم حُرموا أمانيهم، بل أخذ بعضهم يُفكِّرون في نصب كمين للموفَد الروماني رجاءَ إحداث ما لا يمكن إصلاحه. إلا أن حزب الحرب كان يخشى، على الرغم من نفوذه، أن يجلب لنفسه صواعق «شاهبور». وقد كان هذا نهباً مقسّماً. فإذا كان العمل العسكري لا يزال يُغريه فإنه أخذ يتدبّر معنى الولاء الروماني الجديد، وقد كان هذا يُدغدغه ويؤكِّد له على الأخصّ ضعفَ العدوِّ المُقيم.

كانوا كثيرين أولئك الذين فسّروا، شأن «كردير»، تردُّد العاهل في عقد العزم بالتأثير المتزايد لـ «ناصريّ بابل اللعين». فلم يكن أحد يجهل بالفعل الخَلَوات اليومية بين الرجلين. وكان «شاهبور»، وهو لا يستطيع نسيان كون «ماني» الوحيد الذي توقّع سلوك «الرومان»، يطمئنّ لحُكمه؛ وكان يفتح له قلبه كلما اجترّ أتكار الحرب. وكان ابن (بابل) يُحسِن إيجاد الحُجج المثمرة.

ـ لا ريب في أن «الرومان» فزِعون لرؤية جيشك يجتاح أقاليمهم ويهدد حواضرهم. وهذا الهلع الذي يسكن نفوسهم هو بالنسبة إليك مَعِينُ امتيازات كبرى. أدِمْ هذه الحالة واحصلْ من عدوّك على كل ما يُرغمه ضعفه على منحك إيّاه واتركْه يؤكّد عاماً بعد عام في عيون جميع الأمم سموَّ قَدْر سُلالتك وشخصك. فلماذا يُغادر أوّلُ الناس الموقعَ الذي تكرّمت العناية بأن يكون موقعَه ليخضع للمصادفات الناجمة عن عملية حربية؟.

لقد رغب العاهل كل الرغبة في أن يرضى بهذه الحُجج ما استمرّ العدوّ في دفع الجزية. ولكنّ شيئاً في (روما) لم يكن ليتنظم. فبعد سنتين على موت «فيليب» قُتل خلفه بدوره. ولم يكن عدد المرشحين المتنازعين على السلطة يقلّ في الوقت الحاضر عن أربعة. وكان أحدهم يُرْسِل من حين إلى آخر مُوفَداً إلى ملك الملوك لاستدرار رعايته والتماس حُظوته. وكان ذلك يُسلّي «شاهبور». أفيكون سيِّدَ (روما) المطلَق وحَكَماً فوق ذلك في المنازعات بين قوّادها؟ لم يكن «الساساني» قد حلم يوماً بامتياز بمثل هذه الغرابة.

إلا أن الذهب لم يصل في أجَله في الصيف التالي. ولم يكن ذلك من جرّاء رغبة طوعية من (روما) في نقض المعاهدة المُبرَمة مع (المدائن)؛ بيد أنّ أحداً من «القياصرة» الأربعة لم يكن قادراً على دفع مثل هذا المال. فكل واحد من المتشوّفين إلى الحكم كان بحاجة ماسّة في صراعه مع منافسيه إلى الذهب الذي يملكه.

وفي البلاط الساساني عادت الحرب تحتلّ مكانها في الأمر اليومي. ونشط الكهنة والمحاربون، ولم يَسَعْ «شاهبور» إلى الوقوف في وجههم. وعندما انفرد

خلال هذا الهَرْج والمرْج مرّة جديدة بـ «ماني» فإنّ ذلك لم يكن للاستماع إليه يتحدّث مجدّداً عن حسنات الهدنة.

ـ لقد أصغيت إليك على الدوام أيها الطبيب البابلي حتى إني اتّبعت نصائحك على حساب ميولي الشخصية. والآن جاء دورك يا مُحَمِيّي ورفيقي للانضمام إلى رأيي، وأريد، في هذه المعركة التي ذرّت بقرنها، أن تكون إلى جانبي، بكُلِّيتك، بكلّ نفسك وبكلّ ذكائك، أنت يا مَنْ جعلتُ منه أحد أعمدة حُكْمي، وأحد أعمدة السُلالة.

» لقد فُرضتْ عليَّ هذه الحرب. وأبديتُ طويلاً الصبر والمروءة، ولم أرغب في نقض الهدنة مع أنه كان في وسعي أن أفعل، وفي حين كان الكهنة يؤكّدون لي باسم «الأفستا» أن الأمر سوف يكون مشروعاً وجديراً بالثناء. وعليه فقد أصغيتُ إليك وعدلتُ عن حشد جيوشي لأقدِّم إلى «الرومان» فرصة احترام عهودهم. ولقد توقّفوا الآن عن دفع الجزية وانتهكوا بأيديهم المعاهدة التي كانت تحميهم. وأيّاً تكن أسباب هذه الخيانة فإني لا أستطيع التسامح فيها من غير أن أفقد احترام رعاياي وولاءهم. وينبغي أن يكون العقاب على قدّ صبري وسخائي.

» وإذا تمكّنتُ من دحر «إمبراطورية القياصرة» فسوف تكون هذه الحرب هي الأخيرة. وسيسود عصر من السلام بين البشر. وإني لأعلم أنك تمقت سفك الدم، حتى وإن كان دم أعدائي. بيد أنك لن تخون وأنت ترى نفسك إلى جانبي في هذه المعركة أيّاً من مبادئك؛ لأنه بفُقدان بعض الحَيَوات سوف تُنقَذ أخرى أكثرُ عدداً بكثير منها.

» لقد حذّرني أناس كثيرون منك يا «ماني» على مدى هذه السنين. بعض الحسّاد وبعض الذين تأكل الغَيْرة صدورهم، ولكنْ بعضُ الناس ممّن أظنّهم متفانين أيضاً ومخلصين. ولقد ردّدوا على مسمعي «سوف يظلّ هذا «الپارتي» إلى جانبك ما دمت تُهادن. ولكن ما إنْ يحلُّ وقت الفتوح حتى يتركك. فكيف تستطيع أن تَعُدّ بين ذوي مودّتك شخصاً يغتبط لما تُبدي من تردُّد وإرجاء

ويحزن غداً لانتصاراتك؟» هل قالوا الحقّ؟ أجهل ذلك. ومع ذلك فإني أرجو مساندتك أنت بالذات، ومعك أريد أن أقود هذه الغَزاة.

لم يكن «شاهبور» قد خاطبه قطّ بمثل هذه النبرة؛ لا خاطبه هو ولا أي شخص غيره. ولا سبق قطّ أن انتظر بهذا القدر من الصبر ردّ فعلٍ واحدٍ من مُخاطبيه. ولقد طمأنته عبارات «ماني» الأولى.

ـ صحيح أنني أمقت سفك الدماء، بيد أني لا أمقت الفَتْح. بل أنا على العكس أحلم بالفَتْح؛ وإذا كان سيّد «الإمبراطورية» يطمح إلى اجتياح بلاد «آرام» أو (كاپادوسيا) أو (إيبريا) فإن طموحي أنا، «ماني»، أن أغزو (روما)، لا أقلّ من (روما)، (روما) بـ«إمبراطوريتها» بأكملها، ولن أكتفي بأي إقليم مهما كان اتّساعه وازدهاره. أريد غزو (روما) وأعلم أنها ناضجة للغزو. وإن لي الآن في هذه المدينة لعشرات التلاميذ الذين يوافونني في رسائلهم بكل ما يُفعل فيها ويُقال. إنّ (روما) لفي عطش إلى دين جديد. لقد طالما اقتنعتْ بأن «إمبراطوريتها» لا تتبدّل، وأن شريعتها خالدة، وأن «الأرض» و«البحر» ملك لها إلى الأبد وأن «السماء» سوف تحميها لا محالة. واليوم تشكّ (روما) في نفسها، في ملوكها الزائلين، في «إمبراطوريتها» المحاصَرة على جميع الجبهات، في آلهتها الذين يَنْسَوْنَ أن يحموها؛ إنها تشكّ في وفرة غناها وهي تتأمّل في أحيائها التي تمتلىء بالمُعْوِزين. إن (روما) تنتظر من نواحي «المشرق» غازياً كما تنتظر امرأةٌ ناضجةٌ العشيقَ، ولن يُستولى عليها بالسيف، بل بالكلمة الخلّابة، أجل إن كلمات الحبّ هي التي ستجعلها تفتح ذراعيْها.

» أنا مستعدّ للذهاب إلى (روما). وكما استطعتُ فيما مضى أن أجمع في (دبْ) عَبَدَة «بوذا» وعَبَدة «أهورا ـ مازدا» فإني سأجمع فيها أتباع «الناصريّ» على قدم المساواة مع أتباع «ميترا»، من غير أن أضطهد مع ذلك الفلاسفة ولا أن أُنكر «جوپيتير». ولسوف أبشّر فيها بدين لجميع البشر، دين يكون مركزه (المدائن) التي سأكون رسولها المتواضع ويكون ملك الملوك حاميها. تُرى ألن تكون هذه

غـزوة كبرى جـديرة بـ «دارا» وبـ «الإسكنـدر»، بـل أكـبر وأنبـل، وأدْوَم عـلى الأخصّ، من غزوات الماضي؟.

سُقط في يد «شاهبور». غير أنه لم يُرِد أن يتوقّف عند مواقف سوء التفـاهم. وفضّل أن يدين «ماني» من فمه.

ـ تتحـدّث عن الفَتْـح وأتحـدّث عن الفَتْـح، ومن الـطبيعي ألا نستخـدم الأسلحة نفسها، بيـد أننا نملك المطامح نفسهـا. وفي مقدورنـا معاً أن نبني في هذا العالم ما لم يستطع إنسان بناءه من قبل. لقد وُجِد ملوك فاتحون همُّهم سَوْق مجموع المخلوقات إلى مصير أفضل، غـير أنه لم يكن إلى جـانبهم من «رسول»؛ ووُجد أنبياء قدّيسون وبُلغاء، خليقون بأن يصفوا للنـاس مستقبلاً واعـداً، بيد أنه لم يكن إلى جانبهم عاهل قدير تُحرِّكه المطامح نفسها. وللمرة الأولى تُصادِف رسالة سماوية حُكماً عظيماً!.

» إن عالماً جديداً سوف يتشكّل تحت أبصارنا. ومعـاً، ملك الملوك و«رسول النـور»، سـوف نـذهب إلى (أرمينيـا) و(بـلاد آرام) و(مصر) و(إفـريقيـا) و(كاپادوسيا) و(مقدونيا)، وسوف أقيم في (روما) عينها حكم السُلالة العـادلة، وتُعلن أنت الدين العالمي الـذي يشمل جميـع المعتقدات. شـاطِرْني إذن حُلمي كما أصبو إلى مشاركتك حُلمـك، ولسوف أجمـع الكون بقـوّتي كما تنـاغمه أنت بكلمتك.

» إن الكهنة يتهالكون على بابي، وهم يريدون أن تكون هـذه الحرب، هـذه الغزوة غزوتهم. إنهم يرغبون في أن يُبطلوا في كل بلد مجتـاح المعتقدات التي لا تروقهم ويفرضـوا على الجميـع ديانـة «الآريين». وفي مكـان آخر يتـأهّب شيعة الآلهة الأنانيين للانقضاض على العالم ليقيموا في كل مكان حكم التعصّب. أنـا وأنت، وأنت وأنا وحدنا، نستطيع بعدُ الحؤول دون ذلك.

» تعال، تقدّم إلى جانبي على رأس الجيوش، ولن يكون عليك سوى كلمـة واحدة تقولها وأترك الكهنة الملاعين في بيوت نارهم وأسمّيك لأتبـاعي وفرساني

وجميع رعاياي وأعلنهم أن هذه الغَزاة ستتمّ باسمك، باسم الدين الجديد الذي أنت «رسوله».

غدا العاهل الآن مُتَحَمِّساً، بل شبه ضارع. وشلّت الدهشة والتأثّر «ماني». ولم تخرج من فمه أيّة كلمة. وبعد أن صمت «شاهبور» بضع دقائق تابع بنبرة الجلالة المُستعادة.

ـ أعلم أنك لا تُقَرِّر شيئاً ما لم تستشر هذا الصوت السماوي الذي يُناجيك. هيّا اذهبْ واعتزلْ وتأمّلْ وتحدّثْ إلى مَلاكك. ثم عُدْ حاملاً إليّ الجواب.

* * *

هكذا ذهب «ماني» يطوف وحده في حدائق القصر. وقد أصبح الحرس يعرفون الآن ظَلَعَه ومعطفه الأزرق وعصاه، فكانوا يَدَعونه يجول حسب مراسيم الزيارات المعتادة. والحقّ أنه كانت له هنا عادات ودروب مروَّضة، وكان يغشى بعض الأشجار وغديراً كان يأتي بصورة خاصة للجلوس عند حافّته طاوياً إحدى ساقيه تحته ومادّاً الأخرى بالطريقة التي كان يتربّع بها صبيّاً على ضفّة ترعة «دجلة»، بل واجداً في عرين أقوى ملك في الدنيا ذلك الخليط من السلام والاضطراب الذي كان يُتيح له أن يغرق في التأمّل.

لكي يُتاح لصوته الداخلي أن يُسمع.

«هناك لحظات يا «ماني» يكتشف فيها الإنسان سيفاً في يده. ويخجل من استعماله، مع أنه هنا، بارِد قاطِع واعِد. والدرب مرسوم. لقد وَجَد «رُسُلٌ» قبلك أنفسَهم في حالات مماثلة. وانبغى على كل واحد أن يختار لنفسه، بمفرده. وها أنت ذا بمفردك. أكثر من أيّ وقت مضى. بمفردك ضد رأي «شاهبور» وأفراد حاشيته. بمفردك في مواجهة حساب «العناية الإلهية». وعليك بلا أيّ فانوس سوى قطعة «النور» التي في داخلك أن تُميّز وأن تختار».

ـ يكفي أن أقول «نعم» ليفتح لي سيف ملك الملوك دروب الكون الفسيح.

«لسوف يُسبِّح باسمك الناس إذن عصراً بعد عصر، وتُرفع صلوات إلى

«ماني»، ويُضحّى على اسمه، ويُحكَم باسمه ويُقتَل بلا ندم بذكر اسمه».

ـ ما زال في وسعي أن أرفض. . .

«ترفض، تجعل لحمك القابل للشيّ وسذاجاتك تعترض سبل الحرب، تعترض، تُعانِد، تتعلّق بكل مِزقة من سلام أو مهادنة. ويُلعن اسمك ويُمحى وتتشوّه رسالتك».

ـ طويلاً؟.

«ربّما حتى انطفاء نيران الكون. ولن تدخل (روما). ويكون عليك أن تفرّ من (المدائن). ماذا تختار؟»

لقد أعطى «ماني» جوابه وهو واقف ينظر إلى «السماء» مواجهة بشكل مستقيم.

ـ لن تسفك أقوالي الدم. ولن تُبارِك يدي أيَّ سيف. ولا حتى سكاكين المُضحّين. ولا حتى فأس حطّاب.

القسم الرابع

طرد الحكيم

تأمّلوني، أشبعوا أنفسكم
من صورتي،
لأنكم لن تَرَوْني أبداً بهذه الهيئة.
«ماني»

- ١ -

انطلق ملك الملوك إلى الحملة من غير «ماني». بصحبة أربعين ألف نبّال، و«الخالدين» من حرسه الذي ضمّ عشرة آلاف طاقية حاكم إقليم حمراء بلون الدم، والخيّالة الأشراف المدرّعين أجساداً ومطايا بصفائح من الحديد المصبوب، ومعهم كذلك مشاة فلاّحي السُّخْرة المُوحِلون الحفاة الفارغو الأيدي بلا تروس سوى جلود ماعز مشدودة على قَصَبَتَيْنْ متصالبتيْن، وجيش الشعوب المقهورة المرقّش الثياب من «جيليين» و«كادوسيين» و«ڤرتيين» و«دَيْلم» و«هُون» و«ألبان» بالفِيَلة وسُيّاسها ومعهم الطبول والنافخون في النفير وحَمَلة الأعلام، تحرّك «شاهبور» تحمله ستّون كتفاً على عرشه المُسْتَخْدَم في ساحة الوغى، جارّاً خلفه نساءه وموسيقيّيه وأطبّاءه وطبّاخيه وندمانه وعرّافيه وكتّابه ومتملّقيه وذوي نُصْحه. ولكنْ مِنْ غير «ماني».

سلك الموكب في البداية طريق الشمال نحو (أرمينيا). ولم يكن الأمر بعدُ، بكل ما في الكلمة من معنى، أمر حرب خارجية، إذ كان «قيصر روما» قد تنازل عن ذلك البلد لِـ «الفُرس»، وأذعن للأمر النبلاء المحلّيون. وقد ظلّت (أرمينيا) على أيّ حال مملكة، تابعة ولكن مُتَمَيِّزة، وحليفة وحسبُ بانتظار تراخي رِبقة «الساسانيين» يوماً.

وتروي ملاحم «الأرمن» القديمة في أية ظروف استُدرج ملكهم الأجلّ «خسرو» في السنة التاسعة والأربعين من حكمه خارج قصره في (خَلْخَل) بحجّة الصيد بالكلاب وعلى ظهور الخيل وطُعن غدراً بيد عميلين لحساب (المدائن)، وأية تمزّقات استتبعت ذلك، وكيف أن «شاهبور»، وكانت جيوشه قد أصبحت بشكل غير مُتَوَقَّع على الحدود، رأى نفسه مضطراً إلى اجتياح المنطقة لوضع حدّ للفوضى التي لا تُطاق؛ وكيف أصبحت الأسرة الحاكمة صِفر اليديْن وأُلحق إقطاعها على عجل بالأملاك الساسانية؛ وكيف دخل كذلك البلادَ كهنةُ «أتروپاتيين» مزوّدين ببيوت نار مقدّسة متجوِّلة منصوبة على عربات للصلاة خلف الخيّالة وجالوا على الولايات الأرمنية واحدة واحدة واستماتوا في إخماد المعتقدات المحلّية وإهانة الأرباب المنشقّين. وكيف اختارت أعرق أُسَر البلاد عند ذلك المنفى منتقلة بادئ الأمر إلى (ميليتين)، ثم إلى (البحر الأسود) فـ(روما) نفسها، ساعية إلى إثارة قادة الجيوش والشيوخ بحكاية ما قاسته من آلام. واستُمع إليهم، وتعوطف معهم، واستُنكر ما حدث، وقُطعت الوعود. يد أن أحداً لم يحرّك رمحاً واحداً.

وكان ذلك بالضبط هو الذي أراد «شاهبور» أن يستوثق منه قبل جرّ رجاله عبر جبال (أمانوس) ومنابع «الفرات» إلى «كاپادوس» و(سيليسيا) و(سوريا) الرومانية. واستولى بسهولة من «الرومان» على سبع وثلاثين مدينة بخراجاتها، ومن بينها (بتنة) و(بربالیسوس) و(هيرا پوليس) و(الإسكندرونة)؛ كما استولى على (حماة) و(خلسيس) و(جرمانيقيا)؛ وعلى الأخصّ (أنطاكية)، أكثرها ازدحاماً وازدهاراً، وقد نُهبت على نطاق واسع، وخُربت بساتينها وخُطفت صباياها ونُقل حِرفيّوها بالآلاف إلى (المدائن) فأُعطوا إحدى ضواحيها.

وظهر أحد القناصل الرومان، ولم يكن قد أُتيح له الوقت للإبحار إلى (مصر)، والقيود في رجليه، في موكب النصر الذي جعله ملك الملوك يسير في شوارع العاصمة الرئيسية المبلّطة. وتقاطرت الوفود من جميع أقطار «الإمبراطورية» الساسانية محمَّلة بالهدايا للهتاف للمنتصر.

لم يكن «ماني» حاضراً الاحتفال. فطَوال أعوام الحرب هذه كان يسير على دروبه الخاصّة بصحبة جيوشه هو يدفعه طموح إلى فَتْح من نوع آخر. ولسوف يفترض المؤرِّخون فيما بعد أنه اهتمّ في ذلك الوقت بأن يبني حَجَراً إلى حَجر «كنيسته». وكانت هذه الكلمة تضايقه. فقد كان يفضّل أن يقول «أملي»، «ذَوِيّ». وبحنانٍ «قافلتي»، أو يقول «أبناء «النور» وكان الأمر بالنسبة إلى من يراقبونه من الخارج أمرَ «كنيسة» حقّاً، برُعاة «مختارين» وقطيع مُريد؛ بيد أن السلطان فيها كان يخصّ فقط مَنْ يعيشون عيش المتسوِّلين، وكذلك من تُغْلِق أيديهم وفكرهم آيات الجمال. وإنها لتراتبية الحِرمان والإلهام بعيداً عن كل استحقاق آخر، تلكم هي «الكنيسة» التي أبدعتها قريحة «ماني»، وعلى هذا النحو كان ينبغي أن تدوم.

كان «أمل» ابن (بابل) يُزهر آنذاك على امتداد الطرقات، واتّضح أن عقيدته غازِيَة بلا نار ولا حديد ولا عِقاب. وعندما كان الأسرى من (نوريك) أو (موريتانيا) أو (بلاد الغال) يساقون إلى الأرض الساسانية كان تلامذة «الرسول» يأتون للقائهم وتحديثهم عن غثاثة الانتصارات الحربية، ومَنْحِ كل منهم نصيبه من التعزية والتشجيع في بلبلة الناس إزاء الربوبيات والألسن. واعتنق كثير من الحِرَفيين والنساء، وكثير من جند الفيالق المهزومة، الدينَ السَّمْح.

كثيرون من رعايا «شاهبور» أيضاً كانوا يتألّمون من الحرب، وقد فقدوا قريباً أو نغَّص عيشَهم انقطاعُ طرق القوافل إلى أَجَل غير مسمّى. وكان لكلام «ماني» رَجْعٌ في نفوسهم هم أيضاً. وإنها لسنوات عجيبة كان فيها ملك الملوك مقاتلاً على الدوام في حين كان مَحْمِيُّه يمتدح السلام في أقاليم «الإمبراطورية» ولا يبشّر بأقل من «احتقار السيوف والأذرع التي تشهرها».

إنه لحديث يبعث على التمرّد ولا تحتمله آذان الفرسان والكهنة. ولكن ما العمل؟ «إن لكل مَلِك مجنونه»، هذا ما كان يتهكّم به «كردير» في خفاء معابد ناره، «وكلما عظُم المَلِك اتّسع مدى الجنون!»-لأن «شاهبور» كان يرفض الاقتصاص من «ماني» على تهوُّره ما لم يكن الداعي إلى ذلك مأخذاً عامّاً. وإذا

جسر أحد على ملامسة هذا الموضوع في حضرته أظهر الامتعاض جهاراً وبدا فجأة متوعِّداً؛ وعندها يسكت رجل البلاط الجريء ويتهالك في جِمِى «پادهامه» المرتعش.

وإذ كان الأمر كذلك فإنّ ابن (بابل) لم يعُد له بطبيعة الحال في أعوام الحرب هذه مكانه في البلاط. وكان العاهل قد قرّر ذلك واستنكف عن استشارته، من غير أن يرفع عنه مع ذلك حمايته. إخلاصاً للعهد المقطوع؟ لم يكن ذلك هو السبب الأوحد. فمنذ أن اندفع العاهل في حملاته أخذ يرى نفسه محاطاً بالكهنة المشجّعين على خوض الحرب، وكانوا يشغلون حوله كامل الحيّز الصالح للتنفّس، وكانوا قد احتلّوا مجلسه الخاص وديوان بلاطه وبيته العسكري حيث كانت آراء «كردير»، وقد أصبح «موبذان الموابذة» ـ أي رئيس الكهنة الأعلى ـ هي السائدة مذّاك بلا مُنازِع، إذ نادراً ما كان الفرسان والكَتَبَة يغامرون بمعارضتها. وإذا كان «ماني» حينذاك مذنباً في عين «شاهبور» فلأنه قد تركه وحيداً مع أشخاص كان يمقتهم أشد المقت، ولأنه لم يَعُدْ إلى جانبه ليعدّل كفّتي الميزان، وليتيح له الإصغاء أحياناً إلى صوت مختلف.

وكان يحدث للعاهل، عندما كان يخصّ نفسه ببضعة أسابيع من الراحة بين حَمْلتيْن، أن يسأل أحد أخصّائه، ابنه «هرمز» أو أخاه «فيروز» أو حتى «زراف» عازف عوده المفضّل، وهم ثلاثة مُعْجَبين مخلصين بِـ «ماني»، عمّا إذا كان أحدهم قد تلقّى حديثاً أخباراً عنه؛ وكانوا في العادة يجيبون بأنه في جولة مع مريديه في (شراسين) أو (پرسيديا) أو صوب (أبرشهر). أفكان ينبغي استدعاؤه؟ كان العاهل يُزيح السؤال بفرقعة سهلة بالأصابع ولا يلبث أن يُشيح عن مخاطَبه متحدِّثاً عن شيء آخر وكأنّ تنقّلات ابن (بابل) لم تكن تهمّه على الإطلاق، أو كأنّه لم يكن قد سأل قطّ أدنى سؤال عن هذا الشخص.

في حواليْ العام الرابع من الحرب تلقّي ملك الملوك من أحد عيونه، وكان قد جال في بعض الأقاليم الرومانية متنكّراً في زيّ تاجر، تقريراً مُقْنِطاً.

فالفيالق التي كانت تتناحر حتى ذلك اليوم ليفرض كلّ منها إمبراطوراً من اختياره أصبحتْ وقد حلّت فجأة، على ما يبدو، منافساتِها القتّالة؛ ولقد ذُبح ثلاثةُ متطلّعين إلى العرش من أربعة بيد فيالقهم بالذات. وإذ كانت الإهانات النازلة في «الشرق» بـ «الإمبراطورية» الرومانية قد ألهبت ظهرها فقد رأت نفسها ملتحمة بين ليلة وضحاها حول «قيصر» واحد هو نبيل اسمه «ڤاليريان» في السبعين من العمر، رئيس سابق لمجلس الشيوخ، وسياسي محنّك، ولكنّه أيضاً جندي ذو فضائل مشهودة، جعل نصب عينيه، ما إن وصل إلى مقام الإمبراطور، أن يضع حدّاً للزحف الساساني.

وإذ رجا «شاهبور» على هذا أن يثبّط لدى أعدائه كلّ رغبة في الانتقام فقد وجّه جيوشه مرّة ثانية إلى (سوريا) الرومانية واحتلّ مدناً أخرى وخرّب بعض النواحي التي لم تكن قد مُسّت حتى الآن، وقوّى حامية (أنطاكية). وإذ عاد بعد ذلك إلى (المدائن) فقد تبختر في موكب جديد من مواكب النّصر. ومعه في هذه المرّة، بشكل بارز وأمارة على الانتصار، ستّمئة من جنود الفيالق مقيّدين ثُناءَ ثُناءَ خلف عربة المنتصر.

لما كان ملك الملوك واثقاً من نفسه كما لم يسبق له أن وثق فقد قرّر الانطلاق بلا رَيْث لمحاصرة (اليونان)، أو ربّما (مصر)، ولكنه أصيب بنوبة من الحمّى المُراجِعة أرغمته على تأجيل مشاريعه إلى العام التالي. وقرّر في أثناء هذه المهلة أن يَدَع رجاله يعودون إلى ثكناتهم.

وكان قد أعاد الجيوش المساعدة إلى مواطنها حافلة ومكتظة بالغنائم، وأوفد كذلك بعض الفصائل النخبوية إلى (دْرانْجيان) لإخضاع بعض الزعامات المثيرة للاضطراب، عندما وصلته رسائل جديدة من عيونه: كان «ڤاليريان» يقترب على رأس جيش روماني لم يسبق أن حُشد أقوى منه! وكان قد اجتاز (قرن الذهب وأخذ يزحف عبر (آسيا الصغرى). ولقد شوهد ظهور طليعته في (كومّاجين). وكانت فيالقه تسعى إلى التجمّع عند أسوار (سومازات) فيكون بوسعها أن تنزل منها في عشرة أيام إلى السهول الساحلية، أو حتى أن تصعد نحو أودية (القوقاز).

كان «شاهبور» لا يزال يتساءل عن التقدير الذي يجب إيلاؤه لهذه التقارير الحافلة بالويل والثبور حين بلغه سقوط (أنطاكية) فجأة وذبح حاميتها الساسانية. واستدعى على عجل مجلس كبراء المملكة مشدِّداً هذه المرة على أن يُعثر على ابن (بابل).

علم النبيل الشاب الذي قصد، في مَحْمَل رسمي، منزل «مالكوس» من الجيران أن «ماني» كان قد ذهب في هذا الصباح إلى القرية التي وُلِد فيها. وكان أبو «باتيغ» قد تُوُفِّي أثناء الليل بعد أن أوصى بدفنه في (ماردين) في حديقة منزله المهجور إلى جانب من كانت لوقت قصير جداً زوجته المدلَّلة، ثم ضحيةً لنزواته التَقَوِيّة. وعليه فقد ذهب «ماني» لرؤية قرية طفولته الأولى في حجّ حميم رغب عدد كبير من المؤمنين في الانضمام إليه.

إنها لمصادفة عجيبة حقاً بالنسبة إلى رسول، إلى نبيّ، إلى مؤسّس عقيدة، أن يحتفظ بأبيه هذه المدّة الطويلة. فالوالد في حياة «موسى» أو «بوذا» أو «يسوع» أو «زرادشت» إمّا غائب وإمّا طيف وإمّا أنه لم يلبث أن توارى، وكأنما كانت أصداغ اليتامى أجدر بتلقّي مسحة المباركة من «السماء». ولكن لم تكن حال «ماني» كذلك. فقد كان أبوه قريباً على الدوام. مُتَتَبِّعاً خطاه حتى في سنّ الرشد؛ وإذ كان مغامراً في سبيل الإيمان المتصلّب، ثم تلميذاً وحَوارياً، فإن رحلته تُوَطِّد وتشرح وتؤكِّد رحلة ابنه ومعلّمه.

لّما كان «ماني» واقفاً بالقرب من قبر «مريم» و«باتيغ»، غير ناسٍ أن يُلقي نظرة أحياناً على بُعْد بضعة أخاديد من هنا باتّجاه قبر المخلصة «أوتاكيم»، فقد بدا مسلوباً رصانته الطبيعية، ولم يكن يملك شيئاً من صفات القائد أو المُرْشِد. وكان فكره الشبيه بقارب دقيق غارقاً في المدّ المتلاطم للمشاعر والذكريات، وقد جمع بمشقّة بضع كلمات ليطلب فيها إلى أقرب «مختار» منه، وهو تلميذ من (الرُّها) اسمه «سيسينيوس»، أن يؤمّ الصلاة بدلاً منه ويُلقي العِظة. وكان تأبيناً قصيراً ومعتدلاً، بيد أن ابن (بابل) لم يستطع متابعته حتى النهاية، وأحسّ

بأنه يتداعى. وهرعت «ديناغ»، وكذلك «مالكوس» و«كْلُوويه»، ثم «سيسينيوس» وآخرون فأسندوه وجرّوه بحذر إلى البيت حتى وصلوا إلى السرير الذي كان سرير أبويه فتمدّد عليه وهو لا يزال مبهوراً ووجدانه في شكل ثقل ضباب الفجر فوق مستنقعات (ميزينيا).

وأصرّ «ماني» على العودة في صباح اليوم التالي بالرغم من قضائه ليلة مضطربة. وحرص على أن يغادر بأسرع ما يمكن هذا المكان الذي شعر فيه بأنه هشّ للغاية ولا يملك كثيراً السيطرة على نفسه، مُطْمَئِنّاً أصدقاءه أنه سوف يتحمّل بلا ضرر مسيرة اليومين اللذين يفصلانهم عن (المدائن). غير أنه تداعى من جديد بعد مسيرة ثلاث ساعات فوق طريق مُخْصِب، وكان عليه متابعة الرحلة فوق عربة تحت هودج بمنجاة من الشمس وأنظار ذويه. «ديناغ» وحدها بقيت عند رأسه مرطِّبة بلا انقطاع جبينه ونَحْرَه وشفتيه بماء بارد ومُعَطَّر.

وقبل أن يشرفوا على العاصمة بكثير جاء مُوفَد القصر للقائهم وإبلاغ «ماني» بالاستدعاء الإمبراطوري. ورجاه ابن (بابل) بصوت واهن أن ينقل إلى العاهل اعتذاره ووَعْدَه بالطاعة ما إنْ يتماثل قليلاً ويكون في حال تسمح له بالمثول أمام ملك الملوك. وتهيّأ الفتى النبيل للإلحاح، بيد أنه إذ لاحظ بنفسه حالة الإنهاك الذي فيه «ماني» فقد استدار وابتعد، حتى إنه غفل عن الاستئذان بالانصراف بشكل مهذّب.

عندما وصلت القافلة بعد بضع ساعات إلى منزل «مالكوس» كان مُوفَد القصر ينتظر من جديد. غير أنه لم يكن وحده. فقد أرسل «شاهبور» معه (الدروسباذ)، رئيس أطباء «الإمبراطورية»، وهو وجيه مُعتبَر رافل في زينته التي لا يتخلّى عنها، يصحبه جيش من الحجّامين والصيادلة والمبخِّرين وواضعي العَلَق، وكل منهم يحمل بالطبع آلات علاجه أو تعذيبه. وإذ بلغ إلحاح العاهل حدّ الهزل فقد ضمّ كذلك إلى هذا الطاقم ثلاثة عرّافين مُضحِّين وجوقة المبتهِلات الشافيات المرموقة.

كان على «ماني» أن يرتاب في الأمر، فعندما يُستدعى أحدٌ من قِبل «شاهبور» الخالد، مِلك الملوك، الإلـه بين البشر والإنسان بين الآلهة، أخي «الشمس» و«القمر»، فليس الحداد ولا العجز بالعُذريْن المقبوليْن. . . وعليه فقد رحّب بكل هؤلاء الناس بابتسامة شاحبة ولكنّها مُجامِلة.

ـ اذهبوا فقولوا لسيّد «الإمبراطورية» إن احتفاءه قد شفاني من غير ما حاجة إلى طِبّكم. ولسوف أذهب هذا المساء بالذات للسجود أمام العرش. ولكن قد أكون بحاجة إلى حارسيْن شديديْن لإنهاضي.

- ٢ -

أمر «شاهبور» قبل كل شيء أن يُترك وحده مع «ماني»، «ماني» الذي كان يتفرّس فيه مليّاً من فوق مقعده الباذخ بصمت متبادَل. ثم قال ملك الملوك مُشيحاً بنظره عن وجه زائره المسائي الشاحب:

- كان لي قديماً صديق. وقد شملته بالحنان وعاملته بتقدير على الرغم من عمره الذي يجعله يكون ولدي. بيد أنه حين حِدْتُ يوماً عن اتّباع نصائحه تخلّى عني وهرب ولم يحفل بمصيري وكأني لم أحبّه قطّ، وكأن هذا القصر يشغله مغتصِب فظّ لمملكة بلا قانون.

وصمت. وران الصمت على المكان. ثم سُمع جواب «ماني». بمشقّة.

- لقد ابتهلتُ على الدوام خلال هذه السنوات أن تمنح «السماء» سيد «الإمبراطورية» العمر الطويل.

ودفع «شاهبور» إلى أعماق حنجرته بنوع من الضحك الساخر الأجشّ.

- واخجلتاهُ لكَ يا من يدّعي أنه رسول سلام! تصلّي لكي يحيا من يحكم جميع سيوف «الإمبراطورية»، تصلّي لكي يمتدّ بي العمر وأنت تعلمّ أني سوف أواصل الحرب، وأنه سوف يموت آلاف الناس بسببي؟ أليس مخالفاً لدينك أن تُسهم على هذا النحو بصلواتك في مواصلة المذبحة؟.

خرجت نبرة «ماني» حيادية ومُرشِدة وكأنه يجهد في الإجابة عن اهتمامات صادقة يُبديها تلميذ حريص.

ـ ليس على الطبيب الذي يداوي مريضاً، ملكاً كان أو جمّالاً، أن يهتمّ بما سيفعله ذلك الرجل عندما يستوي على قدميْه. والأمر نفسه ينطبق على ابتهالاتي.

ـ أنت تصلّي إذن من أجل صحّتي، غير أنك لا تذهب إلى حدّ الصلاة من أجل أن أقوى على صدّ العدوّ الذي يهدّد اليوم «الإمبراطورية»!

ـ أمنيتي هي أن يُصدّ جميع المجتاحين، وأن تُجنّب، في كل مكان من هذا الكون، المنازل والمعابد والناس والأشجار، وجميع الأجرام السماوية أيضاً، كلّ قسوة وكل إسفاف، وأن يستعيد الملوك دروب الدَّعَة لأنفسهم كما لجميع من يخضع مصيرهم للأعمال الصادرة عنهم.

ـ ماذا تُجدي أمنياتك حين يكون العدوّ على الأبواب؟.

ـ ماذا أَجْدَتِ الأعمال الحربية إذا كان العدوّ الآن على أبوابنا؟.

ارتسمت على وجه «شاهبور» تكشيرة ألم، وسرت رعشة في قسماته التي أنحلها ما قاساه من نوبات الحمّى. ومع ذلك فقد لطُفت عبارته.

ـ الحقّ أنك كنت ممّن استشرتهم الوحيد الذي تنبّأ بأن «الرومان» لن يلبثوا أن يثوبوا إلى أنفسهم وعندها سوف يستميتون في الانتقام لما أصابهم من إذلال. إن في وسعك التباهي الآن بأنّك كنت على حقّ!.

كست ملامح الخيبة والاشمئزاز وجه «ماني».

ـ لئن كنت على حقّ أو على خطأ فما أهميّة ذلك؟ أكاد أذكر النصائح التي أمكنني التلفّظ بها. إنه ليس على الناصحين إلاّ أن يثرثروا، والسيد وحده هو الذي يقرّر ويأمر.

ـ تذكَّرْ أيها الطبيب البابلي أني تردّدت طويلاً وتدبّرت وتريّثت. وقد جعلني

إلحاحك أعود عن قرارات كنت قد أعلنتها. بل لقد أحجمت حتى كادت سلطتي تتقلّص، وكان البلاط يصحو وينام على صوت الاستياء. وانبغى حسم الأمر، وكان ذلك واجبي الرئيسي والامتياز الذي أتمتّع به. وكان الواجب عليك أن تظلّ بقربي.

وكان صوته قد ارتفع أثناء هذه الكلمات الأخيرة قبل أن يعود إلى الانخفاض وكأنما بسبب الإعياء.

- أجل يا «ماني»، إنني لم أصْغِ بما فيه الكفاية إليك قبل أن أنخرط في مواسم الحرب تلك، ولكنْ كان عليك مع هذا أن ترافقني في كل مرحلة من مراحل دربي، لأنني ربما كنت أصغيت إليك بشكل أفضل، في (أرمينيا) وأمام (أنطاكية)، وبفضلك كنتُ كبحتُ ولا شك حماسة «كردير» المدمِّرة ومنعتُ الكهنة من اضطهاد سكان البلاد وإثارتهم علينا. وفي غيابك كان ولدي «هرمز» وجميع من اعتادوا الاستماع إليك من رجال الحاشية بُكْماً وكأنهم افتقدوا فيك أباً. وأنا كذلك أسفت على صوتك العادل المستقيم. اللعنة عليك يا «ماني»، أهكذا تُبدي عرفانك للذي طالما حماك ولا يزال يحميك بالرغم من خيانتك؟ لو كان غيرك من رعاياي قد تصرّف على هذا النحو، ولو كان شخص غيرك قد تلفّظ بعبارات التمرّد التي تنشرها في طول «الإمبراطورية» وعرضها لَحَزْزَقْتُه! لماذا ينبغي أن أضعف على هذا النحو حين يتعلّق الأمر بك أيها الطبيب البابلي؟ .

صمت وكأنّه فوجئ بما صدر عنه من سؤال، أو كأنّ غريباً هو الذي قد طرح عليه سؤالاً لم يكن قطّ قد فكّر فيه. وكان قد هزّ أعطافه. وكان قد تحدّاه. وابتدأ «ربما...». وتوقّف مرّة أخرى. قبل أن يستأنف بنبرة تتعمّد تقطيع الكلام.

- عندما يجلس المرء على هذا العرش فهناك دائماً بين آلاف الأنظار التي يلتقيها أو تتحاشاه نظرةٌ يكتشف فيها بأنّه ليس مُخَلَّداً. وهذه النظرة هي عندي نظرتك.

أخذ كلّ من الرجلين يتأمّل الآخَر، وبَدَوا وقد شاخا وشحبا. وكانا جدّ متقاربيْن. وأشار «شاهبور» إلى صديقه أن يرقى درجات العرش الباذخ الأولى ويجلس على الطنفسة المنجَّدة التي يشغلها عادةً القيِّم على أمر الستار حين يرغب العاهل في أن يهمس طويلاً في أُذنه. وبحركة لم يسبق أن قام بها ملك الملوك من قبل، وضع يده على كتف «الرسول». ليعهد إليه بالقول:

ـ كثير من الناس يَسْعَوْن إلى دغدغة أحقر ميولي، والأصوات الصديقة تخمد.

ظلت هذه الكلمات معلَّقة. وكان جذعه محنيّاً ومُتهالِكاً بعض الشيء على قاعدته.

ـ لقد خسرت (أنطاكية)، وكنت قد تركت فيها حاميتي الوحيدة المهمّة، وسوف يستعيد «الرومان» واحدةً واحدةً ما فتحتُ من مدن؛ وهذا المساء بالذات جاء من يخبرني بأن طليعة الجيش الروماني قد اجتازت «الفرات» وأنها موجودة الآن شمال (ما بين النهرين)! وسوف يكون في وسع «ڤاليريان» أن يظهر هنا بالذات، تحت أسوار (المدائن)!.

لم يكن ابن (بابل) يظن أن الحال قد تدهورت إلى هذا الحدّ. وأشاح بنظره خوفاً من أن يخمّن «شاهبور» عنده بعضاً من عاطف غير لائق. وتابع العاهل مبهور الأنفاس.

ـ ينبغي أن أقود الجيش بأسرع ما يمكن إلى (الرُّها). ينبغي الحفاظ على (ما بين النهرين)، والاحتفاظ بـ (أرمينيا) إذا أمكن. ولا يزال هناك حتى الآن احتمال بأن تساعدني، إذا رافقتني، في اتّخاذ القرارات الصحيحة.

صدرت عن «ماني» حركة خفيّة وكأنّه يريد أن يتملّص، بيد أن جسد «شاهبور» كان يزداد وطأة فوق كتفه. وقال ملك الملوك:

ـ لقد وقّعت هذا الصباح قراراً أعهد فيه إلى ولدي «هرمز» بحكم (أرمينيا) ومعه لقب الملك الكبير. ولسوف يأمر الكهنة بمغادرة المملكة. وستُحْتَرَم من

جديد جميع المعتقدات قديمةً كانت أو حديثة. أليس هذا ما كنت تتمنّاه؟.

بدت نبرة «ماني» شبه متسائلة: .

ـ هل سيُعاد بناء جميع أمكنة العبادة؟ وهل ستُعاد إقامة تماثيل الأرباب فوق قواعدها؟.

ـ سيكون الأمر كذلك.

بدرت عن ملك الملوك تكشيرة ألم جديدة، وبدا وكأنّه يترنّح ولا يقبع في مكانه إلاّ بالاتّكاء على زائره. وأخذ صوته يزداد إعياء مع كل كلمة.

ـ إني أُبَجَّلُ صباحَ مساءَ بوصفي كائناً إلّهياً، فقلْ لي يا «ماني»، أيكون مطابقاً لقرارات «السماء» أن تقاسي الكائنات الإلّهية آلام الحمّى المعاوِدة؟.

ندّت عن «ماني» زفرة تنمّ عن العجز. وتابع «شاهبور» قائلاً: .

ـ إن هؤلاء الأطباء الذين يعتنون بي يتجمّعون سبعة أو ثمانية حول سريري وينشرون دخنة كافور وبَخُور ويغمغمون ببعض العبارات المقدَّسة ثم يَفصدونني ويَفصدونني حتى يُمْتَقَع لوني وأرتعش. تُرى أهكذا تُعالَج الحمّى المعاوِدة؟.

استنكر «ماني»: .

ـ أي طبّ هو هذا! وفي أيّ كتب السحر تُعلَّم مثل هذه الممارسات!

ـ كيف لي أن أعرف؟ إن «كرديـر» يردّد على مسامعي أن هذا الطبّ هو الوحيد المطابق لـ «الشريعة»، وأنّه الوحيد القادر على شفائي. غير أنّي أشعر كل يوم بأنّني أضعف ممّا كنت أمسِ. آه يا «ماني»، أيها الطبيب البابلي، أنت يا مَنْ يمتلك أسرار النباتات، حبّذا لو رغبت في البقاء بجانبي، حبّذا لو أغدقت عليّ من طبّك وعنايتك، إذن لتخلّصتُ من جميع أولئك المُسَمِّمين.

ـ هل في وسع السيد أن يشكّ لحظة في جوابي؟.

ما كاد «ماني» يتلفّظ بهذه الكلمات حتى انتصب «شاهبور» مستعيداً فجأة

قَوامه الإمبراطوري. والنبرة «الإمبراطورية».

ـ كنت أعلم أن بإمكاني الاعتماد على تفانيك. غداً عند الفجر أذهب إلى الشمال للقاء «الرومان»، وستكون الطبيب الوحيد في حاشيتي.

في هذه اللحظة فقط أدرك «ماني» إلى أين أراد الملك أن يجرّه. بيد أن الأوان كان قد فات للتراجع عمّا قال. وكان عليه أن يظهر بمظهر حسن.

ـ ألم يكن طبّي المتواضع في خدمة الأسرة الحاكمة على الدوام؟.

كان «شاهبور» قد قام وتوجّه إلى الباب المُفْضي إلى أجنحة نسائه.

ـ ما أشدّ امتثال كلماتك يا «ماني»، وما أعظم تمرُّدَ أفكارك!

* * *

إذا كان «ماني» قد جهد على مدى مجلس إمبراطوري في أن ينسى مرضه لكي يبدو مشغولاً فقط بمرض «شاهبور»، فقد شعر عند خروجه بوهن مُضاعَف حتى لقد وجب أن يُساند ويُحمَل تقريباً إلى الحمّالة، هو الذي كان يُساند الملك قبل بضع دقائق. وعندما وصل إلى منزل «مالكوس» كان عليهم حمله أيضاً إلى غرفته حيث نام نوماً محموماً ومضطرباً من غير أن يكون قد قال أدنى كلمة عن مقابلته.

عندما حضر «مالكوس» في صباح اليوم التالي لاستطلاع الأخبار كان باب الغرفة موارباً. ودفعه على مهل بإحدى يديه وهو يدقّ بالأخرى على حياء وقد تبدّى له مشهد لن يمّحي أبداً من ذاكرته.

كانت «ديناغ» جاثية على ركبتَيْها وجالسة على عقبيْها وظهرها إلى «ماني» الذي كان يُعيد بيدٍ معتادةٍ عَقْدَ ضفيرتها المحلولة. وظلّ «مالكوس» من جرّاء ذلك بلا صوت. وقال في نفسه إنّ الفتيات هنّ اللائي يَضْفرنَ في العادة ضفائر المحاربين؛ فما هو إذن سليل المحارب «البارتي» هذا المُنصرِف على ذلك النحو إلى عَقْدِ ضفيرة امرأة! لقد مرّ على تعارفهما ثلاثون عاماً ولا يزال «ماني» قادراً على إذهاله! وعندما لاحظت «ديناغ» وجوده احمرّ وجهها، وتراجع هو نفسه

خطوة إلى الوراء، إلاّ أن «ماني» ناداه مُرْغِماً إيّاه تقريباً على الجلوس وطَرْحِ أسئلته التي أجاب عنها مُتابِعاً شغله العجيب وكأنّه في وضع تحدٍّ.

ـ لقد انتهى الأمر بـ «شاهبور» إلى أن يحصل مني بالحيلة على ما كنت قد أبيتُه عليه دائماً: اللحاق بجيشه في أثناء القتال. واعلمْ أنني خَجِلٌ لهذا أشدّ من خجلي وأنا أعقد هذه الضفيرة.

لم يستطع «مالكوس» الامتناع عن حكاية هذا المشهد للمؤمنين الذين حملوا بعد ذاك لـ «ديناغ» وشعرِها احتراماً قارب عند بعضهم حدّ الإجلال. ولكثرة ما تأمّلوا الضفيرة يوماً فيوماً فقد اكتشفوا أن لها لغة: كانت رفيقة «ماني» تَـرُدُّ ضفيرتها غريزياً إلى الأمام من الجهة اليمنى عندما تكون وادعة مطمئنّة؛ وحين تكون فرِحة، ولكنْ فرحاً ممزوجاً بالتوقّع والانتظار ونفاد الصبر، فإنها تُلقيها على كتفها اليسرى؛ وبعدُ فإنها إذا كانت قلقة مكروبة حزينة ظلّت ضفيرتها إلى الخلف.

إن ضفيرة «ديناغ» لن تظلّ طويلاً في المكان نفسه طَوال الحِقْبة التي ستلي.

- ٣ -

كانت الإمبراطوريتان الكبيرتان وجهاً لوجه في بلاد (الرُّها) تتربّص إحداهما بالأخرى، وكانت المدينة المحصّنة في يد «الرومان»، وكان «الساسانيون» يحاصرونها عن بُعد من غير أن يُقرِّروا مهاجمتها إذ كان خلفهم هم بالذات في الشمال والجنوب والغرب جنود فيالق «ڤاليريان». جنود كانوا يتنقّلون على الدوام حاجبين بذلك مقاصدهم وعددهم.

وكان الوقت نهاية الخريف والناس يتجمّدون ليلاً وهم بعيدون كل البُعْد عن أيّ بحر وقريبون جدّاً من الجبال. وأخذت الأقوات تشحّ، وكانت الأراضي حولهم جدباء أو محروقة أو سبق حصدها. وأحسّ «شاهبور» بنفاد صبر الفرسان فكان يثير من حين إلى حين مناوشة مُقْتَضَبة بمهارة. وكان يُرْجَع إلى المعسكر بجثّة بطولية لم يبلغ صاحبها الحلم فيُجْتَمَع حولها في احتفال جنائزي. وهكذا كان يُقدِّم المعلوم اليومي الحربيّ ويُغَذِّى الوحش. وإذا اقتضى الأمر فسوف يُغَذَّى من جديد في اليوم التالي وفي كل مرّة يكون فيها دم المحاربين جاهزاً لأن يفيض. غير أنه لم يكن في مقدور أحد أن يُرْغِم ملك الملوك على خوض المعركة قبل الدقيقة المختارة بشكل ناضج. وكان يحتجز عساكره في الوقت الحاضر في وضع دفاعيّ فوق التلال. وأخذ يُضيِّق الخناق على (الرُّها). وينتظر.

ما الذي كان ينتظره بالضبط؟ لم يكن أحد ليعلم ذلك علم اليقين، حتى في صفوف المقرَّبين منه. والصحيح أنه كان قد صعَّد باتِّجاه الشمال مُصْطَحِباً فقط العساكر الجاهزين الذين كان «هرمز» قد انضمَّ إليهم على رأس فرقة فرسانه الأرمنية. ولم يكن من ريب في أن الملك كان يأمل في مَدَد. بيد أن شيئاً لم يكن لِيُنبئ بأن «ڤاليريان» لن يتلقَّى مَدَداً هو الآخر من (أميزيا) أو (غزة) أو (تدمر) أو (البحر الأسود). وكان «شاهبور» يعرف ذلك كلّه. وكان يسعى إلى أن يستخلص منه خُطَّة وازناً ورائزاً مختلف الخِيارات المُتاحَة له. وكانت اللحظات النادرة التي كانت فيها ومضة إثارة تبعث الحياة في عينيه هي التي كان حاجبه يُدْخِل فيها خيمته ضابطاً من الكشافة أو جاسوساً متنكِّراً في زيّ مَعّاز من (أسروين). وكان في وسع الملك أن يقضي مع مثل هذين ساعات طويلة على انفراد، ونادراً ما كان يتدخَّل للحدّ من ثرثرتهما مسائلاً إيّاهما بحماسة عارمة، بل مُشرِّفاً إياهما أحياناً بوجبة على مائدته.

لم يكن «ماني» قد راقب قطّ «شاهبور» في غِمار الحرب. وكان، هو الذي تبعه في الأساس للسهر على صحّته، يجده فجأة وقد تجدّدت قواه وشبابه وتبخّرت نوبات الحمّى منه. وكان ملك الملوك يُشعر جميع مَنْ حوله بأنّه مسيطر على أدقّ عناصر الموقف وعارف كلّ يوم عن يقين بما سيحدث في الغداة. وإنّه لانطباع مغالى فيه ولا ريب، ولكنْ هكذا كان ينظر إليه جميع المقاتلين في تلك اللحظة، وهكذا كانوا يعترفون به قائداً وزعيماً ويعهدون بأنفسهم إليه من أجل الحياة ومن أجل الموت. وعلى هذا كان «ماني» يراقبه بشيء من الإعجاب. وعلى الرغم من التقائه العاهل في مناسبات شتّى، ولا سيما في احتفال الاستيقاظ، فنادراً ما كان يُستشار.

ومع ذلك فقد حدث يوماً أن جاء أحد الحرّاس في ساعة القيلولة يستدعيه على عجل إلى الخيمة الإمبراطورية. وكان قد اجتمع فيها حول «شاهبور» وولديه «بهرام» و«هرمز» قائد فرقة الخيّالة المدرّعة، والقيّم على دار الصناعة، وأعيان «الديوان» الرئيسيون، و«كردير» رئيس الكهنة، وفي وسط هذا المجلس

«رومانيّ»، وهو ضابط رفيع الرتبة، قائد مئة، بل ربّما قائد جيش، وكان رافلاً في بزّته العسكرية.

كانت جميع الأنظار موجّهة إلى هذا الأخير، وظلّت الألسنة مربوطة بانتظار الإبانة عن هويّته وسبب وجوده. وأوّل ما خطر في البال هو أن «ڤاليريان» كان قد أرسل مُوفَداً في مهمّة أو لاقتراح هدنةٍ ما. إلا أن الرجل لم يكن قد اتّخذ سَمْتَ السفراء المتكلّف، بل كان يجلس إلى جانب الأعيان الساسانيين وكأنّه واحدمنهم.

ومن جهة ثانية فإنّ ملك الملوك بدأ بالكلام من غير أن يكلّف نفسه تقديم الدخيل. ونظراً إلى الأسئلة التي كان يوجّهها فإنّ الحضور كانوا وكأنّهم قُدّوا من الحَجَر. لأن «شاهبور» كان يُعْلِن أنّه سوف يهاجم «الرومان» على حين غِرّة عند انبلاج الفجر، وأنّه قد استدعى أرفع الرجال مقاماً وأفضلهم مشورة للاستماع إلى آرائهم. وكان يتكلّم بقدر من الهدوء بحيث لم يجرؤ أحد على سؤاله، حتى بالإيماء، عمّن تُرى يكون هذا الضابط الروماني الذي أدخله الملك على هذا النحو بين أخصّائه وكبراء «إمبراطوريّته»، والذي كان يشاطره سرّاً بمثل هذه الخطورة.

وإذ كشف العاهل عن عزمه فقد حدّد مكان الهجوم، وهو أرض مرتفعة على طريق (حرّان) ومكان كان العسكريون يدعونه «هضبة برج التربُّص» لأن «الرومان» كانوا قد رفعوا عليه سقالة كانوا يراقبون من فوقها حركات الجيوش الساسانية. وأكّد «شاهبور» كذلك أن فرقة الخيّالة المدرّعة هي وحدها التي ستُهاجَم، ولن يكن من دور للنابلين غير قطع الطريق على كل مَدَد للعدو.

وإذ قدّم الملك هذه المعلومات فقد التفت إلى «كردير»:

ـ ماذا تقول النجوم؟.

وكان الجواب على الفور: .

ـ هذه الليلة ونهار غدٍ وجميع أيام الأسبوع القادم ميمونة للقيام بالأمر.

ـ والطوالع؟.

ـ إني أُضحّي كل صباح، وفي حال طَرْحِ السيد هذا السؤال المرجوّ من زمن طويل، واليوم، فإن الطوالع لم تكن يوماً بمثل هذا الوضوح، ويبدو أن جميع السبل ستُمهَّد أمام جيوش «أهورا ـ مازدا» والسُلالة الإلٓهية.

ـ وأنت يا «ماني» ماذا قالت الأصوات السماوية التي تكلّمك؟.

ـ لم أسألها.

تجلّت فرحة صبيانية على وجه «كردير» وهو يرى خصمه مأخوذاً على هذا النحو بالجُرم المشهود من اللامبلاة بشؤون «الإمبراطورية». غير أن «شاهبور» هبّ لنجدة مَحْمِيِّه.

ـ إذا كان الطبيب البابلي بحاجة إلى الانسحاب بضع لحظات لالتماس جواب فسوف ننتظره.

لم يكن ذلك اقتراحاً، واضطر «ماني» إلى الاستئذان على الفور.

وإذ أصبح خارجاً فقد لاح له درب مؤدٍّ إلى شجرة منفردة فذهب للجلوس تحتها. ففي مثل هذه المناخات كان يتمكّن في العادة من الانسلاخ عن الأصوات القريبة كما عن الضجيج البعيد لاستحضار من كان يسمّيه «تَوْأمة».

إلّا أنه لم يظهر أيّ وجه في ذلك اليوم. ولا أيّ صوت مألوف.

فمنذ لقائهما الأوّلي وجهاً لوجه في مياه التُّرعة أيّام بستان النخيل قبل ثلاثين عاماً كان رفيقه السماوي يجيبه على الدوام. وكان من الممكن أن يحدث بين «ماني» وشخصه الآخر ذاك أزمات ومهاترات، وكان في وسع الآخر أن يُخفي عنه بعض الحقائق إلى حدّ الخِداع والتلبيس. غير أنه كان يظهر دائماً بلا توانٍ في اللحظة التي يناديه فيها «ماني».

حتى كان ذلك اليوم في (الرُّها).

وإذ حرم «الرسول» من انعكاسه السماوي فقد شعر بأنه لم يَعُدْ هو نفسه

موجوداً. وبدا له كل شيء فجأةً تافهاً لا لزوم له، بل إنّه لم يتذكّر حتى السؤال الذي جاء يطرحه. وظلّ على الصخرة جامداً ساجداً متلاشياً. إلى أن أقبل حارس يهزّه ويجرّه من ذراعه. فلقد نفد صبر العاهل.

- إيه أيها الطبيب البابلي، هل حصلت على جواب؟

- لا.

وانتظر «شاهبور» التتمّة. ولم يكن هناك من تتمّة.

- بمَ أجاب الصوت السماوي؟

- بلا شيء. لقد رفض حتى الاستماع إلى سؤالي.

- لقد انتظرنا طويلاً جدّاً من أجل قليل جداً من الأمر!

وعلى الرغم من أهمّيّة الأشخاص الذين حوله فقد كان «ماني» يتحدّث إلى نفسه قبل أيّ كان.

- هذا السكون! ما من شيء يقلقني مثل هذا السكون. إنه سكون ظلام وغضب لا حدّ له.

لم يكن يملك عاداته المألوفة، وقد بدا خائفاً، ولا بدّ أنّه أشعر من كانوا يراقبونه بأنّه لاحت له رؤيةُ مصيبةٍ ما كان ليجرؤ على وصفها. وقد هزّ ارتباك «ماني» كيان «شاهبور» الذي كان حتى ذلك الحين واثقاً مطمئناً.

وحاول «بهرام» ممتثلاً لدعوة خفيّة من «كردير» أن يُعيد أباه إلى مواقعه السابقة.

- لقد نال العرّافون والمنجّمون جميعاً بركة «أهورا - مازدا» للقيام بهذا العمل، فهل يكون للطبيب البابلي «سماء» مختلفة عن سمائنا؟.

ما كان «شاهبور» ليسمعه. فلقد كان يحدج «ماني» قلقاً مضطرباً ويُمعن في تأمّله فيزداد اضطراباً على اضطراب.

ـ أتعتقد أن جيوشنا ستقع في فخٍ ما؟.

بادر «ماني» إلى الردّ من غير أن يكون بِلْبالُه قد تناقص قطّ:

ـ لا أعرف شيئاً، ليس عندي أيّ جواب، لقد أبت «السماء» أن تُصغي إليّ، ولست أملك أيّ يقين، ولا أيّة حُجّة، ولا أيّ رأي، لست أملك سوى تخرُّصات.

رأى «الروماني»، وكان قد ظلّ صامتاً حتى الآن، أنّ من الضروري أن يتدخّل. بيونانية منمّقة.

ـ إذا كان السيّد الإلٰهي يخشى فخّاً فأنا أضمن الأمر لقاء حياتي. سوف أبقى هنا أثناء نشوب المعركة وسيكون رأسي ثمناً لأدنى تهمة بالخيانة.

وأرفق كلامه بالإشارة فأمسك برأسه المُخَوَّذ بين يديه ومدّه إلى الملك وكأنّه جرّة. وكانت الحركة تهريجية ومثيرة للضحك، ولكن مَنْذا الذي كان في مِزاج يسمح له بأن يضحك. وكان «شاهبور» قد وضع يديه على كتفيه متصالب المِرفقينْ، وفيما كان يُسائل نفسه على هذا النحو ويُقدِّر ويتردَّد، ظلّ الجميع حوالَيْه ساكنين مكتومي الأنفاس. وهبط القرار في النهاية.

ـ لن يؤجَّل هجومنا. فلتُنشر راياتنا التي بلون النار، ولكن على أوتاد مغروزة على مستوى الأرض. ولا ينبغي أن يتمكّن العدوّ من رؤيتها من بعيد.

عاد الضابط من جديد غَرَضاً لبعض الأنظار القلِقة. غير أن «شاهبور» تجاهلها. وإذ توجّه إلى «هرمز» فقد قال:

ـ أنت يا مَنْ يكنّ كثيراً من الصداقة للطبيب البابلي، أنت يا مَنْ يشاطره آ اءه في معظم الأحيان، ألست مُنْزَعِجاً من مشاعره بالقلق؟

ـوف تجعلني تلك المشاعر أكثر حَذَراً، ولكنّها لن تقلّل من إقدامي. أُقاتل كما قاتلتُ على الدوام، وكما علّمني أبي الإلٰهي أن أفعل.

، «شاهبور» عدّة هزّات من الرأس بطيئة جدّاً وكأنّه لا يزال يفكّر

في الوقت الذي يتقبّل فيه حُجج ابنه الأصغر.

ـ سينفعك إقدامك غداً أكثر من حَذَرك لأنك أنت الذي سيقود الحملة الأولى. وسترجع ظافراً أو شهيداً. مُرْ بأن يُوزَّع على جميع جندك حصّة مزدوجة من الخبز واللبن واللحم، ثم اجمع الفرسان ذوي الرُّتَب الرفيعة فإن لديّ ما أقوله لهم. وأما أنت يا ولدي البِكر «بهرام» فسوف تحتلّ مقعدي على المنصّة الإمبراطورية للإشراف على تقسيم الرجال.

وكما تقضي تقاليد القتال فقد تقاطر المحاربون الساسانيون وهم يرمون أمام مُمثِّل الملك، واحداً إثر واحد، سهماً في سِلال عريضة من الخيزران كانت لا تلبث أن تُغْلَق وتُختَم. ولسوف تُفتح بعد المعركة ويأتي كل جندي لالتقاط سهم، وهكذا يُتاح للعاهل أن يعرف بدقّة عدد الرجال الذين قُتلوا أو أُسِروا.

لم تكن الخسائر فادحة في معركة (الرُّها). فقد كان المتوقّع مواجهة عِملاقيّة بين إمبراطوريتي العصر الكبيرتين، بين أكبر جيشين مرهوبَي الجانب، بين رجلينْ استثنائيينْ. أفلم يكن «شاهبور» البانيَ الحقيقيَّ «للإمبراطورية» الساسانية وسيّد كل الأراضي الممتدّة من صحراء «العرب» إلى (الهند)؟ أفلم يكن «ڤاليريان» موحِّدَ «الرومان» الذي بعثت به العناية الإلهية، والمخلِّصَ الذي عليه إبعاد شبح الانحطاط وإعادة الارتباط بالعهد المجيد، عهد الفتوح والازدهار؟ ولقد انحلّ كل شيء بضربة يد جريئة وحسنة التدبير ومحظوظة: فعندما انقضّت فرقة الخيّالة المدرّعة التي يقودها «هرمز» على المعسكر الروماني القائم على طريق (حرّان) كان «ڤاليريان» بشخصه من فرائسها الأولى، «ڤاليريان» القابع في خيمته مع رئيس حرسه وأمواله المحمولة إلى المعركة وصفوة قادته وعدد من الشيوخ الذين كانوا قد انضمّوا إلى حاشيته. وإذا حُرم الجيش الروماني زعماءه فقد هُزم حتى قبل أن يقاتل، وعندما هرعت بعض الجحافل وكتائب المئة أُبيدت واحدة بعد الأخرى ما إن كانت تُطلّ برأسها؛ وآثر الباقون أن يقطعوا «الفرات» بأسرع ما يمكن للإفلات من الكارثة.

أمـر «شاهبـور» بأن تُنقش في الصخـر بالكلمات والصُّـوَر ذكـرى انتصـاره. ويفخر النصّ بأن يحدِّد أن جيوش «القيصر ڤاليريان» قد جاءت «من (جرمـانيا) و(ريسيـا) و(نـوريكيـا) و(إيسـتريـا)...» وكذلـك «من (فـريجيـا) و(فينيقيـا) و(اليهودية) و(الجزيرة العربية)، قوّة من سبعين ألف رجـل» مزّقهم ملك الملوك إرْباً إرْباً. وتمثّل منحوتةٌ «شاهبورَ» على صهوة حصانه ويده اليسرى على مقبض سيف لا يزال مُغمَداً، وذراعه اليمنى ممدودة بأمارة رحمة نحو «ڤـاليريـان» الذي مُثِّل جاثياً على ركبتيه ومتوسّلاً وعليه الطيلسان الروماني ورأسـه لا يزال مـطوَّقاً بإكليل من الغار.

وإلى جانب «القيصر» المغلوب وقف «روماني» آخـر فخور الهيئـة على الـرغم من خضـوعـه لملك الملوك. وكـان ذلـك هـو الضـابط الخـائن، ويـدعى «سيرياديس». وقد استحقّ جيداً أن يُصوَّر على اللوحة التذكارية للانتصار لِما لهُ من فضل في تطويق «ڤاليريان» والفوز بمثل هذا النصر السهل.

ولقـد طلب في مقابـل خيانتـه النفيسة أن يعـترف به «شـاهبور» إمـبراطـوراً جديداً على (روما). وقد وُفي بالوعد، فما إنِ استسلمت (الرُّها) حتى رُفع فيهـا إلى العرش باحتفال عظيم. واجتاح «شاهبور» للمرة الثـالثة الأقـاليم الرومـانية سـاعيـاً إلى كسب ولاء السلطات المحليّـة. ولكنْ سُـدى لأن «سـيريـاديس» لم يتمكّن قطّ من جعلها تقبل به. وما إنِ انسحبت الجيوش الساسانية بعـد بضعة أشهر حتى انسحب معها بحَذَر.

وكان عليه متابعة مهامّ حرفته في دارة بـ(المدائن) تحيط به حاشيـة رخيصة. قبل أن يسقط في مَنْسِيّات «التاريخ».

ولسوف يُنهي «ڤاليريان» هو الآخر أيامه على الأرض الساسانية. وكان في ودّ «شاهبور» أن يقبض غالياً ثمن فكّه من الأسر إذ كانت مقـاليد الحكم في (رومـا) قد أصبحت في يد ابن الأسير «غاليان». بيد أن هذا رفض أية مفـاوضة مؤكِّـداً أنّـه لن يُسْلِم نفسه لأيـة مساومـة، وأنه لن يـوافق أبداً عـلى التنـازل عن إقليم واحد أو على إفراغ خزائن «الإمبراطورية» لدفع فدية رجل حتى وإنْ كـان والدَه

بالذات. ومع ذلك فقد فسّر معظم «الرومان» ما تقدّم بـه من الشيوخ على أنّه منتهى نُكران الذات، فسّروه بأنّه تخلٍّ بشِع، ويكاد يُشبه قتل ولدٍ والدَه.

وعندما قنط «شاهبور» من استغلال أسْر «ڤاليريان» أمر بنقله إلى (پرسيديا) مع سائر الأسرى بلا رعاية خاصة ولكنْ من غير قسوة مُفْرِطة. ولسوف يقضي الإمبراطور المخلوع هناك آخر فصول حياته متوجِّهاً إلى قاهره خيراً، على ما يبدو، ممّا إلى ولده العاقّ.

وقد عهد إليه ملك الملوك ببناء سدّ على نهر «قارون»، غير بعيد من (بيت ـ لاپات)، على أن يتّخذ اليد العاملة من الجُند المحتجَزين معه. وانصرف إلى ذلك بدقّة وإخلاص. ولا يزال هذا العمل قائماً بعد سبعة عشر قرناً من الزمن. ويحمل اسم «بَنْدِه قيصر»، أيْ «سدّ القيصر».

* * *

كان خاسر معركة (الرُّها) الآخرَ هو «ماني».

وكان «شاهبور» قد أتاح له فرصته الأخيرة فما اغتنمها. فعندما كان ينبغي أن يقول للعاهل إنّ الحظّ كان إلى جانبه، وأنّه كان موعوداً بالنصر وفي وسعه أن يُصدر الأمر بالهجوم بلا وَجَل، اختار الصوت المتنبّىء في ذاته أن يصمت. وكانت هناك مواقف تعاطُفٍ لم يكن لينسبها إلى نفسه. حتى ولا بوساطة النجوم والطوالع الهيّنة. أفلم يكن هو الذي يُعلّم تلاميذه: «كن خائناً لـ «الإمبراطورية» إذا اقتضى الأمر، ومتمرِّداً على قرارات «السماء»، ولكنْ كن أميناً لذاتك، ولـ «النور» الذي فيك نصيباً ضئيلاً من الحكمة والألوهة».

إن المُثُل العليا تموت مع ذلك لأنّها لم يُسْخَر منها، فبمكائد السادة الخجولة، وبخيانة التلاميذ، يطول بقاء المعتقدات وتزدهر وسط العالم وأمرائه.

لقد جرى العُرْف بأن يكون لكل ديانة أفواجها. وأمّا ديانة «ماني» فلا. أفيكون قد أخطأ في انتقاء الحِقبة؟ أيكون قد أخطأ في اختيار الكوكب؟.

- ٤ -

كان كبار الملوك الساسانيين يطمعون أكثر من طمعهم في لقب فاتح بلقب بانٍ، حريصين على محاكاة قُدوة «الإسكندر» الخالدة في هذا كما في غيره من الأعمال. أفلم يزرع في أرض القدماء عدداً لا يُحصى من مدن (الإسكندرية)؟ ولقد ودّ «شاهبور» تخليد مجده بالطريقة نفسها مالئاً المناطق المُخضَعة بالمدن المتشابهة الأسماء المُهداة جميعاً إليه. فما إنْ يفوزُ بنصرٍ ما حتى يُصرّ على تخليد ذكراه على الفور بأن يضع في العشب المدمَّر حديثاً الحجر الأول لمدينة يُطلق عليها اسم «نصر شاهبور» أو «المجد لشاهبور» أو كذلك «شاهبور المِقدام». وكان يُغدق على من يرغب في الاستقرار فيها الألقاب والامتيازات والإعفاءات، وإذا حدث أن مرّ ثانية بالموضع بعد عام أو عامين فإنه كان يستشيط غضباً لرؤية مدينة «ه» بطيئة جداً في أن تكبر وكأن الاسم الجليل لذي وهبها إيّاه كان ضماناً لازدهار فوريّ.

ومع ذلك فقد كانت تتلو كلُّ حملةٍ حملةٌ أخرى. والانتصارات تتلاحق. وكان كل انتصار يستمدّ ظلالاً من روائع الذي سبقه، كما يحدث حين يكون هناك عدد كبير من العشيقات. وإذ كانت كثير من المدن المنذورة للخلود تُبنى سريعاً وتُهمَل سريعاً فإنها لا تلبث أن تغدو بساتين أو مراعيَ. ولمّا كان يُحدِّد وجودها مجرّد نُصُب تذكاري فإنّها سوف تنتظر عبر الزمن الجامد الرفشَ الماهر في يد أحد علماء الآثار.

ذاك كان مآل الحاضرة الجديدة المقرّرة بجوار (الرُّها) في المكان الذي قُبض فيه على «ڤاليريان».

لقد أقيم احتفال غداة يوم المعركة لتخليد المشهد. وكان الضيف الصُّوَري فيه هو «القيصر» الأسير شخصياً مربوطاً إلى عمود ومذهولاً ومُرتعِداً وجاهلاً بعدُ ختام مصيره، وربّما خائفاً من افتتاح الحفل بالتضحية به. وكانت سلسلة مفضّضة تلتفّ حول رقبته قبل أن تُمعِن في الاختفاء تحت المنصّة التي كان يتربّع فوقها «شاهبور».

وإذ تقاطر الكهنة في موكب فقد أخذوا يقيمون قدّاساً. أدخنة ورقصات وابتهالات أقستيّة للآذان التي سبق تدريبُها وهمسات إنشادية لترويض من لا يعرفون أسرار الدين، وكل نفحة كانت مكتوبة في ألواح الأسلاف. واستسلم الحاضرون للسحر.

وكان على «كردير»، رئيس الكهنة، أن يُلقي العِظة. وقد توجّه بالشكر إلى «أهورا ـ مازدا» على ما أنعم به من نصر على عباده، وعلى أوّلهم وأنبلهم وأتقاهم وأسَدِّهم رأياً.

ـ المجد للكائن الإلهي الذي قاد عِرقنا إلى هذا النصر وحقّر الكَفَرَة!.

وزمجرت جميع الصدور:

ـ المجد!

ـ ليخلُدْ من ارتفع بهذا النصر إلى مصافّ أجلّ الملوك في الماضي!

ـ ليخلُدْ!

كان العاهل مستبشراً متعالياً واثقاً من استحقاقه ذلك النصر وهذه التهليلات.

ومع ذلك فقد انقلبت العِظة إلى خطاب مُضَجِّر.

ـ بأيّ نصر كنّا سنفوز لو أنّ سيّد «الإمبراطورية» الإلهي استمع، لا قدّر الله، إلى ثرثرة الهراطقة والسفلة والخونة بدلاً من الإصغاء إلى أصوات حكماء «الدين الصحيح»؟ فلتتباركِ الأُذُن التي تعرف تمييز الحقّ من الباطل في كل شيء!

ـ لتتبارك!

بحثت عينا «ماني» عن عينيْ حاميه، فهو وحده كان قادراً، بحركة واحـدة، أو بمجـرّد برطمـة تنمّ عن الضيق، على فـرض السكوت عـلى «كرديـر». ولكنّ عينيْ «شاهبور» كانتا مسدّدتين إلى الكاهن، وقد بدا أنه يُصغي إليه لمرّة من غير اشمئزاز.

وإذ أحسّ الواعظ بالتشجيع فقد زاد استبسالاً:

ـ ليُلْعَنِ الفمُ السامُّ الذي حاول زرع الكَدَر في الأذهان النبيلة ساعة القرار الأسمى.

ـ ليُلْعَنْ!.

لم يكن هناك بعدُ أيّة أمارة من أمارات الهياج على ملامح العاهل. وكان ابن (بابل) ينظر إليه الآن مواجهة وبشكل مباشر وببقيّـة باقيـة من الضراعة وبـداية من الثـورة. وكما تكـرّ الذكـريات في ساعة المـوت فقد كـرّت كثـير من صـور صداقتهما في ذهنه، اعترافاتٌ ووعودٌ وبَـوْحٌ بأسرارٍ وعـالَمٌ برسم أن يبنيـاه معاً، معـاً في وجه الكهنة. وها هو ذا الآن هذا الصَّمْت. وهاتان العينان اللتـان تمعنان في الفرار.

ـ اللعنة على الخائن الهرطيق، عدوّ السُلالة و«الدين الصحيح»!

ـ اللعنة!

ـ لتنعدم البهائم الضارّة التي تزحف تحت أقدام الكائنات الإلهية!.

وفجأة دوّى صوتٌ، زعيقُ زَجْر:

ـ يا «كاهن ميـديا»، هـل ينبغي أن أجعلك تبتلع «پادهـامك» لكيـلا أسمع لعناتك؟.

لم يكن «شاهبور» هو الذي تكلّم. ولا حتى «ماني»، فلم تكن هذه الـطريقة

في الكلام طريقته. وتوقّف «كردير» بغتة عن العجيج. وشرد بصره. وقال الصّوت:

ـ لا تبحث يَمنةً ولا يَسرةً، هذا أنا «هرمز» مَنْ أُسْكَتَكَ! وأمسِ عندالفجر كنت أنا، «هرمز» بن «شاهبور» الإلّهي، الذي حارب. وهذا النصر الذي تتغرغر به أنا من انتزعه، بل هم فرساني ورفاق سلاحي الذين استشهدوا. وها أنت ذا تستخدم دمهم لترويَ شهواتك الدنيئة للانتقام. هكذا أنتم يا كهنة (ميديا) مثل طيور الجِيَف تنتظرون أن يُعْرَضَ المحاربون فوق الأبراج الجنائزية لتقتاتوا بجثثهم. كيف تجسر على إهانة مسامع سيّدنا بهذه الكلمات الخسيسة توجّهها إلى الرجل الذي شمله بحمايته الإلّهية؟.

كان الدور الآن دور «كردير» في أن يلتمس بنظره ردّاً من «شاهبور». وقد قرّر هذا في نهاية الأمر أن يتدخّل. وبإشارة منه انحنى القيِّم على أمر الستار وأصغى. ثم انتصب لنقل عبارات العاهل.

ـ ليس الوقت وقت مشاجرات بل وقت احتفالات. لقد فزنا بنصر سوف يذكره أبناؤنا حتى الجيل الثالث والثلاثين. إن السيد يأمر بإقامة الأعياد عشرة أيام في الجيش و«الإمبراطورية» بأسرها. وليسَ كل واحد الخصومات التي لا طائل تحتها، وكل كلمة جارحة أمكن أن تُفلت في لحظة تخلٍّ. لقد أظهر سيّدنا الرأفة لكلّ منكم في هذا اليوم السعيد، ولكنْ لا تحاول ألسنتكم إهانة مسامعه.

التصقت وجوه جميع رجال البلاط بالأرض. وظلّ «ڤاليريان» وحده واقفاً، واقفاً في قيوده.

لن يغفر «شاهبور» لـ «ماني» أنه كاد يحرمه من أجمل انتصار له في أثناء حكمه. كما أن «ماني» لن يغفر لـ «شاهبور» سكوته حيال تهجّمات «كردير». ولقد أصيبت صداقتهما بالقطيعة. ولا ريب في أنّها كانت منافية لطبيعة الأمور، ولا ريب في أنّها لم تكن قطّ لتخلو من الحسابات. ومع ذلك فإنّه سيكون من

الغلوّ الظنّ بأن ملك الملوك قد ظلّ على الدوام غير متأثر بمُثُل ابن (بابل) العليا. أفيكون الأمر أمرَ توافق مصالح؟ غير أنّه كذلك تلاقي أمانٍ. وتعلُّقٌ حقيقيّ.

كان ينبغي أن يبقى منه بعض الآثار على أيّ حال. فعلى الرغم من القطيعة فإن العاهل لم يسحب حمايته من «ماني» ولا من صحبه. وعندما كان يُحكَم على أحد «المختارين» بعد دعوى مُختَصَرة بالهرطقة أو المروق، أو عندما يُطْرَد بعض الأتباع من مدينة أو تُحْرَق منازلهم، وهو أمر أخذ يتزايد، فقد كان ابن (بابل) يكلّف أحد مقرّبيه بالقيام بمسعى عاجل في الديوان أو عند «الدراباذ» الذي كان يدير شؤون البيت الإمبراطوري. وما إنْ يبلغُ النبأ ملك الملوك حتى كان يُذَكِّر على الملأ بقراره بالحماية. وعندها يهدأ القمع. قبل أن يستعيد مجراه بأشكال أخرى في مناطق أخرى من «الإمبراطورية». وليس من ريب في أنّه كان بإمكان العاهل أن يزيد ن ضغطه ببعض القِصاص الأمثل كالذي نزل قديماً بابنه «بهرام»، وأن يضع بذلك حدّاً للاضطهادات بدلاً من الاكتفاء بتلطيفها. غير أن حماسته للحماية كانت قد فترت، وكان يجب عَزْوُ ذلك إلى الشيخوخة والغِلّ على السواء.

ولم يعُد «ماني» نفسه يزور البلاط. وقليلاً ما كان يُقيم من ناحية ثانية في (المدائن). وكان قد استأنف أسفاره الرسولية في أرجاء «الإمبراطورية». وكثيراً ما كان يقيم في «أرمينيا» حيث يحتفظ له «هرمز» بالرعاية البنويّة نفسها. ولم يطلب إلى ملك الملوك قطّ أن يأذن بمقابلته. ولا حدث أن استدعاه «شاهبور».

باستثناء مرة واحدة مع ذلك. وكان قد انقضى أحد عشر عاماً. وكان «ماني» في (سوزا) عندما حضر مُوفَد يستدعيه للمثول بين يدي العاهل الذي كان قد استقرّ للشتاء في مقرّه في (بيت ـ لاپات).

لم يكن ليخلو من حنينٍ وجودُ «ماني» في المدينة التي بدأ فيها قديماً رحلته الطويلة داخل «الإمبراطورية» الساسانية. فقد كانت الضيعة تحمل يومها اسمها

التـوراتيّ القديم وسُـوَرها اللَّبِنِيُّ الـوضيع الـذي كان ينبغي تـدعيمه بعـد كـل مَطْرة. وكانت تمتدّ خارج الأسوار حقول الفستق التي تمثّل ثروتها المتواضعة. ولم تكن مشاريع سيِّد «الإمبراطورية» في ذلك الحين سوى شائعات، وكان السكان يتناقلونها بجذل واعتزاز من غير أن يجسروا كثيراً على تصديق مثل هذه البَرَكة.

وعندما زارها ابن (بابل) من جديد كان المشهدُ غيرَ المشهـد. فما الـذي بقي من الضيعـة القديمـة؟ كومـة من الآجرّ المتـآكـل المُسْمَرّ متجمِّعـة عـلى نفسهـا ومنخـورة أطرافهـا ومبقـورة. وحـواليهـا كـانت ورشـة بـلا حـدود، وقصـور، وحـظائر، وبيـوت نار مقـدّسـة، وجـادّات مبلّطة تحفّ بهـا شُجـيرات هـزيلة، ومنازل للجند، وسورُ حمايةٍ كامـلٌ بأبـراج رمايـة، جديـدٌ، ومبيَّضٌ وكأنّـه أُعِدّ لعرض عسكري.

كانت المدينة تُدعى مذّاك (غونديشاهبـور). وكانت تلك هي عـلى كل حـال التسمية الرسمية. إذ ظلّ السكان الأصليّون يكرهون تسميتها على هذا النحو. وستبقى مدينتهم بالنسبة إليهم على الدوام (بيت ـ لاپات). وأمّا المدينة الجديدة التي كانوا لا يغامرون بالذهاب إليها إلا للضرورة فكـانوا يـدعونها (بِـلْ) باسم المعماريّ الذي صمّمها. وهي تسمية سـاخرة ووقحـة ما كـان أحد ليجـرؤ على ترديدها على مسامع ملك الملوك.

وإذا كـان اعتزاز أهـل (بيت ـ لاپات) المضيـاف قد تحـوّل إلى عِـداء فـلأنّ صنفين حقيرين من النهّابين باتوا يدوسون أرضها بكثرة. الجنـود أوّلاً ـ إذ كيف بالإمكان تربية أسرة، أو كيف بالإمكان تعاطي تجارة شريفة بجوار أكواخ تلفظ في شـوارعهم كـل مسـاء جحافلهـا من السكّيرين؟ ثم كـبراء المملكة ـ فـما إن كشف العاهل عن نيّاته تجاه المدينـة حتى أخذ الأمـراء والوزراء والأمنـاء وكبار الـطواشيين وعمـداء الـطبقـات يتقـاطـرون لامتـلاك أحسن الأراضي بـأبخس الأثـمان. وكانت العـاصمة حيث هـو العاهـل، وكان رجـال الحـاشيـة يَتْبَعـون بطنينهم ودسائسهم وتشريفاتهم.

وأنجـز القصر الذي أمـر به «شـاهبـور» في عشرين شهـراً. والحقّ أن آلاف

الأسرى كانوا قد أُلحقوا بالورشة، وعدداً من العمّال، ولكن ضُمّ إليها كذلك حِرفيّون مَهَرة وبنّاؤون وبلّاطون بارعون وصنّاع رياش ونقّاشون ومنجِّدون أُسِرَ معظمهم في (نصّيبين) و(هترا) و(سنجار) وفي مدن تجارية أخرى خلال المعارك المختلفة التي خاضتها الجيوش الساسانية عند أطراف «الإمبراطورية» الرومانية. وبفضل هؤلاء البّنائين المجلوبين بالقوة ويتمتّعون مع ذلك بضمائر حيّة، فقد كان بالإمكان مقارنة القصر بلا خجل بقصر (المدائن). وربما كانت قاعة العرش أوطأ قبّةً. بيد أنها آنَقُ زخرفةً، والشقوق التي يمرّ منها النور معجزة في الرهافة والمهارة، مُرَشِّحةً في كل ساعة من ساعات النهار أسطع الأشعة، مُقَوِّية جميع الألوان من غير أن تَبْهَر مع ذلك، مُنَوِّرة من غير أن تُدَفِّىء، تاركة لنسمة أن تَهَوِّم باستمرار صاخبةً وعليلةً.

قبل أن يذهب «ماني» إلى القصر بدأ بزيارة المعبد الذي كان يجتمع فيه اتباعه الآن في المدينة القديمة. وكانت جدرانه مَطْلِيَّة بيد فنّانين محلّيين على طريقة «الرسول» الذي كان فنّه قد شاع وأصبح مَذْهباً. وفي صدر المعبد كانت ثلاثة كتب، بمثابة مذابح، مفتوحةً فوق ثلاثة قِمَطْرات وكأنّها راحات مفتوحة نحو السماء. وما إن انتهى الناس من صلواتهم ودعائهم حتى بادروا إلى تقديم سُبحة شكاويهم لرفعها إلى العاهل. وتعاطف معهم «ماني» بزفرة تنمّ عن فقدان الحَوْل والقوّة. وغمغم: «إن حبّ الملوك ليس قطّ أقلّ تخريباً من كُرههم. وسعيدٌ هو الماء الذي لا يشرب منه أحد! وسعيدةٌ هي الشجر التي تُزهر بعيداً عن الطُّرُقات، ولكنْ أنّى لها أن تدري بسعادتها؟».

استقبل الملك «ماني» في حجرة ذات باب واطئ، نسخة صادقة عن التي تقابلا فيها للمرة الأولى على انفراد. وكان يُغطّي ركبتيه بدثار من الصوف. وكان شعره الطويل المعقوص ولحيته بلون يشبه في حمرته لون الصراصير، لون الشيخوخات المتنكّرة. وكان يفوح من كلماته الأولى خُفول أشدُّ توافقاً مع لغة الكَتَبَة منه مع لغة ملك الملوك، وربّما كانت تلك طريقتَه في إخفاء الانفعال الناجم عن اللقاء بعد غياب.

ـ تقضي عادتنا منذ القِدَم بأن يطلب كلّ ملك من أمهر رسّامي عهده أن يرسم له صورته. وقد قيل لي إنه أنتَ أيها الطبيب البابلي. أفتكون يدك لا تزال ثابتة؟

ـ تظلّ يدي طائعة.

ـ لقد أحضرت إلى هنا الكتاب الذي يَضُمُّ صور أسلافي لترى أيّ طريقة ينبغي أن تتّبع.

ـ لي طريقتي الخاصّة في الرسم.

ـ ظننت أني سمعت أن يدك طائعة؟.

ـ رأسي يرسم ويدي تُطيع. إن في وسع أيّ رسّام أن يُحاكي طريقة القدماء، لكنّه لن يُميِّز عندئذٍ عاهلً من آخر إلا بحجم لحيته أو تاجه. وإذا رغب السيد في أن أرسمه كما هو لكي تُعْرَف إلى الأبد الملامحُ التي هي ملامحُه، والقِيَمُ التي تُخفيها قَسَماته، فسوف أرسمه على طريقتي.

ـ افعل كما تشاء. هل عليّ أن أقف أمامك أم أنّ ملامحي ما تزال محفوظة في ذاكرتك؟

ـ لقد حفظت ذاكرتي صُوَراً بيد أنها ليست الصُّوَر التي تراها عيناي.

ـ ربما كان أفضل أن تُقَدِّمني حسب الصُّوَر الباقية في الذاكرة، غير أنّ هذا ليس من تقاليد أجدادي الإلّهيين، لسوف أقف أمامك.

وهكذا وقف «شاهبور» للرسم في ثوب الاحتفالات خلال سبعة أيام بمعدّل ساعتين في اليوم. بلا حراك. لا ينبس ببنت شفة. و«ماني» لم ينبس أيضاً بكلمة. وما إن انتهى من عمله حتى أراه للعاهل الذي ابتسم ابتسامة تنمّ عن حسرة.

ـ وأأسفاه، هكذا أنا بالضبط الآن.

ينبغي في هذه المرحلة من رحلة «ماني» فتح هلالين. هـلالان ينطويـان بحدّ ذاتهما على لغز، ولكنهما ربّما كانا مفتاحاً للغز قديم.

كان يا ما كان في قديم الزمان ملكة، ألا تُحكى الأساطير عـلى هذا النحـو؟ جميلة وغنيّة وطَموح حتى الـذُّرى وموهـوبة ذكـاء خارقـاً، غير أنـه كان يتـأكّلها مرض لم ينجع فيه أي دواء. وشكت ذلك يوماً إلى أختها التي نقلت إليها أقوال بعض أصحاب القوافل عن معجزات طبيب من بـلاد (بابـل). وعبّرت الملكـة عن رغبتها العارمة في لقائه، وفي الليلة نفسها رأت في منـامها صـورته وسـمعت صوته. وعندما استيقظت في الصباح كانت قد شُفيت. واعتنقت غير دينها.

تلك هي الحكاية المحفوظة في الكتابات المانوية. إن ألف معجزة مماثلة تحبك مسـيرة الأنبياء، وفي معـظم الأحيـان فـإن الحكـايـات عينهـا تُتنـاقَـل عن عـدّة أشخاص وكأنّ الأساطير تنتمي إلى مُلْك مشترك يُمتاح منـه من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، ومن مُعْتَقَـد إلى مُعْتَقَد. بيـد أنه يُعْـثَر فيه أحيـانـاً عـلى مِثقال حبّةٍ من الحقيقة، أو على انعكاس مُجَمَّل لحادثة حقيقية.

ونعـرف اليـوم أن الملكـة كـانت تُـدعى «زنـوبيـا» [عـرفهـا العـرب بـاسم «الزّبّاء»]، وأن مملكتها كانت (تدمر)، وأنها اعتنقت دين «مـاني» وحاولت نشره باتّجاه (مصر)، بل حتى أبعد من ذلك. فهل نعرف يوماً بفضل أيّ لقاء؟ ومهما يكن فإن هناك أسراراً أخرى قد تبـدّدت. وعليه فقـد طالمـا تساءل النـاس عن معتقـدات سيّـدة الصحـراء العـظيمـة، هي التي كـانت تستضيف في بـلاطهـا الفلاسفة واليهود و«النّاصـريّين» وتـترك للناس أن يمجّـدوا في معابـد عاصـمتهـا أرباب جميع الأمم. إن نفحة التسامح هذه هي نفحة «ماني».

لقد كانت (تدمر) في عصرها أكثر بكثـير من مدينـة غنيّة تحطّ فيهـا القوافـل رحالها. فقد كانت تصبو إلى أن تصبح الحاضرةَ العالمية، وكادت خلال عقد من الزمن أن تحجب (روما) ومعها (المدائن). وعليه فقد كان شخص «زنوبيـا» هو المنافس المشترك لأباطرة «الشرق» و«الغرب» الذي كسبه «ماني» إلى قضيّته. وإذ

كانت ملكةً حرّة على مدينة حرّة فقد كان عليها أن تخضع في نهاية المطاف لقانون العملاقين.

بيد أن اسمها ظلّ أكثر إشراقاً من اسم قاهِرَيْها.

فصلت بضعة أسابيع بين سقوط «زنوبيا» وزوال «شاهبور». وإذا كان على «ماني» أن يختار يوماً بين ولاءين فإن الصراع مع النفس كان قد انتهى.

كان ذلك عام ٢٧٢ م. وكان عمر ابن (بابل) آنذاك ستة وخمسين عاماً. مُبتلى؟ ناحل؟ مُضَعْضَع؟ لقد كانت حميّته سليمة معافاة.

- ٥ -

عندما أقبل المنادون يصيحون في شوارع (المدائن) بأنّه ليس على أحد أن يلجأ إلى الطبّ في الأيام القادمة كيلا يُلتمس من «السماء» شفاءٌ غيرُ ما يشفي ملك الملوك ولا تتفرّق «الرحمة»، فُهِمَ أنّ «شاهبور» كان في طور الاحتضار.

وفي اليوم التالي أُعلن الحِداد. مَهيباً وقوراً، ولكن بلا دموع ولا نُواح ولا حُزن بادٍ. فبكاء ميّت معناه حسب «الأفستا» الشكّ في «الخلاص»، وإنّه لتعبير سوقيّ عن عدم الإيمان. بل لقد فرض الأتقياء على أنفسهم إعلان فرحتهم لأن العاهل، بوصفه كائناً إلهيّاً، سيحظى في «الآخرة» بأكثر ممّا حظي به في الدنيا من امتيازات. وكان العاهل لا يزال مسجّى قريباً جدّاً من العرش في دخنة كثيفة من العَرْعَر الذي يُقال إنه لَطِيفٌ على مناخِر الأموات. ولسوف يُقاد قبل المساء إلى قمّة بُرجٍ من الآجرّ ويُقدَّم إلى الكواسر، إذ لا ينبغي قطّ أن تُدنِّس التربةُ بجسم متحلّل. وعندما تغدو عظام المرحوم سيّد «الإمبراطورية» معروقة مُبْيَضّة فسوف يضعها الكهنة في الحُقّ الذي يقوم مقام النعش.

وقبل أن يغادر العاهل قصره للمرة الأخيرة اجتمع ثلاثة رجال في حجرة مُحاذية لقاعة العرش. وكانوا يمثّلون الطبقات الثلاث المهتمّة بشؤون «الدولة» الكهنةَ والمحاربين والكَتَبَة. وكان العاهل قد أعطى إلى كل منهم بيده كتاباً

مختوماً يُعبِّر فيه عن رغباته فيما يتعلق بوراثة العرش. ثلاث وثائق يُفترض أن تكون متماثِلة ومتطابِقة لتحاشي كلّ تزوير.

ظلّ البلاغ سرّاً حتى اللحظة الأخيرة. لأنّه إذا كانت صياغته متوافقة على الدوام وبعض أعراف الكتابة فإنّ مضمونه كان يخضع لرغبات العاهل وحدها. وكان في وسعه أن يقتصر على تعداد الصفات المطلوبة في خَلَفه، «الاستقامة» و«البسالة» و«التقوى»، من غير تسمية أحد؛ وعندها يتحوّل مسؤولو الطوائف إلى ناخبين لاختيار عضو السُلالة الذي يحكمون بأنّه الأشدّ توافقاً مع هذه المُتَطَلّبات الغامضة؛ وإذا لم يتوصّلوا إلى اتّفاق فيما بينهم كانت الكلمة الفصل لرئيس الكهنة، «بعد استشارة الملائكة». وتلكم كانت التقاليد التي حفظتها الكتابات المقدَّسة ووافق عليها مؤسِّس «الإمبراطورية».

وإذ كان الأمر يتعلّق بـ «شاهبور» فقد انتُظر أن يُعينّ خَلَفه في أثناء حياته، بل أن يُشْرِكَه في الحكم كما فعل به هو بالذات «أردشير». ولم يفعل. وذلك لأنّه كان قد احتفظ ولا شكّ بذكرى مريرة عن تلك الحقبة التي قام فيها نفور كئيب بينه وبين أبيه؛ فما إن عيّنه «أردشير» حتى أخذ يكرهه وكأنّه يقرأ في عينيه موتَه بالذات. وبالإمكان التصوُّر أن «شاهبور» قد خشي أن يعيش التجربة نفسها مع وريثه هو.

وقد يكون تردّد أيضاً حتى النهاية في أمر الشخص الذي يسمّيه. أفلم يُقَلْ إنه استدعى خلال مرضه الأخير الناخبين الثلاثة في قابل الأيام ليستردّ منهم الرسائل المعهود بها إليهم قبل بضع سنوات واستبدالها بأخرى أكثر توافقاً مع تقلّبات عواطفه الجديدة؟.

كان الستار قد أُسْدِل في قاعة العرش لإخفاء التاج المعلّق. وفي المكان الذي يخرّ فيه الزوّار في العادة نُصِبَتْ قاعدة جنائزية ماثلة لإبقاء رأس العاهل الميت مرفوعاً. وجلس حواليه الكهنة المبخُّرون والمُصلّون. وجلس أهل البلاط في مكانهم المعتاد. وكان الجمهور الحقيقي في الخارج، في حدائق القصر وبالقرب

من السياج. وأخذ الشعب المديني يراقب تحرّك النافذين الناعم متسلّياً بالحدْس باسم السيّد المقبل.

وفُتحت قاعة المُداوَلات آخر الأمر. وخرج الأعيان الثلاثة حسب الترتيب المتوافِق مع مقاماتهم، الكاهن الأكبر «كردير» أوّلاً ثم عميد المحاربين وبعدهما رئيس الكَتَبَة. وكلّ منهم يحمل في راحتيْه المبسوطتين رَقّاً ملفوفاً منقوض الختم. وفتحوا الرِّقاق معاً دفعة واحدة، بيد أن «كردير» وحده هو الذي قرأ بصوت مرتفع، واكتفى رفيقاه بالتحقُّق بالنظر من صحّة نُسختيْهما.

ـ «أنا، عابد «أهورا ـ مازدا»، «شاهبور» ملك ملوك «إيران» و«غير إيران»، ابن الإلّهي «أردشير»، قد فتحتُ من المناطق أكثر ممّا في وسعي أن أُسمّي وخدمت الربّ بإخلاص. فلتُقَدِّر «السماء» أن يُخَلِّد ذِكْري.

«لقد اخترتُ في هذه الساعة التي أتأهّب فيها للانضمام إلى الصِنْو السماوي لـ «إمبراطوريّتي»، إلى جانب أسلافي الأمجاد، أن أعهد بالصولجان والتاج إلى أحقّ أفراد السُلالة، ابني العزيز...».

تنحنح الكاهن وتضاعف الصمت الذي كان شاملاً.

ـ «ابني العزيز، الإلّهي «هرمز»، ملك (أرمينيا) الأكبر، فليُقَدَّرْ له أن ينال صيت البسالة نفسه...».

ضاعت الكلمات الأخيرة في ضوضاء الهتافات وصرفت الحاشية أبصارها إلى منصّة الأمراء، ونظرت أوّل ما نظرت إلى العاهل الجديد الذي تقدّم بشكل عفويّ خطوتين خارج الصفّ. ثم إلى أخيه البكر «بهرام» الذي اتّكأ على أقرب كتفٍ منه. وتبودلت نظرة مُقْتَضَبة بينه وبين «كردير» الذي ارتسمت على وجهه تكشيرة تنمّ عن العجز.

كان «ماني» أيضاً على وشك أن يتداعى لأسباب أخرى تماماً. فقد كان حتى هذه اللحظة مقتنعاً، شأنه شأن سائر الرعايا، بأن العرش سيؤول إلى «بهرام» الذي كان حديثاً قد تقرّب كثيراً من أبيه، والذي كان يتمتّع بدعم الكهنة، في

حين كان «هرمز» يعيش نصف حرمان من الحُظوة في مملكته البعيدة في (أرمينيا) وعلاقته بملك الملوك من السوء بحيث لم يفكّر حتى في القدوم لزيارته لو لم يعلم أنه كان يُحتضَر.

وكان «ماني» لا يزال يشعر حتى ذلك الصباح وهو يتلقّى نبأ موت العاهل العجوز بأن الدنيا أخذت تُظلم حواليْه. وكانت عمليات الاضطهاد قد تكاثفت خلال الأسابيع السابقة، بما في ذلك داخل العاصمة، بسبب مرض «شاهبور» الذي ظلّ في نظر المؤمنين آخِرَ حاجزٍ يقيهم، وقد كان قليل اللهفة ولكنْ مخلصاً على الدوام لوعده بالحماية.

باح ابن (بابل) قبل ذهابه إلى القصر بشيء من همومه لِـ«تَوْأَمه» السماوي الذي لم يَسْعَ قطّ إلى طمأنته. وقد قال له: «إذا كانت النهاية قريبة فعليك أن تُذْعِن لها وتهيِّئ تلاميذك لمواجهتها. أفتكون قد كتبت ورسمت وعلّمت من أجل معاصريك وحدهم؟».

وها هو ذا الكابوس قد تبدّد، وها هو ذا الأمل ينبعث من جديد، بفضل كلمات خرجت، يا للمفارقة، من فم «كرديز» بالذات: «... ابني العزيز، الإلهي «هرمز»...».

تابع الكاهن الموتور خطابه على كل حال، من غير احترام للطقس المكرّس.

ـ لقد وافقت الملائكة على أن يكون العاهل هو «هرمز» الإلهي، ابن الإلهي «شاهبور». فوِّضوا إليه أمركم أيها الخلق، ولْتبتهجّ!.

أشار إلى الأمير المنتخَب بالاقتراب وأمسك بيده وهو يسأله بصوت مرتفع:

ـ أتقبل من «العليّ» دينَ «زرادشت» الذي رسّخه «ڤيشتسپ» وأحياه «أردشير»؟

ـ سأكون في خدمة الربّ وأسعى إلى خير رعاياي.

حُمل العاهل الجديد إلى العرش، وكان احتفالٌ من غير أبّهة، احتفال مخصّص وحسبُ لتقصير أمد شغور الحكم. وسوف يتمّ الاحتفال الرسمي

الحقيقي يوم التتويج، بعد هذا اليوم بكثير، وفي غير هذا المكان. وكانت العادة تقضي بأن يجري في عيد «النيروز» القادم مع بداية السنة الجديدة. بعيداً عن (المدائن)، في مشهد مخصّص في (پرسيديا) مهدِ السلالة الساسانية.

ومع ذلك فقد كان الحكم بالنسبة إلى «هرمز» قد نِيل. وقد هرع رعاياه عند قدميْه. و«بهرام» بالذات ألزم نفسه بالسجود فدعاه أخوه إلى ارتقاء درجات العرش ليضمَّه إليه وسط التهاليل. ولم يتحرّك «ماني» في زحمة التهاني الصادرة عن الحاشية. ومع ذلك فقد كان تابعوه في الخارج وجميع الذين يشاطرونهم الأمل نفسَه راغبين في الابتهاج والغناء والاحتفال؛ ولسوف تُلقي «ديناغ» التي كان العاهل الجديد أباً ثانياً بالنسبة إليها بضفيرتها المزيَّنة بخيوط فضيّة طويلة إلى الأمام فوق كتفها اليسرى. . . وهنا في القصر بالذات، وسط أعيان «الإمبراطورية» كانت لسعادة أصدقاء «الرسول» نبراتٌ مُميَّزة.

أخذ «هرمز» يبحث بعينيه شخصياً وقد تخلّص من الإعصار عمّن كان يدعوه «المُعَلِّم». ورمقه برهة وجهد في الإشارة إليه خِفْية، غير أن ابن (بابل) لم يكن ينظر إلا إلى داخل ذاته. مهموماً في لحظة السعادة هذه وكأنّه مُعَذَّب.

وقادته خطاه إلى جثمان «شاهبور» الذي كان كلّ أحد قد أشاح عنه باستثناء المُبخِّرين. ولقد أراد أن يكتشف في القَسَمات الجامدة للذي كان قريباً جداً منه مفتاح السرّ الذي كان يجري تحت بصره. وأبطأ في ذلك التأمّل صامّاً أُذُنَيْه عن كل شيء وغائباً عن الوجدان. ثم تسلّل باتّجاه باب الخروج من غير أن يُعير نظرة إلى ملك الملوك الجديد.

ولحق به القيِّم على أمر الستار وهو يلهث عند طرف ردهة الانتظار. فقد كان العاهل يرغب في استقباله غداً عند مطلع الشمس.

قال «هرمز» وهو يرحّب به:

ـ أأكون قد فقدت المُعَلِّم والصديق؟ لقد كان من الممكن القولُ أمسِ إنّ

وجه حمار الوحش «كردير» كان أبهج من وجهك، وأنّ أخي «بهرام» كان أقلّ أسفاً منك. تُرى هل تخشى جميع الانتصارات؟ وهل تحذر كل أنواع السعادة؟.

بدا «ماني» نادماً. ولقد كان كذلك لأنّه، منذ لقائهما على ضفاف «السند» قبل ثلاثين عاماً، فإنّ «هرمز» لم يُظهر له قطُّ غيرَ أصدق الودِّ حتى ولو كان عليه أن يُخاصم الدنيا بأسرها لأجله.

ـ لا يمكن تفسير سلوكي بغير الدهشة المتناهية. لقد جادت «السماء» لي ولـ «ديناغ» ولجميع أخصّائي، كما لِـ «الإمبراطورية» بأسرها، بهديّة. فلقد كنا نخشى عهد الاضطهاد، وقد حصلنا على عهد السماحة. أليس في هذا ما يجعل صوابنا يطير من السعادة؟

ـ لم يُنبئك إذن «رفيقُك» السماوي!

ـ لم يَدَعْني أرجو أيّ شيء.

ـ لم يُرِدْ ولا شكّ أن يحرمك فرحة المفاجأة.

على الرغم من تجاوز «هرمز» الخمسين من العمر فقد كان في عينيه سذاجة طفل كانت تثير في نفس ابن (بابل) رقّة عارمة.

ـ والآن وقد انقضت دهشتك فإن باستطاعتك تماماً أن تُعبِّر لي عن سعادتك!

ـ أيكون في مقدور سيّد «الإمبراطورية» أن يرتاب في ذلك؟

أجال«هرمز» بصره علناً في الحجرة الخاوية.

ـ أتكلمني أنا على هذا النحو يا «ماني»؟ أنا سيد «الإمبراطورية»! من المناسب أن تتوجّه إليّ بهذه الكلمات في الجلسات العامّة، ولكنْ حين نكون وحدنا فإنّني آمرك بوصفي سيّد «الإمبراطورية» بأن تحدّثني كما قد فعلتَ على الدوام. بحقّ جميع «السماوات»، هل تسعى فعلاً إلى الابتعاد عنّي في اللحظة التي أنا بأمسّ الحاجة فيها إلى وجودك، إلى صداقتك، إلى نصائحك؟ لقد كان

أبي مُحِقاً في أن يسمّيك فارّاً، ذاك هو أنت بالفعل. بيد أنه لن يكون لي مقدار صبره ولا ما كان له من ضبط النفس. أريد أن تقول لي في هذه اللحظة، بشرفك وباسم «الذي» جعلك «رسولاً» ما إذا كنت ستكون أو لا، حتى آخر همهمة في عمرك، الصديقَ والسَّنَدَ والإلهامَ و«النورَ» لملكي. أجبني وإلاّ فاختفِ إلى الأبد. ولا أسمعنْ أبداً باسمك ولا باسم أخصّائك.

ـ «هرمز»، إنك الصديق الذي دافع عنّي ظلم العالم. وإنّني حتى لو ضربتْني يدُك إلى أن أموت فلن ألعنها أبداً.

ـ تضربك؟ يدي؟

كانت عينا الملك نَدِيَّتَيْن.

وتناول يد «ماني» ورفعها إلى شفتيه كما كان قد فعل أحياناً فيما مضى. بيد أنّه لم يكن حينها ملك الملوك!

ـ أيكون رفيقك السماوي قد قال لك أن تُحْذَرني؟

ـ لا يا «هرمز»، ولكنّه لو نوّه باسمك فقط لكانت وساوسي هدأت.

ـ أتكون قد هدأت الآن؟

ـ لم يسبق قطّ أن ارتبْتُ بك.

ـ لقد انقضى زمن الشكّ يا «ماني». وكذلك زمن التردّد في اتخاذ القرار. وعلينا أن نبني معاً. ولسوف أجعل المنادين يُعلنون منذ هذا المساء أن ملك الملوك يعتنق دين «ماني».

ـ لا يا «هرمز»! إنّه هكذا ضللنا الطريق أنا وأبوك. فلقد انتظرتُ منه الكثير وانتظر مني الكثير. وليس هذا هو الطريق الرشيد. فلسوف ترغب يوماً في أن تجعلني أتّخذ قرارات مَلِكٍ، وأرغب في أن أجعلك تتبنّى هواجس «رسول». وستقوم بيننا المرارة ويغدو أَحَدُنا غريباً عن الآخر، بل ربما غدونا عدوَّيْن. وسوف تجد نفسك وأنت تقتل من تحبّ، من غير أن تكون قد تمنّيت قطّ ذلك.

ثم تبكيني بدموع مُخلِصه. لا يا «هرمز»، لا تدفعْني إلى ارتكاب الخطأ نفسه مرّتينْ، فلن تغفر لي «السماء» إخفاقاً جديداً.

ـ لقد قلتَ لي يوماً إن حكم «النور» لم يتمكّن من التصاقب مع حكم «شاهبور»، ولقد رجوتُ أن يتصاقب مع حكمي.

ـ ليس الأمرُ أمرَك يا «هرمز» ولا هو أمر «شاهبور» ولا أمري. فالذنبُ ذنبُ هذا العصر. ففي كل مكان ينتصب حولنا أتباع الآلهة المتعصِّبين وأنا أحمل صوت الربوبية السَّمْحة. ولسوف تكون ديانتي، زمناً طويلاً بعدُ، ديانةَ حفنةٍ من «المختارين» الزاهدين في متاع هذا العالم. ولن يكن في مقدور «الإمبراطورية» اعتناقُها. غير أنه بإمكاننا أن نبني كثيراً من الأشياء معاً إذا تمسّك كلّ منا بالدور الخاصّ به. إذا حكمتَ بالعدل، وتصرّفتَ لخير رعاياك، كما أقسمت على ذلك، وأمّنتَ للجميع حريّة المُعْتَقَد. وإذا عملتُ من جهتي، مع التلاميذ الذين ارتضوا الانخراط في «أملي»، على إرشاد الأمم إلى «النور».

ـ وهل يمنعنا ذلك من أن نظلّ صديقينْ؟

ـ لقد كنتُ بالفعل صديقاً للملك (أرمينيا)، فلماذا لا أكون صديقاً لسيّد «الإمبراطورية»؟ وسوف نلتقي كلما شئتَ، بمفردنا كما في هذه الصبيحة، ونتحدث عن العالم و«حدائق النور» والرسم، وعن الطبّ والتناسق. غير أنني سوف أعود في اللحظة التي أغادر فيها القصر «رسولاً» ولا شيء غير ذلك، وتعود أنت ملكَ الملوك، وكلّ منّا في طريقه، بأسلحته الخاصّة وأعبائه الخاصّة.

عرفت ديانة «ماني» في الأشهر التي تلت أعظم انتشار مشهود عبر «الإمبراطورية» وفيما وراءها. فقد انضمّ عدد كبير من الفرسان والكهنة المعادين لمعتقدات «كردير» وناسٌ من جميع الطبقات إلى «المختارين» أو المريدين أو مجرّد المستمعين. ولم يَسْعَ «الرسول» إلى تفسير هذه الاندفاعة المفاجئة. فلقد أسهم فيها كثيراً تعاطُفُ «هرمز» البديهيُّ مُضاعَفاً بما يكنّه الناس من ودّ لعاهلهم الجديد الذي تكشّف عن إنسان رحيم من غير ضعف بدا أن وجوده على

العرش قد نَشَر، بشيء من السحر الحلال، الرخاءَ والسعادة. فما من وباء ولا مجاعة ولا طوفان مدمِّر، ولا أيّ كارثة من الكوارث التي تأخذ عادة بالخِناق. وأعرب طالع العهد عن خير النجوم.

كانت الاستعدادات لحفلة التتويج سخيّة، باهظة الكلفة بالتأكيد، بيد أن الشعب لم يَشْتَكِ، فلقد حُرص على أن يُوزَّع على الفقراء ما به يحتلفون بشكل لائق وكريم. وبدأ صبر «هرمز» ينفد مع اقتراب «النيروز». وكان يطالب كل صباح بـ «ماني» ليبوح إليه بما كابد البارحة من تحمُّس وانتظار. ولقد كان يتمنى كثيراً أن يصحبه في الرحلة إلى (پرسيديا). غير أن ابن (بابل) أقنعه بأن يُعفيه من ذلك، فلم يكن له من مكان في مثل ذلك الحفل.

تمثّل المشهد في صورة ممرّ ضيّق بين صخرتين شاهقتين، وهناك كان «أردشير» وبعده «شاهبور» قد نقشا في الصخر صورتيْ تتويجهما. وعلى بُعْد خطوات من المؤسِّسيْن كانت مساحة ملساء من غير نقش جاهزة لاستقبال أثر العاهل الجديد ثالث الأسرة الساسانية. وكانت أرض الممرّ المقدَّس المُحْصِبة قد فُرشت بالبُسُط، وغُطِّيت الجدران الصخرية إلى ارتفاع ثلاث قامات بالحرائر المنقوشة بشعارات السُلالة، شمس ونار وقمر وتيوس وحُمُر وحشية وكلاب وأسود وخنازير بريّة. وفي الوسط، في المكان الذي يتّسع فيه الممرّ ويستنير، نُصِبَتْ منصّةٌ انحدرت أطرافها انحداراً خفيفاً نحو الأرض. وعلى المنصّة تاجٌ لم يُلبس.

أخذ يتقدّم موكب من كلا الجانبين. أحدهما يقوده «هرمز» على صهوة جواد. وكان شعره الطويل المعقوص يفيض تحت تاج بشكل خوذة تعلوها كُرة رُبطت بها أشرطة ملوّنة مرفرفة إلى الخلف؛ والحلقة التي تضمّ لحيته كانت الآن من الذهب والدرّ. وكان يتبعه، ولكنْ عن بُعْدٍ قليل، ضبّاط حرسه والأمراء من ذوي المَحْتدِ والأخصّاء والموسيقيّون ثم مجموع رجال الحاشية؛ ومن الجهة المقابلة قدِم الكهنة وعلى رأسهم «كردير». ولسوف يحلّ لمدّة مباركة محلّ

«الرب الأعلى»، محل «أهورا ـ مازدا»، ليُضفي على الملك الجلال الأعظم.

كان الموكبان يسيران خطوة بخطوة، وكان بطؤهما يمدّ في أجَل الاحتفال. زينات وأدخنة وعطور وأهازيج. أناشيد ملحميّة في صفّ العاهل ورقصات مقدَّسة في جَمْع الكاهن الأكبر. وفي نهاية المسيرة بعض الحماسات المنتظرة، مشاجرات سلميّة وعربدات. موكب كرنفال رافل في الزينة والبرادع.

سار كل شيء على هذا النحو إلى أن التقى الجوادان اللذان على رأس الموكبين عند المنصّة. إلى أن كان الصمت المفاجئ. وها هو ذا «كردير» يمسك بيده اليمنى الحلقة المزيّنة بالأشرطة، رمز الملكيّة الإلٰهية، وفي يده اليسرى الصولجان. وعندئذٍ تناول «هرمز» الحلقة بيسراه ومدّ اليمنى إلى الأمام وسبّابتها مَحْنيّة أمارةً على الخضوع لِـ «أهورا ـ مازدا»؛ ثم تناول الصولجان وجاء دور «كردير»، وقد عاد مجرّد إنسان عاديّ، للقيام بحركة الخضوع باتّجاه من تزوّد منذ اللحظة بالسلطة الإلٰهية.

ترك ملك الملوك عندئذٍ زمام مطيّته فترجّل رئيس الكهنة وأمسك به وأخذ يُدير «هرمز» بتمهّل حول نفسه وسط هتافات رعاياه. ثم ذهب العاهل للجلوس على العرش. وقدّم إليه «كردير» كأساً ذهبية على شكل قَرْن فرفعها إلى شفتيه. وكان ذلك آخرَ حركة في الاحتفال العام. وعاد الموكبان من حيث جاءا، على عجل هذه المرّة. وأقفر المشهد. وبقي الملك وحيداً. مع كأسه. ورفيق واحد هو عبد عجوز أصمّ مزوَّد بمِذَبَّة. وفي مواجهته، وفي كل مكان حوالَيْه، وعمّا قريب داخل ذاته، الأجداد والأرباب.

لأن الكأس تحتوي على شراب الآلهة، الـ «هَوُوما»، وقد حضّره البارحة «كردير» ومعاونوه تبعاً لطقس مُغرِق في القِدَم. وكانت أغصان نبتة الـ «هَوُوما» قد طُهِّرت وسُحِنت في هاون مقدَّس ثم مُزجت باللبن والأعشاب التي كان كبار الكهنة وحدهم يتناقلون سرّها. وإنه لشراب مقدَّس من (الهند) القديمة ومن (فارس) يُدخل الكائن الإلٰهي الذي يشربه في النشوة الصوفية التي بها يتّحد بالأرباب الآخرين.

ويتلوّى العـاهل من التشنّج بتأثـير الـ «هَوُومـا»، غير أنّـه لا يُفترض في أيّ شخص عاديّ أن يُوقف هذه الإفراطات الخارقة. ويستسلم العاهـل للهذيـان، بيـد أنه لا يُفـترض في أيّ شخص عاديّ أن يسمـع مـا يصيـح بـه أو يُغِمْغِم؛ ويقول عنه المؤمنون إنه في حديث سرّيّ مع أجداده.

وفاضت روح ملك الملوك في أثناء ممارسته ربوبيَّته تحت عَيْنَيِ الخـادم العجوز الأصمّ الجامدتيْن الساهرتيْن.

وفي الليل، وبينما كان الشعب والأعيان لا يـزالون يشربـون في صحّة الإلٓهي «هـرمز»، كـان رؤساء الـطبقات المجتمعـون للانتخـاب قـد عيَّنـوا ملك الملوك الجديد. «بهرام». ذلك الذي كان الكهنة يُؤْثِرونه.

تُـرى من كان يستـطيع أن يخـطىء في هويّـة المُسمِّمين؟ ولكن من يستـطيع أيضاً أن يُعاقبهم أو أن يُقدِّم الدليل على تجريمهم؟ وتقرّر أن العـاهل لم يتحمّـل شراب الآلهـة، أو أنّـه ربمـا لم يكن جـديـراً بشربـه، أو ربّمـا لم يـوافق مـلاك الـ «هَوُوما» على تتويجـه. بل لقـد قدّمت بـداهة الجـريمة حجّـة للقَتَلَة: لو أراد «كردير» أن يقتل فهل كان يفعل ذلك بيديه أمام البلد مُجتمِعاً؟

- ٦ -

إذا كان «هرمز» قد قُتل فلأن وصوله إلى العرش بدا للكهنة والمحاربين وكأنّه مدخل إلى انتصار «ماني». بيد أن هذا الأخير لم يُرِد قطّ تصديق مثل هذه المعجزة. وعندما بدت «ديناغ» نشوى بالأمل والسعادة فقد جهد في إفهامها أن انحراف العالم لن يدع نفسه يُصرّع على هذا النحو، وحدّثها عن الألم والصبر والمِحَن. لقد علّمته السنوات الطويلة التي قضاها بجوار «شاهبور» أن يحترز من جميع الأوهام. فماذا أفاده حِلفُه الواعِد مع «الساساني» الأعظم ما دام «الرسول» لم يستطع منع الحروب ولا أعمال الاضطهاد، وما دام أقوى عاهل في عصره لم يجرؤ على تحدّي الطبقات أو الوفاء بوعده بتغيير ديانته؟.

كانت نفس «ماني» عامرة بالمرارة في ذلك العام المضطرب. وبالإعياء أيضاً. وبِوَعْي مُقيم. فحكم «هرمز» ما كان ليكون في نظره سوى فُرْجَة متأخِّرة وعابِرة في سماء من الظُلُمات. وإذا كان قد حزن عندما تلقّى نبأ موته واغتمّ وثار فإنّه أراد أن يمنع أخصّاءه من الانتحاب. وقد قال لهم:

- لسوف تبدأ المِحنة الكبرى. ورغبتي هي ألاّ يصحبني أيّ منكم على هذا القِسْم المُضني من الطريق الذي لا يزال ينبغي أن يقطعه جسدي.

لم يشأ «مالكوس» أن يبتعد. إلا أن «ماني» طلب منه بحزم أن يأخذ

«كْلُوريه» وجميع أبنائهما للعيش في (صور). وهكذا عاد عدد كبير من أتباعه إلى بلدانهم الأصلية.

عندما عاد «بهرام» بعد تتويجه إلى (المدائن) حضر أحد الرسل النبلاء يُعلن لِـ «الرسول» القرار الخاصّ به. «يُطرد «ماني» ابن «پاتيغ»، من عِرْق «الپارتيين» وطبقة المحاربين، الطبيب حالياً، ابتداء من هذا التاريخ من أراضي (ما بين النهرين) و(أرمينيا) و(پرسيديا) لنشره آراء مختلفة مخالفة لـ «الدين الصحيح». . . ».

مطرود؟ مطرود وحَسْبُ؟ إن «ديناغ» وجميع من اختاروا البقاء إلى جانب «ماني» جاؤوا يلمسون كتفه وركبته، ثم رفعوا أصابعهم المصدِّقة إلى شفاههم. فهم الذين أمضوا أياماً في التوسُّل إليه بأن يهرب، هم الذين كانوا قد رأوه مذبوحاً بيد العاهل قاتل أخيه، ها هم أولاء يَعْثُرون عليه من جديد.

ولا سيّما أنّه حدّثهم بحديث تحدُّ أدخل الفرحة إلى قلوبهم. يغادر (ما بين النهرين) و(أرمينيا) و(پرسيديا)، ولِمَ هذه البلاد وحَسْبُ؟ ذلك ما قاله لهم. إنّه سوف يبتعد عن «الإمبراطورية» بأسرها! لقد كان قد تباطأ كثيراً في كنف «الساسانيين»، ولقد فسد عمره فوق أراضيهم! ولم يكن قد رغب في الذهاب إلى (تدمر) كيلا يُسخِط «شاهبور». ولا حتى إلى (روما) التي كان يشعر بأنه مدعوّ إليها. ولا إلى (مصر) ولا إلى بلاد «الأحباش». ولن يَدَع نفسه منذ الآن تكون عرضة للعراقيل التي تشكّلها وعود الملوك، بل سيذهب! إلى (الهند) أوّلاً، (الهند) التي لم يكن قد فعل سوى ملامسة تُربتها الواعِدة. ثم إلى (التِبِتْ) فـ (طرقان) فـ (قشغر) فـ (الصين).

مطرود؟ بل مُحَرَّر بالحري من الأغلال الكئيبة التي كانت تُلصقه بـ «إمبراطورية» واحدة، بسُلالة واحدة.

واستأنف طريقه يتبعه أخلص خلصائه. لا مثلَ محكومٍ فارّ، بل بخيلاء

أحدِ الغُزاة. ولم يكن يتوقّف إلاّ في ساعات النوم، عاثراً في كل مرحلة، كما في الماضي، على منزل مفتوح فخور بإيوائه ومعترف له بالجميل.

وكان قد سلك نحو «الشرق» واجتاز (قنغشار) و(أيكبتان) وأوغل في طريق القوافل نحو (أَبَرْشهر) عندما التقى وجهاً إلى وجه مع «تَوْأَمه» أثناء استراحة عند مجرى ماء في رابعة النهار، وكان قد جلس للتأمُّل.

قال له «الآخر»:

«إنّك تجري وتجري، فهل تفكّر على هذا النحو في الإفلات من إعيائك؟»

ـ إني مُتَلَهِّف على اكتشاف جميع تلك الأُمم التي لم أحمل إليها رسالتي بعد. ألست أنت من قال لي. . . .

«كلا يا «ماني»، لقد فات الأوان. وقد ضاع منك طريقك. وعليك أن ترجع».

ـ إلى المناطق التي قد طُردت منها؟.

«سوف تجتاز المدن التي اسمك فيها أكثر الأسماء تبجيلاً، (كرخا) و(سوزا)، و(غوخاي) و(خُلَصٌ). . . فسوف يهرع الناس في كل مكان للقائك، وهناك آلاف الرجال والنساء يرغبون في الانضمام إلى رَكْبك. ولكنّك ستقول لهم وحَسْبُ: تأمّلوني، أشبعوا نفوسكم من صورتي، لأنّكم لن تَرَوْني أبداً على هذا الشكل!»

* * *

كان الحشد يقف تحت سور (خُلَصٌ) من جهتيْ باب (سوزا). الحشد اليومي القادم للوداع. وقد أصبحت تهاليل البارحة دموعاً كريمة في الوقت الحاضر. لقد مرّ «الرسول» ثم حاشيته. وكانت ثُلّة من الفرسان بانتظاره منذ الفجر. ودنا الضابط.

ـ أحمل أمراً بأن أقود «ماني» ابن «باتيغ» إلى الإلّهي «بهرام» ملك الملوك.

ـ وأين هو سيّدك؟

ـ في مقرّه الصيفيّ.

ـ في (بيت ـ لاپات)؟ هناك بالضبط تكتمل حلقة جولتي. اذهب وقل لسيّدك إنّ «ماني» في الطريق إليك!

كان ابن (بابل) قد تكلّم بلهجة لا مجال معها للردّ. وبتربيتة على خاصرة مطيّته استأنف سيره من غير أن يحفل قطّ بمخاطبه. وإذ ذُهل هذا الأخير فقد تردّد دقيقة ضاعت سدى ثم لوى عِنان جواده بصحبة رجاله. وإذ كان قد حضر لاعتقال «الرسول» الثائر فقد اكتفى بوعد من فمه.

حرّاً بلغ «ماني» (بيت ـ لاپات). وحرّاً طاف في الشوارع المحفوفة بالمؤمنين، حرّاً حتى سياج القصر، حتى جناح العاهل. واكتفى كاتب عجوز من الديوان بأن يفسح له الطريق خلال الردهات المحروسة؛ ثم رجاه بصوت ينمّ عن التوقير أن يجلس ريثما يُخْطِر الملك بوجوده.

كان «بهرام» جالساً مع أخصّائه لتناول وجبة الغَسَق. وانحنى الموظّف حتى لامس بلاط الغرفة.

ـ ليَصْفَحْ «جلاله الإلهي» لي تدخّلي. لقد وصل «ماني».

كان أول ما فعله العاهل هو أن استند على ذراع مقعده لينهض. ولكنّ عينيه التقتا عينيْ «كردير»، مُستشارِه الدائم، وترك نفسه يعود إلى جلسته.

ـ أعلم أن السيد قد عبّر عن رغبته في استقباله. هل عليّ أن أُدخله؟

ـ تُدخله؟ تُرغمه على الانتقال إلى هنا، شخص في مثل شهرته؟ يا له من حُكم خاطئ! سوف أذهب بنفسي لرؤيته!.

وأضاف خوفاً من أن يكون الكاتب قد احتقر تهكّمه الرفيق:

ـ لينتظرْ ذلك الرجل حيث هـو! سوف أراه حـين أفرغ من تنـاول طعامي. ولسوف أفسح لنفسي في الوقت.

كان العاهل عندما تقدّم من «ماني» قد استغرق الوقت الكافي للأكـل ولكثير من الشراب. وكانت السنون قد زادته بـدانة وأثقلت خَـطْوة من غير أن تُضفي عليه مع ذلك الوقارَ العفوي الـذي كان يتحـلّى به «شـاهبور» ولا سهـولة خُلُق «هرمز» الخلّابة. وكانت ذراعه اليسرى تحيط كتفيْ عشيقته المُراهِقـة، تلك التي تُطلق عليها الكتابات التـاريخية اسم «ملكـة الساقيّـين»، وهي تصغره بـأربعين عاماً، وقد سعى إلى تزويجهـا لحفيده. وبعيـداً خطوتـينْ كان يلوح ثـوب رئيس الكهنة الأصفر.

ـ لا مرحباً بك!.

كانت تلك كلمات «بهرام» الأولى. وبديهي أن «ماني» كان يُوحي إليـه بذعـر حقيقي كان يسيطر عليه بمضاعفة عدوانيّته. ورمق ابن (بابـل) مليّاً هـذا الابن الشائخ البدين غير العزيز الذي تعادل قسوتَه حـالةُ الـرثاء لـه. وأجابـه من غير غِلّ:

ـ لقـد أظهر لي بعض الأشخـاص العِداء عـلى الدوام من غـير أن أكون قـد سبّبتُ أيّ أذى.

ـ قل لي قبل أن نتحدّث عن الأذى الذي سبّبتَه ما هو الخير الذي قدّمتَه يوماً إلى سُلالتنا؟ إنه لا نفع فيك لا في الحرب ولا في القنص! تدّعي أنّك طبيب ولم يسبقْ أن شَفَيْتَ أحداً!

ـ كل أحد يعرف أني عالجتُ وشَفَيْتُ. . .

ـ لقد عيّنك أبي الإلّهي «شاهبور» طبيب القصر، غير أنّك لم تُفْلِح في تجنيبـه نوبات الحمّى ولا الآلام. وعندما طالب بك عـلى فراش مـوته فـإنك لم تـرَ من الخير أن تحضر!.

لقد أراد «شاهبور» إذن أن يراه لآخر مرة، غير أن أحداً قد اعترض السبيـل

لمنع وصول الرسالة إليه. ومن يستطيع ارتكاب مثل هذه الخيانة غير «كردير» و«بهرام» وشركاؤهما في التآمر؟ وأحسّ «ماني» بجَيَشان اشمئزاز وسُخط أرغم نفسه على كبحهما. وصمت.

وشعر الملك بما يشجِّع على المتابعة.

ـ وأخي، الإلهي «هرمز»؟ لقد كنتَ طبيبه، وكنتَ تزعم أنّك صديقه، غير أنه عندما ساءت حاله لم تكن كذلك إلى جانبه، إذ لم تجد فائدة في مصاحبته كما كان قد طلب منك. فربّما كنتَ خفّفتَ من وطأة آلامه.

حتى «كردير» بدا مُحْرَجاً من هذا التلميح، من هذا الاعتراف المبطَّن، غير أن «بهرام» رماه بغمزة واثقة. ما الذي يمكن أن يخشياه؟ لقد كان أحدهما رئيس الكهنة الذي له اليد العُليا في تدبير العدالة؛ وكان الآخر ملكاً.

ـ أنت لا تجيب!.

تنهّد «ماني».

ـ غيري يملكون الإجابات. في قلبهم وفي أيديهم.

لم يَزِد على ذلك. وإذا كان من الواجب تمحيص دعوى قتلة «هرمز» فلن يكون ذلك أمام مثل هذه المحكمة! وبدا «بهرام» خائب الفأل بأن يكون «ماني» قد اكتفى بردّ بمثل هذا التلميح. وحدجه بنظرة أراد أن يُضمّنها كلّ ما في وسعه من ازدراء. ثم توجّه إلى مثالب أخرى.

ـ عندما يطلبك ملك الملوك فإنّك لا تكون موجوداً على الإطلاق. ولكنّه عندما يحظر عليك زيارة هذه المنطقة أو تلك فإنّك لا تلبث أن تظهر في الأمكنة التي تمّ طردك منها. وإنها لطريقة غريبة في خدمة سادتك!.

تركه «ماني» يقول عنه ما يريد. فقد مَثَلَت في ذهنه من جديد صورة «شاهبور» مُحتضَراً ومُغَمْغِماً باسمه في حين كان عند فراش مرضه كائنات ظلّوا يتظاهرون بأنهم لا يسمعون. وإنها لصورة مُكْرِبة، ولكنّها تحمل كذلك عزاء

حـارّاً. فلم يكن ابن (بابـل) يأسف قطّ في هـذه اللحـظة عـلى السنـوات التي قضاها بجوار «الساساني» الأعظم.

وفيما كان «بهرام» لا يزال يطنّ:

ـ لقد قرّرت طردك وعصيتني!

ـ لقد أطعتُ صوتاً سماوياً أمرني بالقيام برحلة أخيرة.

ـ صوت سماوي! ذلك ما كنت تـدّعيه عـلى الدوام! لمـاذا تكلّمك «السـماء» تُرى؟ لماذا تختار تُرى من هذه «الإمبراطورية» أحد الرعايا البائسين بساق ملتوية بدلاً من التوجُّه مباشرة إلى ملك الملوك؟. .

كـان «ماني» منـذ بدء المقـابلة يمنح نفسـه عند كـل سؤال من «بهرام» بضـع لحظات من الانتظار قبـل أن يجيب. وهي طريقتـه في الإشارة إلى أنـه كان قـد رغب كل الرغبة في إسلام نفسه إلى السلطة الدنيـوية لا إلى الشخص الضعيف الذي يُجسِّدها. ولكنه أطال انتظاره هذه المرّة وعيناه غائصتان في عَيْني الملك.

ـ لا بدّ أنّ لِـ «السماء» دواعيَها، «هي» التي تعرف الناس بعيداً عن هيئاتهم.

لم يصدر عن «بهرام» أي ردّ فعل. وبدا فجأة وقد اهتزّت أعطافـه وثاب إلى رشده. وأراد «كردير» تأجيج غضبه:

ـ ألا يسعى هـذا الرجـل إلى القـول إنـه أولى بـالشرف من أفـراد السُـلالـة الإلّهيين؟.

لم ينبس العاهل بكلمة. وظلّ مُستغـرِقاً. واقـترب منه الكـاهن ومسّت كتفُه كتفَه وكأنّما من غير انتباه. وابتسم «ماني». فما كان أيّ شخص ليجرؤ على فعل هـذا مع «شـاهبور» أو «هـرمز»! بيـد أن «بهرام» نفض رأسـه وكـأنّـه يُفيق من قيلولة. واستأنف مساءلته من حيث تركها.

ـ ذلك إذن هو الصوت الذي أمرك بمعصية ملك الملوك. وبأن تتمرّد وتثور.

ـ لم يحدث قطّ أن شهر أحد سيف الثورة باسمي!

ـ لقد زرعتَ القلاقل. وصرفتَ المحاربين عن واجبهم والحِرفيّين عن مهنتهم. ودعوتَ الناس إلى احتقار الفواصل بين الطبقات والأعراق. وها هم أولاء التّجار ينظرون الآن في عيون الفرسان. ولم تعُدْ كلمة الكهنة مسموعة. أليس في هذا ثورة؟

ـ لم يحكم الإلّهي «شاهبور» بأن تعاليمي ضارّة وإلاّ لما سمح لي بنشرها مادام قد كتب إلى الأعيان في جميع الأقاليم بأن يمدّوا لي يد العون. أفيكون قد شجّع تصرّفات مُنافية لمصالح «الإمبراطورية» والسُلالة؟

ـ لقد هدهدتَ حَذَره.

ـ هدهدتُ حَذَره طَوال ثلاثين عاماً؟ هو الفاتح، هو الملك المرهوب الجانب في عهده، يَدَع نفسه يُخدع بأقوالي طَوال ثلاثين عاماً؟ ثم يطلبني وهو على فراش الموت؟ ويسمّي خَلَفاً شرعياً له في آخر نسمة من حياته الابنَ الذي يعرف كلّ أحدٍ أنه صديقي وحامِيَّ، ذلك الذي كان أعدائي يخشونه؟ أفيُسعى اليوم إلى تلطيخ اسمي أم إلى تلطيخ اسم كبار الملوك؟

ـ لا تَزِد كلمة واحدة!.

تقدّم «بهرام» من «ماني» وكأنّه يريد أن يأخذ بتلابيبه، ثم إنّه تذكّر مقامه الإمبراطوري فاكتفى بإطلاق لعنة لم تُسمع.

حلّ «كردير» محلّ الملك ريثما يستعيد هدوءه. من أجل أن يصوغ تهمة محدَّدة.

ـ لقد اقترفتَ يا «ماني» بن «پاتيغ» بتخلّيك عن «الدين الصحيح»، دين أسلافك، ذنب المروق. واقترفت بنشرك آراء تجديدية زعزعت المؤمنين ذنب الهرطقة. جريمتان في حقّ «السماء».

ـ لقد ابتعدتُ بالتأكيد عن آراء «كردير» غير أني لا أزال مُخلِصاً لـ «زرادشت».

ثاب العاهل بغتة إلى رشده.

ـ إن ما سمعته يكفيني. الاتّهام بيِّنٌ والدفاع يضارعه بياناً. وإذا ثبت اتّهام «ماني» بالهرطقة والمروق فجزاؤه الموت. وإذا كان لا يزال أميناً لتعاليم «زرادشت»، كما يؤكّد، فإني استنكف عن عقابه وأتعهّد بالعفو عن عصيانه أمري. أليس هذا موافقاً لشريعتنا؟.

أمّن «كردير» على قوله. ولم يقُل ابن (بابل) شيئاً. فلم يكن يُدرك المساومة المُقترَحة. وعلى كل حال فإنّ الملك لم يكن ينتظر موافقته. بل قال:

ـ لنبدأ المحاكمة.

ثم ذهب يجلس. ودعا «ماني» للجلوس على أريكة قُبالته. وكان الشخص الذي بدأ المشهدُ يروقه هو عشيقةَ الملكِ الشابّةَ. وقد جاءت تلتصق به وهي تسأله أن يشرح لها كيف ستجري الأمور.

ـ سوف يعرض الطبيب البابلي الكريم آراءه، وإذا حُكم بأنها مخلصة لِـ «الدين الصحيح» خرج من هنا حرّاً وأفاد من حمايتنا. «ماني»، إننا مُصغون إليك.

بيد أن المراهقة لم تكن قد فهمت جيداً.

ـ من ذا الذي سيحكم بعد سماع هذا الرجل بما إذا كان مُخلِصاً أو مُهرطِقاً؟

ـ الشخص الوحيد الذي يتمتّع بميزة الحسم في هذه القضايا: الكاهن الأكبر «كردير» الذي يُسْعِدنا الحظّ بأن يكون بيننا.

أصاب «ماني» مرّة أخرى مَخْرَجاً للضحك.

ـ أُفضّل بدلاً من الاستسلام لمساخركم أن أتلقّى من يديك كأس «هَوْوما» ممزوجة بسمّ «الانتيار» القتّال. أم كان ذلك السمّ هو الشوكران؟.

وأصدر «كردير» حكمه:

ـ لقد دانتك هذه العبارة.

ـ لأنه كان قد عُفي عني قبل أن أتلفّظ بها؟.

واعترف «بهرام» من غير مواربة:

ـ كلاّ، لأني كنت قد اقسمت بأجدادي أن تموت. غير أن خيانتك تستحقّ أن تتألم من أجلها.

- ٧ -

أسْلِم «ماني» للتعذيب بالحديد. فقد رُبطت سلسلة ثقيلة حول عنقه وثلاث أُخَر حول جذعه وثلاث في كل ساق وثلاث أيضاً في كل ذراع. من غير أي نوع آخر من العنف أو التعذيب أو السِّجن. فقد كان مُحْتَجَزاً وحسبُ في فِناء مبلّط بالقرب من موقع للحراسة.

لم تكن الزيارات ممنوعة عنه. ما إن عُلم أمر الحكم في أحياء (بيت - لاپات) حتى بدأ الناس يتقاطرون. فكان هناك التلاميذ الذين يقتربون منه بقدر ما يسمح به الحرّاس ليقذفوا بزهرة عند قَدَمَي «الرسول». غير أنه كان هناك أيضاً، كما في كل تعذيب علني، جمهور المتسكّعين. فما كان من أحدٍ من أهل المدينة أو الجوار يريد أن يفوته مشهد شخص يُعذَّب. وكان الناس يَفدون عائلات بأجمعها، وإذا حدث أن ارتاع الأطفال فإن ذويهم كانوا يُهدِّئون روعهم بضحكة خفيفة.

وأخذ بعضهم على عواتقهم واجب تأنيب المحكوم أو وعْظه. بدافع التفاني أو بدافع عِداء متأصِّل، وبعضهم لمجرّد الحرص على الاستقامة، ولكنهم لم يكونوا جميعاً يستطيعون العزم على الإفادة على هذا النحو من التسلية الممنوحة من الملك من غير أن يدفعوا كلمةً ما ثمناً لذلك.

في اليوم الثالث من بَلِيّة «ماني» الأخيرة كان أهل المدينة لا يزالون يتقاطرون. حتى غروب الشمس حين كان يُغلق الباب الخشبي الكبير لسجنه الكائن في العَراء. وظلّ بحراسة جنديين أمْرَدَيْن كانا يحيطان به عن كَثَب وهما يتحاشيان أن تلتقي نظراتهما بنظراته. وبغتة انطرحا ووجهاهما إلى الأرض بقدْر من العنف انسلخ معه جِلد راحاتهما. فلقد مثَل أمامهما العاهل بلحمه ودمه. وحده.

وأمرهما بتَنَحْنُحة أن يتواريا. وبعد شيءٍ من التردّد اختار الجلوس على حافة إفريز من الحجر مُشْرِفاً على «ماني» وقيوده.

ـ وددت أن أحدّثك أيها الطبيب البابلي. فهناك سؤال يُحيّرني منذ لقائنا الأول.

بدت نبرة «بهرام» ويا لَلغرابة مجرّدة من كل غِلّ. ودودة أو شبه ودودة. وكلّف السجين نفسَه رفع عينيه.

ـ ذلك الصوت السماوي الذي يتحدّث إليك يا «ماني». . .

كان في كلماته حَرَج، بل شبه ضراعة صادرة عن طفل.

ـ سبق أن أجبتني ذلك اليوم. بيد أن فضولي لم يشبع.

تأمّله «ماني» مرّة أخرى بغير اهتمام، ولكنْ من غير شرارات عِداء. ثم أخذ يقصّ عليه بهدوء بدايات رسالته، «التَوْأم» وبستان النخيل و(الهند) حتى أولِ لقاء مع «شاهبور». وكان صوته يشي بإعياءِ حاملِ صليب. واقترب الملك وانحنى ليسمع بشكل أفضل. وعندما قاطعه كان ذلك بهمس صادر عن شخص حميم.

ـ لكنْ، لِمَ أنت يا «ماني»؟ لماذا لم يحدث أن كلّمت «السماء» الإلهي «شاهبور» مباشرة؟

ـ كيف كان الناس سيدركون أن الجلال النابع منه صادر عن «السماء» لا

عن قوّته الـدنيويـة الخاصّـة؟ في حين يُشْهِـد الرجـل الوضيـع على نفسـه ما إن يتألّق.

هزّ «بهرام» رأسه هزّة تُنبىء باطمئنان نفسه. قبل أن يتابع.

ـ سؤال آخر يشغلني. ما الـذي تراك قلتـه لأبي ولأخي «هرمـز» ولأعمامي، ولتلك المرأة، «ديناغ»، فيعـاملوك بمثل هـذا القدر من التّجِلّة؟ أفـلا تكون قـد كشفت لهم شيئاً من سرّ الكون؟

ـ لقد سمعوا من فمي الحقائق التي كانت في أنفسهم. فـالمرء لا يسمـع قطّ إلّا صوت نفسه.

كـان «ماني» قـد غمغم بهذه العبـارة الأخـيرة بنـبرة تشي بـالاعـتراف، فـزاد «بهرام» من انحنائـه. ولقد كـانا بعمـر واحد تقـريباً، غـير أن ابن (بابـل) ظلّ نحيلاً. ومنذا الذي كان في وسعه أن يرتاب وهو يراهما يتحدّثان على هذا النحو في أن مَنْ كـان يستجدي راحـة البال كـان هو السّجـان. وأن من هو ضحيّتـه استطاع الردّ بمثل هذا القـدر الضئيل من الـوجْد. من غـير تعاطف مـع ذلك، ومن غير كلمة تسعى إلى استثارة الشفقة. ولا العفو. بل لكـأنّ عذاب «مـاني» ما كان ليكون موضوعاً جديراً بأن يطرقه الرجلان في هذه الأمسية.

في اليوم الثامن تلقّى «الـرسول» زيـارة «زراف» عازف العـود الذي كـان قد ظلّ أربعين عـاماً مـوسيقيّ «شاهبـور» الأثير، وقبله مـوسيقيّ «أردشير» الأثـير. وكـان رجلاً أبيّـاً طويـلاً ممشوق القـامة، وكـانت أصابـع الثمانينيّ الـذي كـانـه معروقة. بيد أنّها كانت تستعيد نضارتها لدى ملامسة الأوتار.

لقد كان على الدوام يُقدِّر حكمة ابن (بابل)، وكانت قد جـرت بينهما قـديماً مناقشات طويلة وادعة. ولقد أحفظه الحكم عليه. وكان قد قدِم بصحبـة عوده بوصفه لـوناً مـن ألـوان الاحتجـاج. وكـان دخولـه مرمـوقاً. وسـار مباشرة إلى «ماني» وقبّل يده المغلولة ثم تـربّع بقـربه وأخـذ يعزف بعض الأنغـام الشجيّة. وران الصمت على الجمهور.

ولما كانت هيئته الأميرية قد تركت الجنود الشبّان بلا حَوْل ولا قوّة فإنهم لم يجسروا على التدخّل. وما لبث أن حضر لنجدتهم أحد وجهاء البلاط. وكان هو نفسه يشعر بالضيق أمام هذا النُّصُب الحيّ من أنصاب «الإمبراطورية». وتمتم قائلاً إنه من غير اللائق برجل له مثل مقام «زراف» أن يأتي للعزف في مكان بمثل هذه الخِسّة.

ودهش الموسيقيّ العجوز:

- أولستُ في حَرَم القصر؟

- بلا شك. ولكنْ هذا فِناء التعذيب!

- إن هذا المكان هو اليوم في نظري أكثر أمكنة القصر احتراماً وأَضْوَعُها عِطراً.

- إن من عزف للملوك لا يقدر على العزف لمحكوم بالتعذيب!.

وقبل أن يردّ «زراف» سمع صوت «ماني» اللاهث. ولم يكن يتدخّل في النقاش. على الإطلاق. بل لم يكن لِيُشعِر بأنه أصغى إليه. ولقد بدا وكأنّه يتابع مع الموسيقيّ حديثاً بعيد العهد.

- اعلم يا زراف» أنّه في فجر الكون كانت جميع المخلوقات تسبح في نغم علويّ، وقد أنسانا إيّاه سديم الخَلْق. غير أن عوداً مدوزناً مع روح الفنّان قادر على بعث تلك النغمات الأصليّة...

وصاح «زراف»:

- ما أعذب وقع كلمات الحكيم في مسامعي!.

وإذ نسي التهديدات والكلامَ المنمّق فقد استأنف العزف نشِطاً ومُلْهَماً حتى المساء.

ويقال إنّ «بهرام» كان في القنص ذلك اليوم، وأنّ أحداً لم يجرؤ في غيابه أن يأخذ على عاتقه مهمّة الإساءة إلى موسيقيّ الملوك الجليل.

وعندما رجع الملك في اليوم التالي ذهب بعض الجنود إلى عازف العود لاستدعائه فاكتشفوا أنه قضى ليلاً في دَعَةِ سريرِه الضيّقة، وكان موته موقفاً أخيراً من مواقف الاحتجاج.

وفي اليوم الرابع عشر كان المتسكّعون قد تعبوا وازداد تجمّع المخلصين عدداً. ومنعهم الحرّاس من الجلوس وأرغموهم على الاستعراض بصمت، وكانت سهرة نهارية طويلة كان يبدو «ماني» خلالها مُتمَلْمِلاً. وكان يُغفي ثم يستيقظ ويتحرّك ساعياً إلى فكفكة أطرافه المتيبِّسة. ولكنّه ما إن كان يصل إلى وضع حتى يسعى إلى العودة إلى الوضع السابق.

وخُيِّل في لحظة من اللحظات أنه سُمع يقول:

ـ لقد كتبتَ وكتبتَ ولم يقرأوا. وقلتَ شيئاً وفهموا شيئاً آخر. لقد أراد الناس شيئاً آخر.

وكانت دموعه تسيل فينظر المؤمنون بعْضهم إلى بعض ويتساءلون عمّا إذا كان يعنيهم هم بحديثه.

وفي اليوم السابع عشر ظُنّ أنها النهاية الوشيكة وترك الحرس التلاميذ يقتربون. وكان هناك سؤال واحد من بين جميع الأسئلة ينبغي أن يُطرح، غير أن قلب «ماني» كان ينبض في شفته السُّفلى، وعَدَل المؤمنون عن جعله يتكلّم خوفاً من زيادة لهاثه.

وكأنّما كان قد سمع ما ضاقت به صدورهم ولم يعبِّروا عنه ففتح عينيه. ليقول بنبرة جليّة:

ـ وبَعْدُ؟ إنّ ما كان فيّ من «ظُلُمات» سوف يعود إلى الظُّلُمات، وما فيّ من «نور» سوف يبقى «نوراً».

لم يُرْوَ غليلُ أيّ منهم. إلاّ أن كلام «الرسول» كان مُترنّحاً فأذعن التلاميذ.

ومع ذلك فقد عاودته صحوة نشاط عند العصر قبل موعد إقفال الأبواب بقليل. وشمخ رأسه عالياً وبلغ صوته الأسماع. أم أنه كان صوت «التَّوْأم»؟

ـ عندما تُغمض عينيك للمرة الأخيرة فإنهما لن تلبثا أن تنفتحا من غير أن تكون قد قصدت. وستكون لحظتك الأولى مصنوعة من عدم التصديق. مهما يكن إيمانك. فالشكّ موجود حتى لدى أرسخ المؤمنين إيماناً؛ وفي أشدّ أنواع عدم الإيمان صفاقةً يسكن الأمل الذي لم يُبَح به. وبإزاء «عالم الغيب» فإنّ الناس لا يقومون بغير أداء أدوار، وإيمانهم المشترك مكتوب في تعب أجسادهم.

وتوقّع الحاضرون أن يستعيد أنفاسه بصعوبة، ومع ذلك فقد تابع:

ـ ثم يأتي دور التجربة.

وإذ همس أحدهم حول «ماني» بكلمة «حساب» فإنه أجفل وكأنه أُهين.

ـ أيّ «حساب»؟ عندما تُغمض عينيك فإنّ الحكم يكون قد لُفظ به! بشفتيك بالذات.

كان وجهه بأسره قد استعاد حيويته. وراحتاه وأصابعه وحنجرته وجذعه.

ـ وما إن تنقضي لحظة عدم التصديق حتى يستعيد كل أحدٍ عيوبه وعاداته. وتبدأ الغربلة بين بني البشر. من غير ما حاجة إلى محكمة. فمن عاش بالهيمنة اشتكى من أنّه لم يعُدْ يُطاع؛ ومن عاش بالمظهر فَقَد كل مظهر؛ ومن عاش لأجل الامتلاك غدا لا يملك شيئاً، ويدُه تُطْبِق على العَدَم. وما كان له فهو من الآن فصاعداً لغيره. وسوف يغشى على الدوام، شأن الكلب المربوط بسلسلته، أمكنة إقامته الدنيوية، مقيَّداً، متسوِّلاً مجهولاً في المكان الذي كان فيه سيّداً.

«وحدائق النور تخصّ من عاشوا مُتحرِّرين من القيود».

صمت وغمضت عيناه. ثم عادت شفتاه تتحرّكان في وجه مُشرق، وكأنّ عظته كانت تتتابع له هو نفسه. وكان جزءٌ غيرُ متماسك من عبارة يُفلت منه من حين إلى آخر.

«. . . لن تجرح الشمس عينيك بعدُ. . . أنت يا من يعرف التأمّل في سعادة

الآخرين. . . كل عطور الحبيبة. . . لن تشيخ هذه المرأة أبداً. . . هرم ضائع القمّة. . . سوف تجد فيه جميع الكتب. . . وتلك التي لم يكتبها أحد. . . سوف تتعلّم أعمارَ الكون. . . سوف تذهب إلى (مصر) التي في «العالم الآخر». . .».

كان تلاميذه منحنين فوقه لالتقاط هذه الشذرات. وكانوا جميعاً يطمعون في اللحظة التي أخذ يعيش فيها.

في اليوم العشرين أمر مُخْلِصيه بالرحيل. جميع الرجال والنساء الشباب، أولئك الذين يمكن أن ينالهم الاضطهاد.

عندها حدثت تلك الجلبة السامية. وانتشرت كلمة من غير أن يُعرف قطّ أيّ فم هتف بها. ولم تكن من ابن (بابل)، فقد همس فقط: «ابتعدوا، تفرّقوا، دعوا سيل الانتقام يمرّ، وفيما بعد تعودون إلى النهوض». غير أن التلاميذ أذاعوا وصيّة مختلفة: «كتابة اسم «ماني» في كل مكان!».

كتابته بالفحم، بالطباشير، ولكن نقشه فوق ذلك. نقش الحروف المحفورة عميقاً في الخشب والحديد والحجر. وعلى صُوى مفارق الطرق، على جدران المدن، على جميع مباني «الإمبراطورية» من سجون وقصور وثكنات، وفي جميع أماكن العبادة، كانت أيدٍ كثيرة قد خطّت، كلّ بلغتها، اسم «ماني». بحميّة، كيلا يتمكّن أحد من محوه.

ضد الموت. ضد القيود. ضد قيود «ماني».

* * *

في اليوم السادس والعشرين انتهى آخر فصل من معاناته. ولن يلبث تلاميذه أن يتحدّثوا عن تعذيب، عن شهادة، عن صَلْب؛ ولكان «ماني» قال ببساطةٍ: «طَرْدي».

كان لا يزال يسهر عليه نساء ذوات شعور رمادية. مذهولات خرساوات مقهورات غارقات قبل الأوان في الحِداد الآتي عمّا قريب. فلم يَعُدْ يستطيع

الحراك، وهو يتنفّس بصخب، غير أن نظرته لا تزال حيّة.

وقد التقت نظرةَ «ديناغ». وأدركت ما يريد فذهبت تهمس في آذان النساء. فنهضْنَ. واستعدْنَ صورة وجوههن.

وكان بينهنّ تلميذة تُدعى ابنة «أثيبار». وشرعت تغنّي بصوت عذبٍ الأقوالَ المحفوظة.

يا شمسنا الكريمةالتي تُغدِق الدفء
وتُغدِق معه الظلّ الذي يظلّلنا
أيّتها الشمس التي تُنضج العناقيد والأجساد ليوم العيد
ثم تنسحب لكي نتمكّن من الاحتفال
أيّتها الشمس التي تُغمض عينيها عن إفراطاتنا، وعلى ما
نرتكبه، نحن الزائلين، من حماقات
وتحضر في اليوم التالي بمزاج رائق، وبالسخاء نفسه
ولا تنتظر منّا حمداً ولا خضوعاً
كريمة هي شمسنا عندما تُشْرِق
وكريمة هي عندما تَغْرُب...

كانت ابنة «أثيبار» قد بلغت هذه الكلمات عندما توقّف عذاب «ماني». وأسبلت «ديناغ»، وكانت أقربهنّ منه، جفنيه. ثم طبعت على شفتيه آخر قبلة حيّة. وحاكتها النساء الأخريات.

كان ذلك عام ٥٨٤ من تقويم فلكيّي (بابل)، في اليوم الرابع من شهر «آذار» ـ وفي التقويم المسيحي في اليوم الثاني من «مارس» (آذار) عام ٢٧٤ م، وكان يوم اثنين.

ومذّاك تختلط معاناة «ماني» بمعاناتنا. [تُطلق لفظة «معاناة» على ما قاساه السيد المسيح من عذاب وآلام].

خاتمـة

رفض الملك أن يُسلِّم جثمان «ماني» إلى تابعيه خـوفاً من أن يتحـوّل قبره إلى مَزار؛ وأمر أيضاً بأن يُعلَّق جثمانه قبل زواله مدة ثلاثة أيام عـلى مدخـل (بيت - لاپات) محشُوّاً قشّاً وعارِياً للتعرّف عليه من ساقه الملتوية. ولتقديم الـبرهان إلى جميع الناس بأنه قد مات.

غير أن جزء الجدار غدا بحدّ ذاته مزاراً، وهو شـاهدة قـبر عملاقـة ما كـان بالإمكان نزع طيف «الرسول» عنها. وأقسم المؤمنون بها عـلى تحدّي المـوت بألّا يعـرفوه إلّا بـاسم «ماني الحيّ». وهما كلمتان أضحتا متلازمتـين في حكايـاتهم وصلواتهم، حتى إن الإغريق لن يسمعوا سوى كلمة واحدة سوف يكتبونها على هذا الشكل: «مانيخايوس». وسيقول آخرون «مانيخوس» أو حتى «مانيخيه».

هل حُرِّف اسمه؟.

حبّذا لو توقّف الأمر عند هذا الحدّ! .

فمِن كُتُبه، ومن الأعمال الفنية التي تفانى في إبداعها، ومن ديانته السمْحـة، ومن سعيه المضني لنشر دعوته، ومن رسالته الداعية إلى الانسجام بـين الناس، بين الطبيعة والألوهيـة، فإنـه لم يبقَ أيّ شيء. ولم نحتفظ من دين الجمال الـذي أتى بـه، من دين النور - الـظلمة المُرْهَفِ، بغير هـاتين الكلمتـين، «مـانـويّ»

و«مانويّة»، اللتين أمستا في أفواهنا مَسَبَّتَيْنْ. لأن جميع رجال محاكم التفتيش في (روما) و(فارس) قد تضافروا على تشويه «ماني» لإخماده وطمسه. ففي أيِّ الأمور كان خطِراً بحيث وجبت مطاردته على هذا النحو حتى في ذاكرتنا؟

لقد كان يقول «قدِمتُ من بلاد (بابل) لأجعل صيحة تدوّي في أرجاء العالم».

ولقد سُمِعتْ صيحتُه خلال ألف عام. ففي (مصر) كان يُدعى «حَواريّ يسوع»؛ وفي (الصين) كان يُطلق عليه لقب «بوذا النور»؛ وكان أمله يُزهر على ضفاف ثلاثة محيطات. ولكن لم يلبث أن حلّ الحقد وأن احتدم الهجوم. فلقد لعنه أمراء هذا العالم، وغدا في نظرهم «الشيطان الكذّاب» و«الوعاء الناضح بـ «الشرّ»، وفي دعاباتهم المسعورة «المُخَبَّل»؛ وصوته «سِحْرٌ خَؤون»؛ ورسالته «طِيَرة خبيثة» و«هَرْطقة نَتِنَة». ثم فعلت المحارق فعلها مبتلعة في نارٍ ضَلاميةٍ واحدة كتاباته وأيقوناته وأكمل تلاميذه وأولئك النسوة الأبيّات اللائي كنَّ يرفُضْنَ أن يبصُقْنَ على اسمه.

إن هذا الكتاب مُهدى إلى «ماني». وقد سعى إلى سرد حياته. أو ما لايزال بالإمكان تخمينه منها بعد هذا القَدْر من عصور الكذب والنسيان.

الفهرس



حدائق النور، قصة ماني، ذلك الرجل الطبيب الرسام والرسول، الذي وضع في القرن الثالث من تاريخنا، رؤية جديدة للعالم.

لقد كان يقول «قدمتُ من بلاد بابل لأجعل صيحة تدوّي في أرجاء العالم».

ولقد سُمعتْ صيحتُه خلال ألف عام. ففي (مصرَ) كان يُدعي «حَواريّ يسوع»؛ وفي (الصين) كان يُطلق عليه لقب «بوذا النور»؛ وكان أمله يُزهر على ضفاف ثلاثة محيطات. ولكن لم يلبث أن حلّ الحقد وأن احتدم الهجوم. فلقد لعنه أمراء هذا العالم، وغدا في نظرهم «الشيطان الكذّاب» و«الوعاء الناضح بـالشرّ»، وفي دعاباتهم المسعورة «المُخبَّل»؛ وصوته «سحْرٌ خؤون»؛ ورسالته «طيرة خبيثة» و«هَرْطقة نتنة». ثم فعلت المحارق فعلها مبتلعة في نارٍ ظلامية واحدة كتاباته وأيقوناته وأكمل تلاميذه وأولئك النسوة الأبيات اللائي كُنّ يرفُضْنَ أن يبصُقْنَ على اسمه.

إن هذا الكتاب مُهدى إلى «ماني». وقد سعى إلى سرد حياته. أو ما لا يزال بالإمكان تخمينه منها بعد هذا القدْر من عصور الكذب والنسيان.